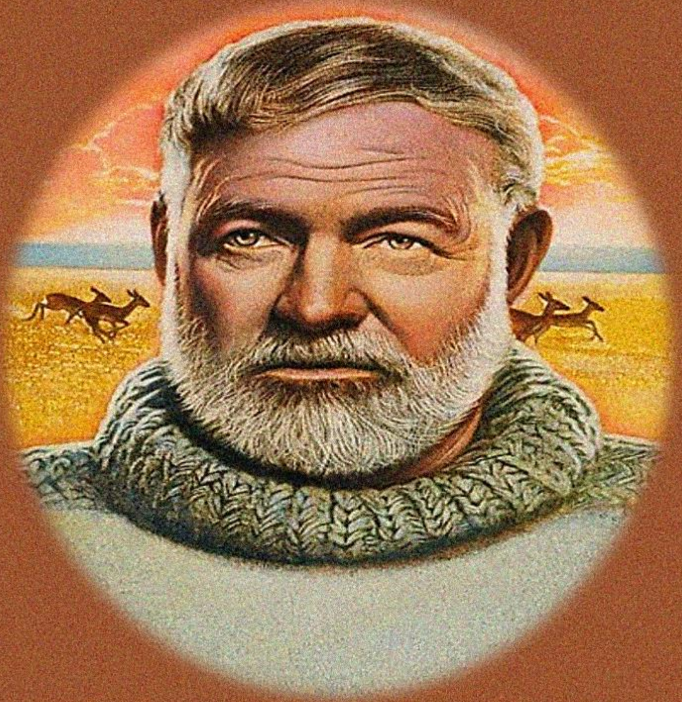
1954

مكتبة نوبل

إرنست همنغواي

ولا تزال الشمس تشرق



ترجمة

بديع حقي

ولا تزال الشمس تشرق

١٩٥٤

مكتبة نوبل

ارنست همنغواي

ولاتزال الشمس تشرق

ترجمة: د. بديع حقي

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : ارنست همنغواي .
عنوان الكتاب : ولاتزال الشمس تشرق
ترجمة : د. بديع حقي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author: Ernest Hemingway
Title : The Sun Also Rises
Translator: Badi Haqi
Al- Mada : P. C.

First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر
سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

الجزء الأول

الفَصلُ الأول

لقد اتفق لـ « روبرت كون » أن يضحي ، ذات مرة ، بطلاً للملاكمة ، من وزن المتوسط ، في جامعة (برنستون) . ولا يذهبن بكم الظن الى أنني أؤخذ بلقب بطل ملاكمة ، ولكن الأمر بالنسبة لـ« كون » كان ذا شأن كبير .

ولم يكن « كون » يحب الملاكمة ، كان ينفر منها في الواقع ، ولكنه تعلمها بمشقة ، وحذقها الحذق كله ، ليساوق الشعور بالنقص والخجل الذي كان يجاذبه وهو يعامل في جامعة (برنستون) على أنه يهودي .

كان مما يسرّي عنه أن يعلم أنه قادر على التّطويح بكل من يتصدى له ، بوقاحة . وإذ كان فتى خجولاً لطيفاً فإنه لم يكن يعمد الى الملاكمة ، إلا في مدرسة الألعاب الرياضية .

وكان « كون » ألمع تلاميذ «سبيدر كيلي» ، وكان «سبيدر كيلي» يوصي فتيانه بأن يلاكموا كما لو كانوا من وزن الريشة دون النظر الى وزنهم سواء أكان مئة وخمس لبرات أو مئتين وخمس لبرات ، وكان هذا النهج يبدو ملائماً لِ« كون » ، فقد كان سريع الحركة . وكان ، من الطيبة ، بحيث أغرى « سبيدر » بحمله على ملاكمة أشخاص أقوى منه بكثير ، واستتبع ذلك ، أن أنفه أضحى مفلطحاً دوماً .

ولم يخلص إليه من هذا كله سوى شعور غريب بالرضا وبأن أنفه أصبح ، دون ريب ، أكثر وسامة .

وفي السنة الأخيرة من دراسته في (برنستون) عكف على المطالعة واضطر الى وضع نظارة لعينيه . بيد أنني لم ألتق ، البتة ، بشخص من رفاق صفه يذكره ، ولم يكن ثمة أحد يتذكر بأنه كان بطل الملاكمة من وزن المتوسط .

إنني أحْذَر ، دوماً ، كل الأشخاص ذوي الطوية السليمة البسطاء . لاسيما حين يكون ما أُثِر عنهم من قصص قائماً ماثلاً . وقد كنت أشك ، دوماً ، في أن «روبرت كون» كان بطل ملاكمة ، من وزن المتوسط ، فلعل جواداً قد مشى فوق وجهه فأصابه ، ولعل أمه قد خافت ـ وهي حامل به ـ أو شاهدت شيئاً ما . أو لعله قد اصطدم بشيء وهو طفل صغير ، ولكنني علمت ، مؤخراً ، من شخص استجلى حقيقة الأمر من «سبيدر كيلي» ، فإذا بـ«سبيدر كيلي» لا يكتفي بتذكر «كون» وحسب ، بل جعل يستفهم عما آلت إليه حاله .

وكان «روبرت كون» ينتسب الى أسرة من أغنى الأسر اليهودية في (نيويورك) وينتمي عن طريق أمه الى أسرة من أقدم هذه الأسر .

وفي المدرسة العسكرية ، حيث أعدّ امتحانات الانتساب الى (برنستون) ، وقام خير قيام بدوره في الجناح الخلفي لفريق كرة القدم ، لم يكن هناك أحد يشير الى العرْق الذي تحدّر منه ، فلم يشعره أي إنسان بأنه يهودي ، وبأنه يختلف ، بالتالي ، عن الآخرين ، حتى أقبل اليوم الذي التحق فيه بجامعة (برنستون) . وكان فتى لطيفاً وودداً ، كثير الخجل ، وألمّ به غمٌّ كبير ، وكانت الملاكمة ردَّ الفعل لديه .

وخرج من (برنستون) بشعور مضنٍ بواقع حاله كما خرج بأنف مفلطح .

وانساق الى الزواج ، فبنى بأول فتاة كانت لطيفة معه . وظل زوجاً مدة خمس سنين ، ورزق ثلاثة أولاد . وقد خسر جزءاً كبيراً من الخمسين ألف دولار التي ورثها عن أبيه (فإن بقية الثروة آلت الى أمه) واكتسب قسوةً مقيتة ، نتيجة للآلام التي لازمت زواجه بامرأة ثرية . وفي الوقت الذي اعتزم

أن يترك هذه المرأة ، بادرت هي بالهرب مع رسام . وإذ كان يفكر ، خلال أشهر عديدة في هجر زوجته ، دون أن يعمد الى ذلك ، متصوراً أن حرمانه إياها من صحبته سيكون قاسياً عليها ، فقد كان هربها مفاجأة مريحة له .

ولما تم الطلاق بينهما ، سافر « روبرت كون » الى (كاليفورنيا) ووقع ، ثمة ، على جماعة من الأدباء . وإذ كان قد تبقى لديه شيء من الخمسين ألف دولار فإنه لم يتأخر في إمداد مجلة فنية بماله .

وقد ابتدأت المجلة ، بالظهور في (كارمل) من (كاليفورنيا) وانتهت في (بروفنستون) من ولاية (ماساشوزيتس) .

وفي هذه الفترة التي كان يعتبر فيها « كون » مالكاً ليس غير ، وكان اسمه يرد في الصفحة الأولى ، كعضو في اللجنة الاستشارية ، أضحى رئيس التحرير الأوحد ، وكأن المال يخصه وحده ، كما اكتشف أنه مشغوف بالسيطرة التي يتيحها له لقب رئيس التحرير .

وتألم « كون » حين وافى اليوم الذي أضحت فيه مجلته مكلِّفة كثيراً . واضطر الى التخلي عنها .

ومع ذلك ، ففي ذلك الوقت كانت تشغله أشياء أخرى . لقد استحوذت على لبه سيدة كانت تأمل ، بفضل المجلة ، أن تصل الى الشهرة ، وكانت ذات حيوية فياضة .

ولم يترك « كون » أي فرصة للظفر بها ، وكان يعتقد ، الى ذلك ، بأنه قد أحبها . ولما رأت السيدة أن أمر المجلة لن يطول ، اضطغنت قليلاً ، على « كون » وفكرت في أنه من الأفضل أن تنتفع بما تبقى ، مادام لديه شيء يمكن الانتفاع منه ، فألحت عليه بأن يسافر الى (أوربا) حيث قد يتاح له أن يمارس الكتابة .

وذهبا الى (أوربا) ـ حيث نشأت السيدة ـ ومكثا هناك ثلاث سنين ، وفي خلال هذه السنين الثلاث ـ مضت الأولى منها في السفر والأخريان في باريس ـ عقد « روبرت كون » أواصر الصداقة مع شخصين « برادوكس » وأنا .

وكان « برادوكس » صديقه الأدبي ، وكنت أنا صديقه في لعبة (التنس) .

واكتشفت السيدة التي كانت تستأثر به ـ وكانت تدعى « فرانسيس » ـ في نهاية السنة أن سحرها يتلاشى . فانقلب موقفها من « روبرت » ، من الاستئثار المهمل الممزوج بالاستغلال ، الى التصميم الراسخ على أن تحمله على التزوج بها . وفي غضون ذلك ، كانت أم « روبرت » قد خصصت لابنها ثلاثمئة دولار راتباً شهرياً له . وأحسب أن بصره لم يطمح ، خلال سنتين ونصف ، الى امرأة غيرها . لقد كان سعيداً ، الى حد ما ، فيما عدا أنه كان يؤثر ـ ككثير ممن يعيشون في أوربا ـ أن يقيم في أمريكا .

وقد ألفى لديه موهبة في الكتابة ، فكتب رواية ، ولم تكن هذه الرواية ، في الحق ، رديئة بالقدر الذي زعمه النقاد فيما بعد . غير أنها لم تكن ، على أي حال ، رواية جيدة .

وقد قرأ كثيراً من الكتب ، وشغف بالبريدج ولعبة التنس ولاكم في مدرسة رياضية في الحي .

ولاحظتُ ، لأول مرة ، مسلك السيدة منه ، ذات مساء تناولنا فيه نحن الثلاثة طعام العشاء ، في مطعم « لافونو » ثم ذهبنا الى مقهى (فرساي) نشرب القهوة . ولما احتسينا كؤوساً عديدة من الخمر ، بعد ارتشافنا القهوة ، أفصحتُ عن رغبتي في العودة ، وكان « كون » قد تحدث عما إذا كان في وسعنا أن نقضي كلانا نهاية الأسبوع في مكان ما . فقد كان يريد أن يترك المدينة ويقوم برحلة طويلة ، مشياً على الأقدام ، فاقترحت أن نستقل الطائرة الى (ستراسبورغ) ، ونسعى ماشين بعد ذلك ، صُعُداً الى (سانت أوديل) أو الى مكان آخر في (الألزاس) ، وقلت :

ـ أعرف فتاة في (ستراسبورغ) ، تستطيع أن تتيح لنا بصحبتها زيارة المدينة .

وأحسست بركلة قدم ، تحت الطاولة ، وحسبت أني تلقيتها مصادفة ، وأردفت قائلاً :

ـ إنها هناك ، منذ سنتين ، وإنها لتعرف كل ما ينبغي أن نراه في المدينة ، إنها فتاة مدهشة .

وتلقيت ركلة أخرى ، تحت الطاولة . ولما حدرتُ طرفي الى « فرانسيس » حظية « روبرت » رأيت حنكها بارزاً ووجهها واشياً بالقسوة ، واستدركت قائلاً :

ـ ومع هذا فعلام نذهب الى (ستراسبورغ) ؟ إن في مكنتنا أن نمضي الى (بروج) أو الى الاردين .

وبدا « كون » كأنما قد سُرّي عنه ، ولم أتلقّ ركلة أخرى . وتمنيت لهما مساءً طيباً وتهيأت للذهاب . وأعلن « كون » عن رغبته في شراء جريدة وأنه سيرافقني حتى منعطف الشارع . وقال لي :

ـ يا إلهي ، لماذا أشرت في كلامك ، الى تلك الفتاة في (ستراسبورغ) ؟ ألم ترَ الى « فرانسيس » ؟

ـ لا . كيف يخطر لي ذلك ؟ ما الذي يمكن أن يكرث « فرانسيس » في أن أعرف أمريكية في (ستراسبورغ) ؟

ـ أوه . سيان ، هذه الفتاة أو أي امرأة غيرها ، فلن أستطيع أن أذهب ، هذا كل ما في الأمر .

ـ لا تكن أحمقَ .

ـ إنك لا تعرف « فرنسيس » . إنها امرأة ، مهما تكن . ألم تلاحظ كيف قطَب وجهها .

وقلت :

ـ حسناً ، لنذهب الى (سنليس) .

ـ لا تستأ مني .

ـ لا ، لم أستأ . إن (سنليس) جيدة وفي استطاعتنا أن ننحدر الى (غران سيرف) . سوف نتنزه في الغابة ، ثم ننكفئ ، على مهل ، الى البيت .

ـ حسناً ، إن هذا لجيد .

وقلت :

ـ إذن ، الى الغد ، في ملعب التنس .

وأجاب :

ـ طاب مساؤك يا « جاك » .

واتجه نحو المقهى ، وقلت له :

ـ لقد نسيت أن تأخذ الجريدة .

ـ حقاً .

ورافقني حتى (الكشك) في منعطف الشارع .

ـ هل استأت مني يا « جاك » ؟

والتفتَ الى الخلف ، والجريدة في يده .

وأجبت :

ـ لا... ممّ أستاء ؟

وقال :

ـ إلى اللقاء ، في ملعب التنس .

ونظرت إليه وهو يقفل عائداً الى المقهى ، وفي يده الجريدة . وبدا لي . آنذاك ، أنه محبب الى نفسي ، وأن حياته معها ، على التحقيق ، ليست ، دوماً ، بهيجة .

الفَصلُ الثَاني

في ذلك الشتاء سافر «روبرت كون» الى أمريكا ، مع روايته التي قبلها ناشر جيد بعض الشيء ، وعلمت أن رحلته هذه قد أثارت شجاراً عنيفاً . وأحسب أن «فرانسيس» قد خسرته آنذاك ، فإن كثيراً من النساء كن لطيفات معه في (نيويورك)... وحين آب من هناك ، كان قد تغيّر كل التغير ، فقد أضحى أكثر حماسة لأمريكا مما سبق ، ولم يعد بسيطاً جداً ، لطيفاً جداً ، كما كان ، من قبل . فقد ذهب ناشروه في الثناء عليه أكثر مما ينبغي . فأدار رأسه هذا الإطراء . ثم ان كثيراً من النساء جهدن ، ما وسعهن ذلك ، في أن يحطنه بلطفهن ، فتبدلت آفاق حياته كلها ، فقد كان أفق حياته قد تحدد بزوجته أشد التحديد خلال أربع سنين ، وخلال ثلاث سنين أو أربع ، لم يعرف سوى «فرانسيس» . وإنني لواثق بأنه لم يعرف ، عمره كله ، ما هو الحب .

لقد تزوج ، حين تخلص من الظروف المضنية التي عاشها في الجامعة ، وقد ظفرت به «فرانسيس» في الوقت الذي تكشّف لديه أنه لم يكن كل شيء بالنسبة الى زوجته الأولى .

ولم يكن ، حينذاك ، عاشقاً ولكنه ألفى أن له بعض التأثير في النساء ، وأن تعلق امرأة به ورغبتها في العيش معه ليسا معجزة إلهية وحسب .

وكان تبدله هذا قد تم بصورة لا تجعل صحبته ممتعة جداً . أضف الى ذلك ، أنه قد اتسق له أن يلعب البريدج بأرقام عالية بالنسبة إليه ، مع رفاقه

النيويوركيين الذين كانوا يقامرون بمبالغ ضخمة ، فحالفه الحظ وربح مئات حمة من الدولارات ، مما حمله على الزهو بنفسه في ميدان لعبة البريدج ، : غالباً بأن الإنسان يستطيع ـ إن ألجأته الضرورة ـ أن يتكسب من

وكان ثمة شيء آخر ، فقد قرأ «و . هـ . هودسون» . ويمكن أن يُظن بأن هذه القراءة مشغلةٌ بريئة ، ولكن «كون» قرأ ثم قرأ (الأرض الأرجوانية) . غير أن (الأرض الأرجوانية) كتاب مفجع جداً ، حين تتم قراءته ، متأخرة في العمر ، ففيه تترادف المغامرات الغرامية الرائعة الخيالية ، يقوم بها (جنتلمان) كامل ، انكليزي ، في بلد رومانتيكي صرف ، استوفى حظه من التزويق .

إن من يتناول هذا الكتاب ، في سن الرابعة والثلاثين ، كرائد للحياة ، يعرّض نفسه تقريباً لنفس الخطر الذي يعرِض لمن يدخل في نفس السن الى (الوال ستريت) ، قادماً رأساً من دير فرنسي ومزوداً بمجموعة كاملة من مؤلفات «الجي» العملية .

وقد تناول «كون» ، كما يبدو لي ، كل كلمة من كتاب (الأرض الأرجوانية) على حرفيتها ، كما كان الأمر فيما لو عمد الى الأخذ بتقرير «ر . ج . دون» . ومع ذلك فلا يذهب الظن في شأنه بعيداً . فقد كان يُبدي بعض التحفظات . بيد أن الكتاب بمجموعه كان يتراءى له سديداً . وكان هذا كله كافياً ليحمله على الانطلاق من قيوده . ولم أدرك الى أي مدى قد انساق في انطلاقه إلا يوم قدم فيه الى مكتبي . وقلت له :

ـ هالو «روبرت» هل جئت تسلّيني ؟

وسألني :

ـ أتود أن تذهب الى أمريكا الجنوبية يا «جاك» ؟

ـ كلا .

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري ، فلم أرغب في الذهاب إليها قط ، ثم إن السفر إليها كثير التكاليف . وبعد ، فإن في وسعك أن ترى في باريس كل من تود أن تراه من الأمريكيين الجنوبيين .

ـ إنهم ليسوا بأمريكيين حقيقيين .

ـ ولكنهم يتراءون لي حقيقيين تماماً...

وكنت بسبيل إرسال بريدي الأسبوعي من الأخبار ببريد قاطرة ـ باخرة ، ولم أكن قد كتبت سوى نصف هذه الأخبار .

وسألته :

ـ هل ألممت بخبر فضيحة ما ؟

ـ كلا .

ـ ولا بأي خبر من أخبار الطلاق ، بين الطبقة الراقية من معارفك ؟

ـ كلا . اصغ إليّ يا جاك . إن تحملت عنك نفقات السفر كلها فهل تصحبني الى أمريكا الجنوبية ؟

ـ ولمَ تخصني أنا ؟

ـ لأنك تحذق اللغة الاسبانية . ثم إن رحلتنا معاً ، تضحي أكثر إمتاعاً .

قلت :

ـ لا . إنني أحب هذا البلد ، وأنوي الذهاب الى «اسبانيا» في الصيف .

وقال «كون» :

ـ لقد تشوّقت ، عمري كله ، الى القيام برحلة كهذه (وجلس) وسأضحي شيخاً قبل أن يكون في وسعي تحقيقها .

قلت :

ـ لا تكن أبله . إن في ميسورك أن تذهب الى أي مكان تشاء ، فلديك المال الوفير .

ـ أعلم ذلك . ولكن ليس في ميسوري أن أشرع في السفر .

وقلت :

ـ لا تشغل نفسك بذلك . إن البلاد كلها تتشابه ، على الجملة ، في السينما .

بيد أنني تألمت له ، فقد بدت عليه أمارات التأثر العميق . وقال :

ـ ليس في مقدوري أن أسيغ التفكير بأن حياتي تمضي مسرعة ، وبأنني ، في الواقع ، لا أعيشها أبداً .

ـ لا يعيش أي إنسان حياته كلها ، فيما عدا مصارعي الثيران .

ـ إن مصارعي الثيران ، لا يثيرون ، في شيء ، اهتمامي . إن حياتهم غير عادية ، أود أن أذهب الى الريف ، في أمريكا الجنوبية . إننا نستطيع القيام برحلة مدهشة...

ـ ألم يخطر لبالك أن تذهب الى الممتلكات الانكليزية في أفريقية ، بغية الصيد فيها ؟

ـ لا . لا أحب هذا...

ـ إنه مكان أود أن أذهب إليه معك .

ـ لا ، إنه لا يثير اهتمامي...

ـ ذلك لأنك لم تقرأ عنه أي كتاب... ويتعين عليك أن تقرأ كتاباً من تلك الكتب الحافلة بقصص الحب التي تتحدث عن أميرات قسيمات متألقات السواد .

ـ أريد أن أذهب الى أمريكا الجنوبية .

لقد كان له خلق اليهودي المطبوع على العناد .

ـ لننزل ونشرب شيئاً ما .

ـ ألا تعمل ؟

ـ لا .

ونزلنا الى مقهى في الطابق السفلي ، فقد كنت أكتشف أن ذلك أجدى وسيلة للتخلص من الأصدقاء . فبعد أن تشرب فنجانك ، ليس عليك سوى أن تقول « أوه ، والآن يتعين علي أن أصعد . فلدي برقيات يجب أن أبعث بها » .

وبذلك يتم لك ما تشاء . إنه لمن الضروري أن يتوفر لمن يزاولون مهنة الصحافة ، مخرج لبق كهذا ، اذ يتطلب مبدأ اساسى من مبادئ خلق هذه المهنة ، أن تتظاهر بأن ليس ثمة عمل يشغلك .

وصفوة القول ، إننا هبطنا الى المشرب ، وشربنا ويسكي مع الصودا . وكان« كون » يراعي الزجاجات المصفوفة على رفوفها ، وقال :

ـ إنه مكان جيد .

وقلت موافقاً :

ـ إن فيه مقادير وافية من الشراب .

ـ اصغ إلي يا « جاك » (وانحنى على خوان المشرب) . ألم يخامرك الشعور مرة ، بأن حياتك تمضي ، وأنك لا تفيد منها ؟ ألم يخطر لبالك أنك عشت من الأعوام ما يقارب نصف الزمن الذي ينبغي أن تعيشه ؟

ـ بلى . أحياناً .

ـ ألا تدري ، أننا سوف نموت بعد خمسة وثلاثين عاماً تقريباً ؟

ـ وأي بأس في ذلك يا « روبرت » ، أي بأس في ذلك ؟

ـ أتكلم جداً .

قلت :

ـ إنه شيء لا يشغلني أبداً .

ـ ولكن هذا ، لابد ، واقع .

ـ كان هذا يحرك في نفسي ، من قبل ، بعضَ القلق ، أما الآن ، فقد انتهى أمره فلا يكرثني البتة .

ـ حسناً ، إنني أريد الذهاب الى أمريكا الجنوبية .

ـ اسمع يا « روبرت » إن تنقلك بين البلاد ، غير مُجد فقد جربت ذلك ، وليس سفرك من مكان الى آخر بمتيح لك الانعتاق من ذاتك ، إنه لا يؤتي أي نتيجة .

ـ ولكنك لم تذهب الى أمريكا الجنوبية أبداً .

ـ ليأخذ الجحيم أمريكتك الجنوبية ، إنك إن ذهبت إليها ، بنفسيتك التي تحملها الآن ، فإن الأمر يظل ، كما هو عليه ، دون تغيير ، لمَ لا تعيش حياتك في (باريس) ؟

ـ لقد اجتويت (باريس) وقرفت من (الحي اللاتيني) .

ـ ابتعدْ عن (الحي) ، تجول قليلاً ، وحدك ، وانظر بعد ذلك ، الى ما سيطرأ على نفسك من جديد .

ـ لن يطرأ أي شيء . فقد تجولت ذات مرة ، وحدي ، ليلاً ، فلم يحدث لي شيء سوى أن شرطي دراجة استوقفني وطلب الاطلاع على أوراق هويتي .

ـ ألم تكن المدينة جميلة في الليل ؟

ـ لا أحب (باريس) .

وهكذا تجد نفسك معه في المكان ذاته الذي انطلقت منه . وأخذتني الشفقة عليه . ولكن لا طائل منه ، في هذا الأمر ، لأنك تصطدم لديه رأساً بفكرتين تشبث بهما : أولاهما أن أمريكا الجنوبية سوف تشفيه ، وثانيتهما أنه لا يحب (باريس) . وقد أخذ الفكرة الأولى عن كتاب وأما الفكرة الثانية فقد استمدها من كتاب أيضاً .

وقلت :

ـ حسناً ، عليّ أن أصعد ، لديّ عدة برقيات يجب إرسالها .

ـ أحقاً ينبغي أن تذهب ؟

ـ أجل ، يجب أن أرسل هذه البرقيات .

ـ هل يضايقك أن أصعد معك وأجلس في مكتبك ؟

ـ لا ، لا ، تعال .

وجلس في الغرفة المطلة على الشارع ، وشرع في القراءة ، وكنت أنا ورئيس التحرير والناشر ، نشتغل على نحو موصول خلال ساعتين . وانتقيت بعدئذ نسخاً مختلفة من الرسائل فوقعتها ووضعتها في ظرفين كبيرين من ورق (المانيلا) ، ورننت الجرس للخادم ليحملها الى محطة (سان لازار) ، ودخلت

الغرفة الأخرى فوجدت « روبرت » راقداً فوق الكرسي الكبير ، وكان مستغرقاً في النوم ، ورأسه على ساعديه . وشقّ عليّ أن أوقظه . ولكنني كنت أريد إغلاق غرفة مكتبي لأنصرف .

ووضعت يدي على كتفه وتمتمت : « روبرت » ، فحرك رأسه وغمغم وهو يضغط رأسه ، بشدة على ساعديه .

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لا شيء يحملني على أن أفعله .

وصعّد طرفه مبتسماً وطرف بعينيه ، وقال :

ـ هل كنت أتكلم بصوت عال ؟

ـ أجل كنت تتكلم عن شيء لم يكن واضحاً كل الوضوح .

ـ رباه ، أي حلم بشع!

ـ هل كانت الآلة الكاتبة هي التي أغرتك بالنوم ؟

ـ أظن ذلك ، لم أنم ليلة أمس .

ـ وماذا كنت تفعل ؟

ـ كنت أتكلم .

واستطعت أن أتمثّله ، فلدي هذه العادة البغيضة . أتصور مشاهد غرفة نوم أصدقائي .

وذهبنا لنتناول (الأبرتيف) في مقهى (النابوليتان) ونشاهد جموع الناس يغصُّ بهم الشارع في المساء .

الفَصلُ الثَالِث

كانت أمسية الربيع حارة . ومكثت ، بعد أن غادرني « روبرت » جالساً الى طاولة ، على رصيف مقهى (النابوليتان) وكنت أرافق الليل وهو يرخي سدوله ، والإعلانات الكهربائية وهي تتوامض ، وإشارات السير الحمر والخضر ، وجموع السابلة ، وجياد العربات وهي تخبّ الى جانب الصفوف المتراصة من سيارات (التاكسي) والبغايا اللاتي كن يسعين فرادى أو أزواجاً ، باحثات عن عشاء الليلة . ولاحظت فتاة وسيمة جعلت تخطر أمام طاولتي . ورأيتها تبتعد ماضية في الشارع ، ثم تختفي عن ناظري ، وأخذت أتابع بنظري فتاة أخرى ، ثم لمحت الأولى عائدة ، وخطرت مرة أخرى ، أمامي ، ولما تلاقت نظراتنا ، تقدمت فاتخذت مجلسها الى طاولتي ، وسعى النادل إلينا فقلت لها :

ـ حسناً ، وماذا تشربين ؟

ـ كأس (برنود) .

ـ ليس بجيد للفتيات الصغيرات .

ـ فتيات صغيرات ؟ إيه يا غلام ، كأس (برنود) .

ـ آتي بكأس (برنود) لي أيضاً .

وسألتني :

ـ وبعد ، أذاهب أنت الى حفلة ؟

ـ طبعاً ، وأنت ؟
ـ لا أدري ، فليس في ميسورك أن تلم بكل شيء في هذه المدينة .
ـ هل تحبين (باريس) ؟
ـ كلا .
ـ لمَ لا تغادرينها الى بلد آخر ؟
ـ ليس ثمَّ مكان آخر أذهب إليه .
ـ حسناً ، إنك لسعيدة .
ـ سعيدة ؟ الى الجحيم...

إن (البرنود) شراب ضارب للخضرة مقلد للأبسنت ، فإذا أضفت إليه الماء ، أصبح لونه لبنياً . إن له طعم عرق السوس ، وإنه ليهب لك ما تهب لذعة السوط ، بيد أن الانحطاط الذي يلي شربه هو أبعد في الأثر . وكنا نشرب جالسين وكانت الفتاة تبدو مكتئبة ، وقلت :

ـ وأخيراً ، أفلا تريدين أن تدفعي لي عشائي ؟

وأوجزت شفتاها ابتسامةً . وعرفت لم كانت تتعمد ألا تضحك ، فلما أطبقت فمها ، بدت جميلة ، بعض الشيء... ودفعت ثمن المشروب ، ثم انطلقنا الى الشارع . وناديت مركبة ، فخف حوذيها وصفّها أمام الرصيف .

وأخذت المركبة ، وهي تسعى بنا ، على مهل ، تهدهدنا بلطف ، وصعدت بنا شارع (الأوبرا) أمام أبواب المخازن الموصدة ذات الواجهات المضيئة ، وكان الشارع العريض المتألق مقفراً تقريباً ، ومرت المركبة أمام مكاتب (النيويورك هيرالد) التي امتلأت واجهاتها بالساعات الكبيرة وسألتني :

ـ لأي شيء تستعمل هذه الساعات الكبيرة ؟
ـ إنها تشير الى الوقت في مختلف أنحاء أمريكا .
ـ لا تستهزئ بي .

وتركنا الشارع العريض لنمضي في شارع (البيراميد) ودخلنا (التويلري)

من باب معتم ، بعد أن جزنا زحمة شارع (ريفولي) والتصقت بي ، فطوّقت جسمها بذراعي . وكانت تحدق إلي ، متوقعة أن أقبلها ، ومدّت يدها فلمستني فنحّيت يدها .

ـ دعي هذا .

ـ ما بك ؟ أمريض أنت ؟[1]

ـ أجل .

ـ كل الناس مرضى ، أنا مريضة أيضاً .

وخرجنا من (التويلري) في غمرة الأضواء . وعبرنا جسراً على (السين) ثم ذهبنا صُعُداً في شارع (سان بير) وقالت :

ـ كان عليك ألا تشرب (البرنود) مادمت مريضاً .

ـ وأنتِ أيضاً .

ـ أوه ، أنا ، سيان عندي ، سيان عند أي امرأة .

ـ ما اسمك ؟

ـ « جورجيت » . وأنت ؟

ـ « يعقوب » .

ـ إنه اسم فلامندي .

ـ وأمريكي أيضاً .

ـ ألست فلامندياً ؟

ـ لا أنا أمريكي .

ـ حسناً ، فأنا أكره الفلامنديين .

ووصلنا الى المطعم . وطلبت الى الحوذي أن يتوقف ، ونزلنا فلم يعجب مرأى المكان « جورجيت » .

ـ ليس هذا المطعم بمكان ذي شأن .

---

(١) تعني بالمرض ، هنا العنانة .

قلت :

ـ لا ، لعلك كنت تودين الذهاب الى مطعم (فوايو) لمَ لم نستبقِ المركبة ، تقلنا الى هناك .

لقد استصحبتها ، تغريني فكرة عاطفية مبهمة ، بأنه من الممتع أن أتناول الطعام مع إنسان ، وقد مضى زمن طويل ، لم أتناول الطعام مع بغي ، وأُنسيت كم يكون هذا مزعجاً .

ودخلنا المطعم ، ومررنا أمام السيدة « لافينيو » القائمة خلف الصندوق ، واتخذنا مجلسنا في حجرة صغيرة . وتطلقت أسارير « جورجيت » قليلاً ، وهي تأكل ، وقالت :

ـ لا بأس بهذا المطعم . إنه ليس بفخم ولكن الطعام فيه جيد .

ـ إنه أفضل من الطعام في (ليبج) .

ـ تقصد في « بروكسل » .

وشربنا زجاجة أخرى ، وروت « جورجيت » نكتة ، وابتسمت فتجلت كل أسنانها الرديئة ، وقرعنا كؤوسنا ، وقالت :

ـ لست بإنسان سيء ، ومن المؤسف أن تكون مريضاً . إننا نتفاهم جيداً ، بأي سبب مرضت ؟

ـ لقد جرحت في الحرب .

ـ آه ، يا لهذه الحرب القذرة .

ولو انفسح لنا الوقت . لكنا مضينا على الأرجح ، في الكلام . وقد تحدثنا عن الحرب ، ووافقنا على أنها بلاء منيت به الحضارة الإنسانية ، وأنه كان من الأجدى تجنبها . ولم أكن أجد في التحدث إليها متعة . ولكن ، في هذه اللحظة سمعت صوتاً يناديني من الحجرة المجاورة .

ـ « بارنس » إيه « بارنس » . « يعقوب بارنس » .

وفسرت لها :

ـ إنه أحد أصدقائي يناديني .

ـ وخرجت...

كان هناك . « برادوكس » جالساً الى مائدة كبيرة ، وحولها حلقة من : « كون » و« فرانسيس كلين » و« السيدة برادوكس » وأشخاص آخرين لا أعرفهم ، وسألني « برادوكس » :

ـ أجل... المراقص... ألا تدري أننا نحن أحييناها .

وقالت « فرنسيس » من طرف المائدة :

ـ يجب أن تأتي يا « جاك » ، سنذهب جميعاً الى المرقص .

وكانت مشيقة القوام . وجعلت تبتسم .

وقال « برادوكس » :

ـ طبعاً . سيأتي ، تعال يا « بارنس » واشرب القهوة معنا .

ـ حسناً .

وقالت السيدة « برادوكس » ضاحكة :

ـ هلا قدمت مع صديقتك :

وكانت السيدة « برادوكس » كندية . وكانت تتحلى بتلك الطلاقة الاجتماعية الساحرة التي يتّسم بها نساء بلدها .

قلت :

ـ حسناً . سنأتي .

وانقلبت عائداً الى الحجرة الصغيرة ، وسألتني « جورجيت » :

ـ من هم أصدقاؤك هؤلاء ؟

ـ إنهم كتاب وفنانون .

ـ إنهم كثيرون ، على هذا الجانب من النهر .

ـ كثيرون جداً .

ـ أجد ذلك أيضاً . ومع هذا . فإن بعضهم يربح مالاً جماً .

ـ أوه . أجل .

وانتهينا من تناول الطعام والشراب وقلت :

ـ لنذهب . لنشرب القهوة مع الآخرين .

وفتحت مثبنتها[١] ، ومسحت شفتيها بالصباغ الأحمر ، وأصلحت وضع قبعتها وقالت :

ـ حسناً .

ودخلنا الحجرة الملأى بالناس . ونهض « برادوكس » ورجال المائدة وقلت :

ـ اسمحوا لي بأن أعرفكم بخطيبتي الآنسة « جورجيت لوبلان » وافترت شفتا « جورجيت عن ابتسامتها الرائعة ، وصافحنا الجميع . وسألتها السيدة « برادوكس » :

ـ هل أنت قريبة « جورجيت لوبلان » المغنية ؟

وأجابت « جورجيت » :

ـ لا أعرفها .

وأضافت السيدة « برادوكس » بلهجة ودية :

ـ ولكنك تحملين اللقب نفسه .

وأجابت « جورجيت » :

ـ لا ، ليس بصحيح . إنني أدعى « هوبان » .

ـ ولكن السيد « بارنس » قدّمك على أنك الآنسة « لوبلان » ، إنني واثقة من ذلك .

قالتها السيدة « برادوكس » وهي تلهج بالفرنسية في تدفق ، وطلاقة ، دون أن تخامرها فكرة تعريض بشيء .

وأجابت « جورجيت » :

ـ إنه أبله .

وقالت السيدة « برادوكس » :

---

(١) المثبنة : كيس تضع فيه المرأة مرآتها وغيرها .

ـ أوه ، إنها مزحة ليس غير .
وقالت « جورجيت » :
ـ أجل ، فلنضحك لها .
وخاطبت السيدة « برادوكس » زوجها ، بصوت مرتفع النبرة ، من طرف المائدة :
ـ هنري! لقد قدّم السيد « بارنس » خطيبته باسم « جورجيت لوبلان » في حين أنها تدعى « هوبان » .
ـ بلى ، طبعاً ، يا عزيزتي ، إنها الآنسة « هوبان » إنني أعرفها منذ الأزل .
ـ وهتفت « فرنسيس كلين » التي كانت تنطق بالفرنسية ، في سرعة ، دون أن تتظاهر بمثل اعتداد وعجب « السيدة برادوكس » التي كانت تجد كلامها فرنسي اللهجة حقاً :
ـ هل تقيمين في باريس منذ زمن بعيد ؟ وهل أنت مسرورة بالإقامة فيها ؟ أنت تعبدين باريس ، أليس كذلك ؟
والتفتت « جورجيت » نحوي وقالت :
ـ من هذه ؟ هل يجب أن أكلمها ؟
ثم اتجهت نحو « فرانسيس » وكانت جالسة تبتسم ، ويداها متشابكتان ورأسها متكئ على عنقها الأغيد ، كانت تزم شفتيها ، توشك أن تستأنف الكلام .
ـ لا ، لا أحب (باريس) . إنها غالية وقذرة .
ـ حقاً ؟ . أنا أجدها نظيفة بشكل خارق . إنها من أنظف مدن أوروبا .
ـ إنني أجدها قذرة .
ـ إنه لشيء عجيب! لعله لم يمض زمن طويل على إقامتك هنا .
ـ لا . أنا هنا . منذ زمن بعيد .
ـ ومع ذلك . إننا لنجد فيها أناساً جد لطفاء . لا يمكن إنكار ذلك .

والتفتت «جورجيت» إلي وقالت :

ـ إنهم لطفاء ، أصدقاؤك .

وكانت «فرانسيس» ثملة قليلاً ، وبدت كأنها ترغب في متابعة الكلام لولا أن القهوة قدمت ، وجاء السيد «لافينيو» بكؤوس المشروبات الروحية .

وخرج الجميع ، ميممين شطر المرقص الذي عناه السيد «برادوكس» وزوجته . وكان هذا المحل مرقصاً شعبياً بشارع (مونتانيو ـ سان جنفييف) . وكانت طبقة العمال في الحي تفد إليه للرقص ، خمس ليال في الأسبوع وكان ينقلب الى ناد للرقص ليلة واحدة في الأسبوع ، ويغلق أبوابه مساء الاثنين .

ولما وصلنا إليه ، لم يكن ثمة أحد ، تقريباً ، فيما عدا الشرطي الجالس الى جانب الباب ، وزوجة صاحب المحل التي اتخذت مجلسها خلف المشرب التوتيائي ، وصاحب المحل نفسه . ووصلنا ، فيما كانت ابنة صاحب المحل تهبط من الدرج ، وكان ثمة طاولات مستطيلة وموائد ممتدة في الردهة . وفي ركن قصي كانت توجد حلبة الرقص .

وقالت السيدة «برادوكس» :

ـ تمنيت لو أن الجميع أتى مبكراً أكثر .

وأقبلت ابنة صاحب المحل ، واستوضحت عما نريد أن نشربه واعتلى صاحب المحل مقعداً كبيراً الى جانب حلبة الرقص وشرع يعزف على (الأكورديون) ، وكان يحمل سواراً من الأجراس يلتف حول كعبه ، وكان يضبط الإيقاع بقدمه ، وبدأ الجميع يرقصون . وكان الجو حاراً ، فلما انتهت الرقصة ، غرقنا في عرقنا المنتضح .

وقالت «جورجيت» :

ـ يا إلهي ، أي مرقص يعرق فيه المرء!

ـ الجو حار .

ـ حار يا إلهي .

ـ انزعي قبعتك .

ـ إنها فكرة حسنة .

ودعا أحدهم « جورجيت » الى الرقص ، وانقلبتُ الى المشرب ، وكان الجو حاراً حقاً ، وكانت موسيقى (الأكورديون) في الليل الحار عذبة . واحتسيت قدحاً من البيرة ، وأنا واقف في الوصيد ، أستقبل النسيم المنعش المهينم في الشارع ، وانحدرت سيارتا تاكسي ، في الشارع المطمئن ، وتوقفتا أمام المرقص ، واندفع منهما جماعة من الفتيان ، يرتدي بعضهم كنزات ويرتدي بعضهم الآخر قمصاناً بلا أكمام . وكان في ميسوري أن أميز ، في الضوء المنسكب من الباب ، سواعدهم وشعورهم المتموجة الندية النظيفة . وأمعن الشرطي الحارس المنتصب أمام الباب ، النظر إلي وابتسم .

ودخل الفتيان ، ولمحت ، في الضوء ، حين دخلوا ، سواعد بيضاء وشعوراً متموجة ووجوهاً بيضاء . وكانوا يتحدثون ، ويقومون بحركات مصطنعة ، متكلفة . وكانت « بريت » بينهم ، وبدت فاتنة آسرة . غير أنها تراءت منسجمة مع هذه المجموعة .

ولمح أحدهم « جورجيت » وقال :

ـ لعمري . إنها مومس حقيقية . سأرقص معها يا « ليت » سترى ذلك .

وقال الأسمر المشيق المدعو « ليت » :

ـ لا تكن مجنوناً .

وقال ذو الشعر الأشقر المتموج :

ـ لا يأخذك القلق عليّ ، يا عزيزي .

مع هذه الزمرة من الفتيان ، كانت « بريت »...

واستشطتُ غضباً . وفي الواقع ، إن الرجال من هذا النمط ، يثيرون دوماً غضبي . وأنا أعلم أن بعض الناس يعتبرهم ظرفاء . وأن عليك أن تكون معهم متسامحاً ، ومع ذلك ، وددت لو أهجم على واحد منهم ، أي واحد ، لا لشيء ، سوى أن أطأ من ذلك الزهو المتعالي والتكلف الظاهر . غير أنني آثرت الخروج الى الشارع . وشربت قدح بيرة من مشرب الرقص المجاور . ولم تكن البيرة

جيدة . وشربت قدح كونياك أردأ منها ، لأزيل طعمها من فمي .

ولما عدت الى المرقص ألفيته مزدحماً ، وأخذ بصري « جورجيت » وهي ترقص مع الفتى الأشقر المشيق ، وكانت عيناه مصوبتين الى السماء وكان رأسه مائلاً الى جانب ، وكان يرقص وهو يهز وركيه الثقيلين . وإما توقفت الموسيقى ، تقدم واحد من الزمرة نفسها ، ودعا « جورجيت » الى الرقص . وقد تداولوا الرقص معها ، وكنت أتوقع أنهم سيرقصون جميعاً ، معها ، كانوا كلهم على هذه الشاكلة .

وجلست الى طاولتي وكان « كون » موجوداً ، ثمة ، وكانت « فرانسيس » ترقص . وقدمت السيدة « برادوكس » شخصاً وعرفته باسم « روبرت برنتسيس » وكان من (نيويورك) وأقام في (واشنطن) . وكان مايزال في بدايته كروائي وكان يرتضخ لهجة قريبة من اللهجة الانكليزية ، وعرضت عليه أن نتناول معاً مشروباً ما ، فقال :

ـ شكراً جزيلاً . أنهيت ، الآن ، كأسي .

ـ يسرني ذلك . شكراً .

وناديناً بنت صاحب المحل ، وتناول كلانا شراباً ملطفاً بالماء وقال لي :

ـ قيل لي إنك من (كنساس) أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ هل تجد (باريس) مسلية ؟

ـ أجل .

ـ حقاً ؟

وكنت ثملاً بعض الشيء ، دون أن يستبد بي السكر . غير أني كنت ثملاً الى حد لا أستطيع أن أهيمن فيه على تصرفاتي وقلت :

ـ أف . أجل . يا إلهي . وأنت ؟

فأجاب :

ـ أوه ، يا لها من وسيلة ساحرة لاستثارة الغضب . كم أود لو أملك

هذه الموهبة .

ونهضت ، واتجهت نحو الراقصين ، ولحقت بي السيدة « برادوكس » وقالت لي :

ـ ينبغي ألا تستاء من « روبرت » إنه طفل ليس غير ، كما تعلم...

وقلت :

ـ لا لم أستأ ، بيد أنه يخيل إليّ ، لحظة ، أنني أوشك أن أقيء .

ـ لقد ظفرت خطيبتك بنجاح كبير .

وأخذت السيدة « برادوكس » تجيل نظرها في الراقصين ، وكانت « جورجيت » ترقص بين ذراعي الفتى الأسمر المدعو « ليت » .

وقلت :

ـ أهي نفسها ؟

ـ على الأرجح .

وتقدم « كون » وقال لي :

ـ هلم نشرب شيئاً يا « جاك » .

وسعينا الى المشرب .

ـ ما الأمر ؟ إنك تبدو مشغول البال بشيء .

ـ لا شيء . إن كل هذا يثير الضيق في نفسي .

واقتربت « بريت » من المشرب .

ـ هالو! أيها الرفاق .

قلت :

ـ هالو « بريت »! لمَ لم تسكري بعد ؟

ـ لا شيء يحملني على السكر . وبعد ، أفلا تقدم كأس براندي مع الصودا ؟

وظلت واقفة ، وفي يدها الكأس ، وأخذ بصري « روبرت كون » ينظر إليها ، كان ينظر إليها مثلما ينظر رجل من نِحلته الى الأرض الموعودة .

كان « كون » أصغر منها بكثير . ولكن نظرته كانت متلهفة تستحق أن ترتقب وتنتظر .

وكانت « بريت » رفّافة الحسن ، رائعة ، وكانت ترتدي كنزة من التريكو ، وتنورة مخططة ، وكان شعرها مرتداً الى الخلف ، وفي تسريحة غلامية[1] ، فقد كانت تروّج هذه (الموضة) ، وكان إهابها قد سوّي من منحنيات كأنه هيكل زورق سباق ، ولم يكن ثوبها الصوفي يدع أي منحنى منه خبيئاً عن عينيك .

قلت :

- أنت في صحبة رائعة يا « بريت » .

- ألا تجدهم لطفاء جداً ؟ وأنت يا عزيزي أين عثرت عليها ؟

- في (النابوليتان) .

- وكانت أمسية ماتعة ، أليس كذلك ؟

قلت :

- لا تقدّر بأي ثمن .

وأغرقت « بريت » في الضحك .

- إنها لزلة منك ، إنها لإهانة لنا كلنا ، انظر الى « فرانسيس » هناك ، وإلى « جو » .

قالت ذلك ، موجهة نظر « كون » .

- إن هذا ليفسد الحرفة .

وتهانفتْ ضاحكة وقلت :

- أنت زاهدة في الشرب بشكل رائع .

- أجل ، أليس كذلك ؟ لاحظ أنه حين يكون المرء في صحبة أمثال هؤلاء فإنه يسيغ الشرب في طمأنينة .

---

(١) ألا غارسون .

واستأنفت الموسيقى عزفها ، وقال « روبرت كون » :

- هلا رغبت في أن أراقصك هذه الرقصة يا لادي « بريت » ؟

وابتسمت « بريت » :

- لقد وعدت « يعقوب » بها (وضحكت) . إن لك اسماً مقدساً صرفاً من التوراة يا « جاك » .

وسأل « كون » :

- ما رأيك في الرقصة المقبلة ؟

وقالت « بريت » :

- نحن بسبيل الانصراف ، لدينا موعد في (مونمارتر) .

وبينا نحن نرقص ، كنت أنظر من فوق كتف « بريت » .

ورأيت إلى « كون » واقفاً أمام المشرب ، وعيناه معلقتان بها ، وقلت لها :

- لقد ظفرت بمغرم جديد .

- لا تحدثني عنه ، يا له من إنسان مسكين! لم ألحظ ذلك ، قبل الآن .

وقلت :

- إيه ، يخيل إلي أنك تحبين أن تجمعي هذه النماذج .

- لا تفه بهذا الهراء .

- بلى ، إنك لتحبين ذلك .

- حسناً ، وماذا بعد ؟

- لا شيء .

وكنا نرقص على نغم (الأكورديون) . وكان أحدهم يعزف على (البانجو) . وكان الجو حاراً ، وشعرت بأنني سعيد ، واقتربنا من « جورجيت » وكانت ترقص مع أحدهم .

- ما الذي دهاك ، لتأتي بها الى هنا ؟

- لا أدري ، لقد أتيت بها بكل بساطة .

ـ لقد أضحيت رومانتيكياً صرفاً .
ـ لا ، ولكنني برمٌ ضجرٌ .
ـ والآن أيضاً ؟
ـ لا ، ليس الآن .
ـ لنذهب ، إنها لن تعدم أشخاصاً يهتمون بها .
ـ هل تريدين ؟ حقاً ؟
ـ أكنت أطلب إليك ذلك لو لم أرده!

وانتهينا من الرقص ، وتناولت معطفي المعلق بمشجب في الحائط وارتديته ، وكانت « بريت » واقفة أمام المشرب و« كون » يتحدث إليها . ووقفت أمام المشرب ، وطلبت ظرفاً ، فأسعفتني صاحبة المحل بظرف ، وسحبت من جيبي ورقة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً ودسستها في الظرف ، وأغلقته ثم سلمته لصاحبة المحل وقلت لها :

ـ إن سألت عني الفتاة التي جئت بها المرقص ، فأرجو أن تعطيها هذا الظرف ، وإن ذهبت مع أحد هؤلاء ، فاحتفظي لي به لديك .

فقالت :

ـ كما ترغب يا سيدي ، هل تذهب الآن مبكراً ؟

قلت :

ـ أجل .

واتجهنا الى الباب ، وكان « كون » لا يني يتحدث الى « بريت » ، وتمنت له مساءً طيباً ، وأمسكت بذراعي ، وقلت :

ـ طاب مساؤك يا « كون » .

وبحثنا ، في الشارع ، عن سيارة تاكسي ، وقالت « بريت » :

ـ سوف تخسر الخمسين فرنكاً .
ـ أوه ، أجل .
ـ لا توجد سيارة تاكسي .

ـ نستطيع أن نمضي ، مشياً ، حتى (البانتيون) ، حيث نجد سيارة .

ـ تعال نشرب شيئاً ما ، من الحانة المجاورة ، ثم نرسل من هناك شخصاً يبحث لنا عن سيارة .

ـ ألا تعبرين الشارع ؟

ـ لا ، إذا كان في وسعي تجنبه .

ودخلنا الحانة المجاورة ، وأرسلت غلاماً يبحث عن سيارة وقلت :

ـ وأخيراً ، ها نحن بعيدان عنهم .

ومكثنا ، ثمة ، واقفين ، أمام الخوان التواتيائي الكبير ، لا نتبادل الكلام ولا نتخالس النظر ، وآب الغلام وقال لنا إن السيارة واقفة أمام الباب ، وشدت «بريت» يدي في عنف ، ونقدت الغلام فرنكاً وخرجنا ، وسألتها :

ـ إلى أين تريدين أن أطلب إليه السعي بنا ؟

ـ أوه ، قل له أن يدور بنا .

وطلبت الى السائق أن يذهب بنا الى حديقة (مونتسوري) ، وصعدت في السيارة ، وصفقتُ الباب ، وكانت «بريت» قد انزوت في الركن ، مغمضة العينين ، وجلست الى جوارها ، وانطلقت السيارة ، مرتجةً ، وقالت «بريت» :

ـ آه يا عزيزي ، لقد كنت جد يائسة .

الفَصلُ الرَّابع

وصعدت السيارة في الشارع ، واجتازت الساحة المضيئة . وغابت في حلكة الليل ، وطفقت تصعد ، ثم انسابت في شارع معتم خلف (سَانت ايتين دومون) ، وانحدرت ، في تؤدة ، على الأسفلت ، ومرت أمام الأشجار وموقف الأوتوبوس في ساحة (كونتر سكارب) ثم انعطفت فوق حصباء شارع (موفتارد) .

وكان قد توزع على ناحيتي الشارع ، حانات مضيئة ومخازن ظلت مفتوحة ، الى وقت متأخر ، وكنا جالسين متنائيين ، بيد أن رجّات السيارة كانت تداني ما بيننا ، فيما كنا نهبط الشارع القديم .

وكانت «بريت» قد نزعت قبعتها ، وألقت برأسها الى خلف ، ولمحت وجهها في الأضواء المنسكبة من المخازن المفتوحة ، وعادت الظلمة ، ولكن... حين خلصنا الى شارع (غوبولان) رأيت وجهها ، في وضوح ، وكان الشارع مطروقاً ، وكان ثمة رجال يعملون على خطوط الحافلة ، مستضيئين بنور مصابيح (الاستيلين) . وتجلى وجه «بريت» أبيض ناصعاً ، وتألق طرف عنقها الأغيد في نور (الاستيلين) الفياض ، وعادت الظلمة فغمرت الشارع . وقبّلتُها ، وتلاقت شفاهنا ، في عنف ، ثم ابتعدت وانزوت ، مبتعدة عني ، ما أمكنها ذلك ، على المقعد ، وحنت رأسها ، وقالت :

ـ لا تلمسني ، أرجوك ، لا تلمسني .

ـ ماذا دهاك ؟

ـ لا قِبلَ لي بتحمل ذلك .

ـ أوه « بريت » .

ـ لا ينبغي ذلك ، يجب أن تعلم . لا أستطيع أن أتحمل ذلك ، هذا كل شيء . أوه . يا عزيزي ، حاول أن تفهم .

ـ إذن أنت لا تضمرين لي الحب .

ـ لا أضمر لك الحب ؟! إنني أحور الى هلام ، ليس غير ، حين تلمسني .

ـ أليس ثمة وسيلة نقدر أن نقوم بها ؟

واستقامت ، جالسةً ، ومددت ساعدي خلف رأسها ، وكانت متكئة عليّ ، ولبثنا هادئين ، وحدجتني في عيني ، بطريقتها المألوفة في النظر ، بطريقتها التي تحملك على التساؤل عما إذا كانت تنظر حقاً بعينيها نفسيهما ، بعينيها اللتين تظلان تديمان النظر ، حتى لا تبقى عيون الكون كلها تستمر في النظر . كانت تنظر كما لو لم يكن ثمة شيء في الدنيا لا تجرؤ أن تنظر إليه هذه النظرة ، بينا هي في الواقع تخاف من أشياء جمة .

وقلت :

ـ أحقاً ، إننا لا نستطيع عمل أي شيء ؟

فقالت :

ـ لا أدري ، أنا لا أريد أن أجلو هذا الجحيم مرة أخرى .

ـ من الأفضل ، إذن ، ألا نلتقي بعد الآن .

ـ ولكن يا عزيزي أنا بحاجة الى رؤيتك ، ليس لدي سوى ذلك ، إنك تعرفه جيداً .

ـ حقاً... ولكن ذلك ينتهي دوماً الى الوضع الذي صرنا إليه .

ـ إنها غلطتي ، أفلا يتعين على المرء أن يؤدي ثمن كل ما يقوم به ؟

وظلت ترامقني في عيني طوال الوقت ، وكان لعينيها أعماق شتى ، كانتا

تبدوان أحياناً مسطحتين تماماً ، أما الآن ، فإن في ميسورك أن تغوص فيهما الى الأعماق .

ـ حين أفكر في الجحيم الذي دفعت فيه أشخاصاً فإنني أجدني الآن أؤدي ثمن ذلك كله...

وقلت :

ـ دعي هذا الهراء . وبعد ، فإن كل ما حدث لي مفترض بأنه مضحك ، أنا لا أفكر فيه البتة .

ـ أوه ، لا . إنني أتصوره .

ـ حسناً . لندع التحدث به .

ـ أنا أيضاً قد ضحكت من هذا الأمر ، ذات يوم (ولم تكن تنظر إليّ) فإن رفيقاً لأخي عاد من (مونس) بنفس الحالة ، وبدا ذلك الأمر كما لو كان مزاحاً ، لا يعرف الناس كل شيء ، أليس كذلك ؟

وقلت :

ـ ليس ثمة أحد يعرف كل شيء .

لقد استنفدت على الجماعة هذا الموضوع ، بحثاً . وفي وقت ما ، نظرت إليه ـ على الأرجح ـ من أشد زواياه اختلافاً ، ومن ضمن ذلك ، أن بعض الأذى والنقص هو موضوع دعابة وهزل ، في حين أنه يظل أقرب الى الجد بالنسبة لمن ابتلي به .

ـ إنه لمضحك ، إنه لمضحك جداً أن يصبح المرء عاشقاً!

ـ أتعتقد بذلك حقاً ؟

وتراءت عيناها ، من جديد ، مسطحتين .

ـ لا أقول إنه مضحك ، بهذا المعنى . إنه شعور ممتع ، على نحو ما .

وقالت :

ـ لا . لا أرى أنه الجحيم في الأرض .

ـ إنه لمن المستحب أن نتلاقى .

ـ لا ، لا ، لا أجد ذلك مستحباً .

ـ ألا ترغبين في ذلك ؟

ـ أنا مضطرة إليه .

وجلسنا ، حينئذ ، كغريبين . وكانت حديقة (مونتسوري) الى يميننا ، وكان المطعم ـ حين يوجد حوض أسماك حية وحيث يكون في ميسورك الجلوس والنظر الى الحديقة ـ كان مغلقاً معتماً .

وانحنى السائق ، وقد استدار رأسه نحونا . وسألتها :

ـ إلى أين تريدين أن نذهب ؟

ونحت « بريت » رأسها :

ـ أوه . لنذهب الى (السيليكت) .

وقلت للسائق :

ـ الى مقهى (السيليكت) ، في شارع (مونبارناس) .

وعاودنا الهبوط ، في اتجاه مستقيم ، ودرنا حول تمثال (أسد بيلفور) الذي كان يرقب مرور الحافلات من (مونتروج) .

وكانت « بريت » تحدّق الى أمام . ولما شارفنا شارع (راسباي) على مرمى النظر من أضواء (مونبارناس) قالت « بريت » :

ـ ألديك مانع إن طلبت إليك القيام بشيء ما ، من أجلي ؟

ـ لا تكوني حمقاء .

ـ إذن ، قبلني ، قبلة أخرى ، قبل أن نصل الى هناك .

وحين توقفت السيارة ، نزلت ونقدت السائق أجرته ، وخرجت « بريت » من السيارة ، وهي تسوّي قبعتها ، ومدت يدها إليّ لأساعدها على النزول ، كانت يدها ترتجف .

ـ قل لي ، ألا أبدو مخيفة ؟

وشدت قبعتها اللبادية الفلاحية ، واتخذت سمتها الى الحافة ، وكان قد توزّع ، حول المشرب والطاولات ، أكثر الذين تركناهم في المرقص ،

وقالت «بريت» :

ـ هالو ، أيها الرفاق ، أنا قادمة لأتناول بعض الشراب .

ـ أوه! «بريت» ، «بريت» .

وخفّ إليها الرسام القصير اليوناني الذي كان يلقّب نفسه بالدوق ، وكان الجميع يدعونه : «زيزي» .

ـ لدي شيء جميل ، سأفضي به إليك .

وقالت «بريت» :

ـ هالو «زيزي» .

وقال «زيزي» :

ـ أود أن أقدم لك صديقاً (واقترب رجل سمين) الكونت «ميبيوبولوس» . أقدم لك صديقتي اللادي «أشلي» .

وقالت «بريت» :

ـ كيف حالك ؟

وسألها الكونت «ميبيوبولوس» الذي كان يحمل سنّ وعلٍ منوطةً بسلسلة ساعته :

ـ حسناً ، أتتمتع سيدتي اللادي بوقت هنيء في (باريس) ؟

وأجابت «بريت» :

ـ أجل ، بقدر كاف .

وقال الكونت :

ـ إن (باريس) ، ولا ريب مدينة رائعة ، ولكن ، أحسب أنه تباح لك أن تقومي بأشياء جمة لطيفة في (لندن) .

ـ وأجابت «بريت» :

ـ أوه ، أجل ، بقدر كبير .

وناداني «برادوكس» من طاولته التي كان يجلس إليها وقال :

ـ «بارنس» ، تعال . اشرب معي ، إن الفتاة التي جئت بها قد

ارتكبت فضيحة رهيبة .

ـ بأي سبب ؟

ـ بسبب تعريض ابنة صاحب المرقص بها . كان ذلك مؤسفاً للغاية ، لقد كانت مدهشة ، كما تعلم . فقد أبرزت بطاقتها الصفراء وطلبت الى ابنة صاحب المرقص ابراز بطاقتها ، أقول لك ، كانت فضيحة ، حقاً .

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ أوه ، لقد عاد بها أحدهم الى بيتها ، لم تكن فتاة قبيحة الوجه ، ولكنها متمكنة من بعض العبارات ، بشكل رائع... ابقَ واشرب شيئاً ما .

وقلت :

ـ لا . يتعين عليّ أن أعود مسرعاً ، هل رأيت « كون » ؟

وقالت السيدة « برادوكس » معترضة :

ـ لقد رجع مع « فرانسيس » .

وقال السيد « برادوكس » :

ـ يا للمسكين! كان يبدو في حالة وضيعة من الكآبة .

وقالت السيدة « برادوكس » :

ـ بلى ، أجرؤ على القول إنه كان كذلك .

وقلت :

ـ طاب مساؤكم ، ينبغي أن أعود سريعاً .

وتمنيت لـ« بريت » مساءً طيباً ، في المشرب ، وكان الكونت يدفع ثمن زجاجة الشمبانيا ، وسألني :

ـ هل لك أن تشرب كأساً معنا . يا سيدي ؟

ـ لا ، شكراً جزيلاً . لقد أزف وقت عودتي .

وسألت « بريت » :

ـ أذاهب حقاً ؟

فقلت :

ـ أجل أشعر بصداع شديد .

ـ هل أراك غداً ؟

ـ تعالي الى المكتب .

ـ صعب . هناك .

ـ حسناً ، أين سأراك ؟

ـ في أي مكان ، حوالي الساعة الخامسة .

ـ إذن فليكن في الطرف الآخر من المدينة .

ـ حسناً ، سأكون في (الكريون) في الساعة الخامسة .

قلت :

ـ حاولي أن تأتي الى هناك .

وقالت «بريت» :

ـ لا يأخذك القلق ، فلم أدعك وأتخل عنك ، من قبل ، أليس كذلك ؟

ـ ما أخبار «مايك» ؟

ـ تلقيت منه رسالة ، اليوم .

وقال الكونت :

ـ طابت ليلتك يا سيدي .

وخرجت ، وتمشيت على الرصيف ، ثم هبطت شارع (سان ميشيل) ومررت بجوار طاولات مقهى (الروتوند) وكانت لاتزال غاصة بالجالسين . وانسرح بصري عبر الشارع ، فرأيت مقهى (الدوم) وقد صفّت طاولاته حتى حاذت حيد الرصيف ، ولوّح لي شخص ، من إحدى الطاولات . فلم أتمكن من استجلائه ، وتابعت سيري ، فقد كنت أتعجل الوصول الى بيتي ، وكان شارع (مونبارناس) مقفراً ، وبدا مطعم (الأفينو) محكم الإغلاق . وكانت الطاولات تصف خارج (الكلوزوري دولبلاس) . ومررت أمام تمثال (ني) المنتصب ، تحت أشعة المصابيع المقوسة بين أشجار الكستنا ذات الأوراق الغضة ، وكان ثمة إكليل بنفسجي ذاوٍ ، متكئ على قاعدة التمثال . وتوقفت لأقرأ هذه

الكلمات المسطورة عليه : (جماعة البونبارتيين) يليها تاريخ أُنسيته .

وكان تمثال المارشال (نيل) يبدو بحذائيه الأسوقين[1] وبسيفه المشهر الممتد بين خضرة أشجار الكستنا الممرعة اليانعة ـ كان يبدو ذا هيئة رائعة ، وكان قائماً قبالته تماماً ، وفي طريق منخفضة من شارع (سان ميشيل) .

وكان النور يشع في غرفة البوابة ، ونقرت على بابها ، وأعطتني الرسائل البريدية الموجهة إلي ، وتمنيت لها مساءً طيباً ، وصعدت .

وكان بريدي هذا يتألف من رسالتين وبعض الصحف . تبينت ذلك في ضوء المصباح الغازي في حجرة الطعام .

كانت الرسالتان من الولايات المتحدة ، تتضمن إحداهما بيان حسابي الجاري في البنك وكان يشير الى رصيد يبلغ ٢٤٣٢,٦٠ دولاراً وتناولت دفتر الشيكات وبعد أن طرحت منه مبالغ أربعة شيكات سحبتها ، منذ أول الشهر ، ألفيت رصيدي لا يتجاوز ١٨٣٢,٦٠ دولاراً . وسجلت ذلك ، خلف بيان الحساب ، وكانت الرسالة الثانية إعلاماً بعقد قران : (السيد والسيدة « الويزيوس كيربي » يتشرفان بإعلامك عقد قران ابنتهما « كاترين ») .

وكنت لا أعرف الفتاة ولا زوجها الذي بنى بها ، لا شك في أنهما قد وزعا نسخاً من هذا الإعلام ، كنماذج ، في جميع أنحاء المدينة . كان اسماً طريفاً ، وكنت متأكداً بأنني لن أنسى إنساناً يحمل هذا الاسم « الويزيوس » . كان اسماً كاثوليكياً صرفاً . وكان الإعلام مزيناً بشعار العائلة ، مثل « زيزي » الدوق اليوناني ومثل ذاك الكونت... مضحكاً ، إن « بريت » تحمل لقباً : لادي ، لادي « اشلي » . لتذهب « بريت » الى الجحيم! ليأخذك الجحيم يا لادي « اشلي »!

وأنرت المصباح المجاور للسرير ، وأطفأت الغاز ، وفتحت النوافذ العريضة ، وكان السرير بعيداً عنها ، وجلست « والنوافذ مفتوحة ، وأخذت

---

(١) الأسوق : الطويل الساق .

أنضو ثيابي بجوار السرير ، ومرّ ، في الخارج ، قطار ليلي كان يستعمل خطي الحافلة ، حاملاً الخضر الى الأسواق . كانت هذه القطر صاخبة في ليالي الأرق ، وجعلت أنظر فيما كنت أنضو ثيابي ، الى نفسي في صقال مرآة الخزانة الكبيرة القائمة قرب السرير . كان أثاث هذه الغرفة ذا طراز فرنسي ، وكان الى هذا ، عملياً ، فيما أظن...» .

من بين كل الجراحات المحتملة... أحسب أن ذلك كان مضحكاً... ولبست منامتي واضطجعت على السرير . وكانت الى جانبي صحيفتان خاصتان بمصارعة الثيران ، ومزقت لفافتيهما ، كانت أولاهما برتقالية ، والثانية صفراء لابد أن كلتيهما تتضمنان الأخبار نفسها ، أضف الى ذلك أن قراءتي لمحتوى الأولى تحرم الثانية من كل رغبة في الاطلاع عليها ، وكانت صحيفة (التوريل) هي الأفضل ، وأخذت أقرأ فيها . وقرأتها من أولها الى نهايتها ، حتى المراسلات الصغيرة ، والأخبار الوجيزة . وأطفأت مصباحي لعلي أستطيع أن أغفو .

وبدأ رأسي يعمل : إنها القصة القديمة نفسها دوماً ، بلى . إنه لقدر قذر أن أقع جريحاً وأن أتابع الطيران ، في جبهة هازلة كالجبهة الإيطالية .

لقد خطر لنا ، في المستشفى الايطالي ، أن نؤسس جمعية ، وكانت تحمل اسماً طريفاً في الايطالية . إنني أتساءل عما آل إليه مصير الآخرين ، الايطاليين . كان ذلك في مستشفى (ماغيوري) في (ميلانو) ـ (باديغليوني بونتي) . كان البناء المجاور هو (باديغليوني زوندا) . كان هناك تمثال (بونتي) ، لعله تمثال (زوندا) . هناك جاءني الكولونيل ، ضابط الارتباط ، زائراً . كان ذلك مضحكاً وأحسب أن هذا كان أول حادث طريف ، يقع لي . كنت ملفّعاً بالضمادات ، بيد أنه اطّلع على ما حدث لي ، وألقى علي آنئذ ، خطاباً رائعاً :

ـ أنت أيها الأجنبي ، أيها البريطاني (كل الأجانب كانوا بنظرهم بريطانيين) لقد وهبت أكثر من حياتك .

يا له من خطاب! لكم وددت أن أظفر به مخطوطاً مزوقاً ، لأعلقه في مكتبي .

ولم يضحك البتة ، أحسب أنه كان يضع نفسه في مكاني Che mala fortuna, Che mala fortuna[١] ، وأحسب أنه لم يشأ أن أستجلي حقيقة الأمر . وقد حاولت ما وسعني ذلك أن أتظاهر به دون أن أسبب إزعاجاً لأحد ، وعلى الدرج أنني لم أكن لأبلو ضيقاً وألماً لو لم ألتق بـ« بريت » حين رُحِّلتُ الى انكلترا ، وأظن أنها كانت ترغب في شيء لم يكن في استطاعتها أن تظفر به ، بلى . بعض الناس على هذه الشاكلة . ليذهب الناس الى الجحيم! إن للكنيسة الكاثوليكية سبيلاً جيداً لحل ذلك كله . أوه إنها نصيحة حسنة ، على أي حال . دون أن تفكر فيها ، أوه إنها نصيحة عذبة ، حاول أن تتبعها بين وقت وآخر . حاول بعض الشيء .

وجعلت أفكر ، وأنا مستلق ، لا يواتيني النوم وفكري لا يني يقفز دائراً ثم أنتهي الى ما لم أستطع أن أنزعه ، فقد أخذت أفكر في « بريت » وأتنسخ كل شيء سواها ، وفيما كنت أفكر فيها جعل فكري يشتغل بعد أن كف عن القفز ، ثم تسلسل في ما يماثل موجات لينة . وعلى حين غرة أنشأت أبكي ، وشعرت إثر ذلك بأنه قد سُرّي عني واضجعت وسمعت هدير الحافلات الثقيلة ، ذاهبة وغادية في الشارع ، واستغرقت ، بعد ذلك ، في النوم .

ولما استيقظت تناهى الى سمعي أصوات شجار في الشارع ، وأصغيت . فتبينت صوتاً مألوفاً لدي . وارتديت مبذلي ومضيت الى الباب . كانت البوابة تتكلم في الدور الأرضي ، وقد بدت جد غاضبة ، وسمعت اسمي يتردد ، وناديت من علٍ ، فصرخت البوّابة :

ـ هل السيد (بارنس) هو الذي ينادي ؟

ـ أجل ، أنا .

---

(١) يا للحظ العاثر . يا للحظ العاثر ، وردت بالإيطالية في النص . (المعرب)

ـ ههنا امرأة ، أيقظت ساكني الشارع كلهم . أي نمط من الأعمال القذرة في هذا الوقت من الليل! تقول إنه يجب أن تراك ، فقلت لها إنه نائم .

وسمعت حينئذ صوت « بريت » ومَثُل في وهمي ، وأنا شبه نائم ، أنها « جورجيت » ، لا أدري لماذا ، فلم يكن في ميسور هذه الأخيرة أن تعرف عنواني .

ـ دعيها تصعد ، أرجوك .

وصعدت « بريت » الدرج ، وألفيتها جدّ سكرى ، وقالت :

ـ إنه لعمل أحمق أن تعمد الى ذلك وتثير هذا الصخب المخيف ، قل لي ، لقد كنت نائماً ، أليس كذلك ؟

ـ ماذا تظنين أنني كنت أفعل ؟

ـ لا أدري ، ما هو الوقت الآن ؟

ونظرت الى ساعة الحائط ، كانت تشير الى الرابعة والنصف .

وقالت « بريت » :

ـ ليس لدي أي فكرة عن هذا الوقت ، هل يسمح لأحد بالجلوس ؟ لا تستأ يا عزيزي ، لقد تركت الكونت ، اللحظة ، فقد جاء بي الى هنا .

ـ أي نوع من الرجال ، هذا الشخص ؟

وأخرجت البراندي والصودا ، وكأسين ، وقالت « بريت » :

ـ قليلاً فحسب ، لا تحاول أن تسكرني . الكونت ؟ لا بأس به . إنه ليماثلنا .

ـ هل هو كونت حقاً ؟

ـ على نخب صحتك . أظن ذلك . على أي حال ، يستحق أن يكونه . إنه يعرف أشياء جمة عن الناس . لا أدري كيف يلم بذلك كله . إن له سلسلة معامل حلوى كثيرة في الولايات المتحدة .

ـ أظن أنه يدعوها سلسلة ، أو شيئاً من هذا القبيل . إنها موصولة الحلقات . لقد ذكر لي عنها شيئاً يسيراً . في الحق إنه شخص يثير الاهتمام .

وإنه ـ الى ذلك ـ لنموذج صادق من وسطنا . أوه ، نموذج حقيقي ، لا شك في ذلك ، في وسع أي شخص أن يقول ذلك .

وشربت جرعة أخرى .

ـ ولكن ما الذي حملني على إيراد هذا كله ؟ ألديك مانع ؟ أتدري أنه ينفق على « زيزي » .

ـ وهل « زيزي » دوق حقيقي ؟

ـ ليس في ذلك ما يدعو الى عجبي . إنه يوناني ، كما تعلم ، ثم إنه رسام فاسد . أما الكونت فإنه يروقني كثيراً .

ـ أين اجتمعت معه ؟

ـ أوه في كل مكان . لقد أتى بي ، اللحظة ، الى هنا ، وعرض علي عشرة آلاف دولار لأذهب معه الى (بياريتز) . كم يعادل هذا المبلغ من الجنيهات ؟

ـ ألفين تقريباً .

ـ لعمري . إنك بطيء في الشرب .

وكنت قد اجتزأت برشفة صغيرة من كأس البراندي ـ الصودا فتناولتها وشربت منها نهلة كبيرة . وقالت « بريت » :

ـ مرحى . إنه مضحك ، لقد أراد بعد ذلك ، أن أستصحبه الى (كان) فقلت له : إنني أعرف كثيراً من الناس في (كان) . (مونت كارلو) ثم قلت له إني أعرف كثيراً من الناس في كل مكان ، وهذا في الواقع ، صحيح ، وأخيراً سألته أن يأتي بي الى هنا .

ورنت إلي ، ويدها مراحة على الطاولة ، وكأسها مرفوعة ، وقالت :

ـ لا تبصر بي هكذا ، قلت له . إنني أحبك يا « جاك » وهذا صحيح في الواقع ، لا تمتعض هكذا ، لقد تلقى ذلك على محمل حسن ، إنه يريد أن يدعونا ، وتقلنا بسيارته ، لنتعشى سوية مساء غد ، هل يروق لك ذلك ؟

ـ ولمَ لا ؟

ـ يجدر بي أن أذهب .

ـ لماذا ؟

ـ كنت أريد أن أراك وكفى . إنها فكرة بلهاء لعينة . هلا ارتديت ثيابك ونزلت ؟ إن سيارته في أعلى الشارع تماماً .

ـ الكونت ؟

ـ بنفسه مع سائق سيارة يرتدي ثيابه الخاصة به ، سنذهب لنتناول الفطور في الغابة ، لدينا السلال ، أُخذت كلها من محل (زبلي) ولدينا الى ذلك اثنتا عشرة زجاجة من (المامس) ، ألا يغريك هذا ؟

وقلت :

ـ لدي عمل في هذا الصباح ، ثم إنك تسبقينني الآن بمدى بعيد لا يتيح لي أن أدركك لأكون مسلياً .

ـ لا تكن حماراً .

ـ لا أستطيع .

ـ حسناً ، هل ترغب في أن أبلغه كلمات لطيفة منك ؟

ـ كما تشائين ، وبصورة مطلقة .

ـ ليلة سعيدة يا عزيزي .

ـ لا تصطنعي العاطفة .

ـ أوه . إنك تضنيني .

وقبّلتها ، وارتعشت « بريت » وقالت :

ـ ينبغي أن أذهب ، ليلة سعيدة يا عزيزي .

ـ لست مجبرة على الذهاب .

ـ بلى .

وتبادلنا القبلات من جديد ، على الدرج ، ولما ناديت البوابة بشد الجرس ، سمعت زمجرتها خلف الباب ، وصعدتُ ، ورأيت من النافذة المفتوحة « بريت » تتجه نحو سيارة فارهة كبيرة ، واقفة على حيد الطريق ، تحت المصباح المقوس ثم دخلت فيها ، وانطلقت بها .

وقفلت عائداً ، وكان على الطاولة كأس فارغة ، وكأس مليء نصفها بالبراندي ـ صودا ، فحملت كلتيهما الى المطبخ ، وأفرغت الكأس الممتلئة الى نصفها في البلوعة ، وأطفأت الغاز في حجرة الطعام ، ونزع بابوجيّ ، وجلست في فراشي . بلى ، من أجل «بريت» هذه بكيت ، وتمثلتها وهي تسعى في الشارع وتستقل السيارة ، كما رأيتها منذ لحظات ، ولم ألبث أن شعرت ، طبعاً ، بصداع رفدتني به جهنم . إنه لمن السهل أن يكون المرء ، في النهار ، على مرجل يغلي ، بسبب أي شيء ، أما في الليل فذاك شيء آخر .

الفَصلُ الخَامِس

وهبطت ، ماشياً ، هذا الصباح ، في الشارع حتى شارفت جادة (سلوفلو) ، لأتناول القهوة مع الكعك ، وكان الصباح ماتعاً . وكانت أشجار الكستنا في (اللوكسمبورغ) مبرعمة ، وكان يخامر المرء ذلك الشعور العذب الذي يبعثه في نفسه ، في الصباح الباكر ، بدء يوم حار ، وقرأت الصحف فيما كنت أرتشف قهوتي ، ودخنت سيكارة ، وكانت بائعات الزهور يقبلن من السوق ، وجعلن يضعن رفوف الزهر ، وكان ثمة طلاب يتخذون سمتهم نحو معهد الحقوق أو ينحدرون الى (السوربون) ، وكان الشارع يعج بالحافلات وبالسابلة الساعين الى أعمالهم ، وركبت الأوتوبوس ذا الحرف (S) ، فانحدر مطوّفاً بـ(المادلين) القائمة على نشز من الأرض ، ومن (المادلين) مشيت في شارع (الكابوسين) فالأوبرا ومنها اتجهت الى مكتبي . ومررت ببائع دمى الضفادع القافزة ، وببائع دمى الملاكمين الصغار ، وابتعدت متجنباً أن أدوس على الخيط الذي تحرك به مساعدته الصبية لعبة الملاكمين ، وكانت واقفة وعيناها شاخصتان والخيط بين يديها المتصالبتين وكان البائع يلحّ على سائحين مغرياً إياهما بالشراء ، وتوقف ثلاثة سياح آخرين ليتأملوا . ومشيتُ خلف رجل يدفع أمامه اسطوانة تسطر ، وهي تدرج على الرصيف ، بأحرف ندية ، كلمة (سنزانو) . وكان الناس يسعون ، في كل اتجاه ، الى أعمالهم . إنه لمن الممتع أن يسعى الإنسان الى عمله . واجتزت الشارع وملت منه الى مكتبي .

وفي مكتبي ، قرأت الصحف الفرنسية الصباحية ودخنت . وجلست أمام الآلة الكاتبة وأمضيت صبيحة مثقلة بالعمل ، وفي الساعة الحادية عشرة ، ذهبت الى (الكي دورسيه) بسيارة تاكسي ، ودخلت ، واتخذت مجلسي بين دزينة من المراسلين ، وتكلم ، خلال نصف ساعة ، متحدث رسمي عن وزارة الخارجية ، وهو شاب سياسي من زمرة محرري (المجلة الحديثة الفرنسية) يضع نظارة ذات إطار من الصدف ، وأخذ يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه ، وكان رئيس الوزراء في (ليون) لإلقاء خطاب هناك . وعلى الأصح ، كان في طريق العودة . وأخذ نفر من الحاضرين يلقون أسئلة لسماع أصواتهم وهم يتحدثون ليس غير . وكان ثمة سؤالان قد وجههما مراسلون يرغبون في معرفة أجوبتهما حقاً ، ولم يكن هناك أخبار . ولما خرجت من (الكي دورسيه) ، اقتسمت ركوب سيارة تاكسي مع «ولسي» و«كروم» ، وسألني «كروم» :

ـ كيف تقضي أمسياتك يا «جاك» ؟ إنني لا أراك البتة .

ـ أوه ، إنني في (الحي اللاتيني) .

ـ سأقصده في إحدى الأمسيات ، وملهى (الدينكو) ؟ إنه لرائع ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، إنه كذلك ، وثمة المرقص الجديد (السيليكت) .

وقال «كروم» :

ـ لقد كنت أفكر ، غالباً ، في الذهاب الى (الحي اللاتيني) ولكنك تعلم ما تكون عليه الحال مع زوجة وأطفال .

وسأله «ولسي» :

ـ هل تلعب التنس ؟

وقال «كروم» :

ـ كلا ، ليس في مقدوري أن أقول إنني لعبت مرة واحدة ، هذا العام ، فإن المطر لا يكاد ينقطع أيام الأحد ، ثم إن الملاعب كلها أصبحت مكتظة بالناس .

ـ إن الانكليز يجدون دوماً منفسحاً من الوقت أيام السبت .

وقال « كروم » :

ـ يا للشحاذين المجدودين ، وبعد ، فاسمع ما أقول : سأنتهي ذات يوم من العمل لأيما وكالة ، وعندئذ ، سيتسق لي الوقت الذي أفزع فيه الى ضاحية خارج المدينة .

ـ ليس ثمة شيء أمتع من أن يقيم الإنسان في الضاحية ، وأن تكون في حوزته سيارة صغيرة .

ـ تراودني رغبة في شراء سيارة ، في العام القادم .

ونقرت على الزجاج الحاجز ، فتوقف السائق ، وقلت :

ـ هذا هو شارعي ، تعالا معي نشرب شيئاً ما .

وقال « كروم » :

ـ شكراً يا عزيزي (وهز « ولسي » رأسه) . يتعين عليّ أن أضع في خزانة (الأرشيف) ملخص ما تناهى إلينا هذا الصباح .

ودسست قطعة من فئة الفرنكين في يد « كروم » فقال :

ـ أنت مجنون يا « جاك » ، عليّ أنا أن أدفع .

ـ على أي حال ، سيدخل هذا المبلغ ضمن نفقات المكتب .

ـ كلا ، أصر على أن أدفع أنا .

واستودعتهما ، ملوّحاً لهما بيدي ، ومدّ « كروم » رأسه من باب السيارة :

ـ الى يوم الأربعاء ، على الغداء .

ـ حسناً .

ورقيت بالمصعد الى مكتبي ، فإذا بـ« روبرت كون » ينتظرني ثمة ، وقال :

ـ هالو (جاك) هل سنخرج لنتناول طعام الغداء ؟

ـ أجل ، دعني أنظر ما إذا كان قد جدّ شيء .

ـ أين ستتناول طعام الغداء ؟
ـ أنى تشاء .
وأجلت طرفي في منضدة مكتبي .
ـ أين تريد أن نطعم ؟
ـ ما رأيك في مطعم (الويتزل) فإن لُمجته[1] جد لذيذة .
وفي المطعم طلبنا لمجة وبيرة . وجلب النادل البيرة الباردة في قدحين كبيرين مزبدين . وكان هناك اثنا عشر صنفاً من مشهيات اللمج المختلفة ، وقلت :
ـ هل أصبت حظك من التسلية ، ليلة أمس ؟
ـ لا ، لا أظن ذلك .
ـ كيف تمضي في تأليف كتابك ؟
ـ بشيء سيئ ، إنني لا أقدر على المضي في تأليف هذا الكتاب الثاني .
ـ قد يحصل هذا لجميع الناس .
ـ أوه ، هذا ، إنني متأكد من ذلك ، ولكنه مع ذلك يسخطني .
ـ أفما زلت تفكر في مشروع السفر الى أمريكا ؟
ـ لا أزال أفكر فيه .
ـ لمَ لا تسافر إذن .
ـ بسبب «فرانسيس» .
وقلت :
ـ حسناً ، خذها معك .
ـ قد لا يروقها ذلك . فلا يستهويها هذا النمط من الأشياء . إنها تحب أن يتحلقها عدد كبير من الناس .
ـ قل لها أن تذهب الى جهنم .

---

(١) اللمجة : ما يتعلل به قبل الغداء ولعلها أن تقابل معنى Hors d'oeuvres .

ـ لا أستطيع ، فعلي واجبات تجاهها .

ودفع سلطة الخيار من أمامه ، وتناول من سمك (الرَّنكة) المنقوع بالخل .

ـ ماذا تعلم عن اللادي « بريت اشلي » يا « جاك » ؟

ـ إنها تدعى اللادي « أشلي » و« بريت » هو اسمها ، وهي امرأة لطيفة ، إنها بسبيل الطلاق . ولسوف تتزوج بـ« مايك كاميبل » وهو الآن في (ايقوسيا) . فيم سؤالك عنها ؟

ـ انها امرأة فاتنة نادرة المثال .

ـ أهي كذلك ؟

ـ إن لديها شيئاً ما ، شيئاً قريباً من الرقة . وإنها لتبدو في الحق ، لطيفة مخلصة .

ـ إنها فاتنة جداً .

ـ لا أدري كيف أجلو هذه السجية الكريمة ، أعتقد بأنها موروثة .

ـ قل لي . يظهر أنها تروق لك ؟

ـ صحيح ، ولعلي لا أعجب إن شُغفت بها .

وقلت :

ـ إنها تسكر وهي تحب « مايكل كاميبل » ، وسوف تتزوجه ، ولسوف يصبح غنياً بصورة لعينة ، في يوم قريب .

ـ لا أعتقد بأنها ستتزوجه .

ـ ولم لا ؟

ـ لا أدري ، لا أعتقد بذلك وكفى ، هل تعرفها منذ زمن بعيد ؟

وقلت :

ـ أجل ، كانت ممرضة متطوعة في مستشفى ، حيث كنت أعالج أثناء الحرب .

ـ لابد أنها كانت فتاة صغيرة في ذلك الوقت .

ـ إن عمرها ، الآن ، أربعة وثلاثون عاماً .

ـ متى تزوجت « اشلي » ؟

ـ أثناء الحرب ، فإن الشخص الذي تعلقت به حقاً ، كان قد قضى آنذاك من مرض الزحار .

ـ إنك تتكلم بلهجة مريرة .

ـ عفواً ، لم أكن أقصد ذلك ، كنت أحاول أن أطلعك على الوقائع ليس غير .

ـ لا أعتقد بأنها ستتزوج شخصاً لا تحبه .

وقلت :

ـ حسناً ، لقد فعلت ذلك ، مرتين ، من قبل .

ـ لا أعتقد بذلك .

وقلت :

ـ إذن لا تلقِ إليّ بأسئلة بلهاء عقيمة ، إن كنت لا تحب أجوبتها .

ـ لم أطلب إليك ذلك .

ـ لقد طلبت إليّ ما أعرف من معلومات عن « بريت أشلي » .

ـ لم أطلب إليك إهانتها .

ـ أوه على رسلك ، الى جهنم .

وترك الطاولة ، ونهض ، شاحباً ، وظل قائماً ، مصفرّ الوجه ، مغضباً ، خلف صحون اللُمج ، وقلت :

ـ اجلس ولا تكن أبله .

ـ أريد أن تتراجع عما فهت به الآن .

ـ أوه أرجوك . دعني من هذه الطلبة .

ـ اسحب ما قلته الآن .

ـ حسناً ، لك ما تريد ، إنني لم أسمع بشيء يتعلق بـ« بريت اشلي » هل يرضيك هذا ؟

ـ لا ، ليس هذا ، وإنما ما قلت لي بأن أذهب الى جهنم .

ـ أوه ، حسناً ، لا تذهب الى جهنم ، ابق هنا ، لقد شرعنا في الطعام الآن .

وابتسم « كون » وسري عنه ، وبدا سعيداً في الجلوس . ترى ماذا يمكن أن يفعل لو لم يجلس ؟

ـ إنك تتفوه بأشياء جد لعينة مهينة يا « جاك » .

ـ عفواً ، إن لي لساناً بذيئاً ، ولا أقصد أبداً مضمون الكلمات المنافية البذيئة التي أقولها .

وقال « كون » :

ـ أعرف ذلك ، في الواقع ، أنت خير صديق عرفت يا « جاك » .

وفكرت في أن أقول : ليحفظك الله .

بيد أنني قلت بصوت مرتفع النبرة :

ـ انسَ ما قلت لك ، وعفواً إليك .

ـ حسناً ، كل شيء على ما يرام ، لقد استأت دقيقة واحدة فحسب .

ـ حسناً ، دعنا نطلب شيئاً آخر نطعمه .

ولما انتهينا من الطعام ، صعدنا الى مقهى (دولابه) وشربنا القهوة ، وشعرت بأن « كون » يريد أن ينساق الحديث الى «بريت» من جديد ، ولكنني تجنبت ذلك ، وتحدثنا عن أشياء شتى ، ثم تركته لأعود الى مكتبي .

الفَصلُ السَادس

في الساعة الخامسة ، كنت أنتظر «بريت» في فندق (كريون) . وتأخرت عن المجيء ، فجلست لأكتب رسائل عديدة ، ولم تكن رسائل جميلة ، ولكنني أعتمد على أناقة ورق فندق (كريون) لأوازن بها هزال مضمون هذه الرسائل . ولما ألفيت أن بريت لم تأت ، نزلت الى المشرب في الساعة السادسة إلا ربعاً ، واحتسيت كأساً من خمر (جاك روز) مع جورج ساقي المشرب ، ولم تقدم «بريت» الى المشرب . وقبل أن أغادر الفندق ، صعدت الى عل ، فلعلها تكون ثمة . وأخيراً ركبت سيارة تاكسي قادتني الى (السيليكت) . وفيما كانت السيارة تجوز بي الجسر ، على نهر السين ، رأيت عدداً من الزوارق الفارغة تهبط في اتجاه مجرى الماء ، وأمسك كل ربان ، بالدفة حين اقتربت الزوارق من الجسر . وكان النهر جميلاً . إنها لمتعة حلوة للمرء حين يعبر جسور (باريس) .

ودارت السيارة حول تمثال مخترع (السيمافور)[1] وهو منكب على اختراعه ، ثم عرجت على شارع (راسباي) .

وارتددت إلى داخل السيارة ، متمدداً ، فيما كانت تجوز هذه المسافة من سيرها . إن مرأى شارع راسباي من السيارة هو باعث دوماً على السأم ،

---

(١) السيمافور : الملوّح بالاشارات للسفن والقاطرات .

إنها كذلك الجزء المنبسط بين (فونتنبلو) و(مونتيرو) ، الذي يثير في نفسي ، دائماً ، الشعور بالملل والموت والسويداء حتى أجوزه . يخيل إلي أنه بعض أجزاء رحلة ما ، يبدو ، بسبب تداعي بعض الأفكار ، موحياً بفكرة الموت . إن في (باريس) شوارع تماثل في قبحها شارع (راسباي) ولا أشعر بالضيق إن سعيت فيها على قدمي ، بيد أنني لا أطيق أن أجوزها وأنا راكب في سيارة ، ولعل مرد ذلك أنني قرأت شيئاً ما حول ذلك . إنه كذلك الأثر الذى تتركه (باريس) كلها في نفس « روبرت كون » ، وإنني لأتساءل : ترى أين اتسق لـ« كون » ذلك العجز عن استطابة العيش في باريس . لعل ذلك ناجم من « مينكين » . أعتقد بأن « مينكين » يكره باريس . لهذا فإن كثيراً من الشباب أخذوا عن « مينكين » المحبة أو البغض .

وتوقفت السيارة ، قبالة (الروتوند) . إنك إن طلبت في أي مقهى من مقاهي (مونبارناس) الى سائق سيارة ما ، أن يمضي بك من الضفة الغربية الى مكان ما ، فإنه يأخذك دوماً الى (الروتوند) . وفي الأرجح ، إنه سيتجه بك ، بعد عشر سنوات الى (الدوم) .

على أي حال ، كان (الروتوند) قريباً ، بعض الشيء من (السيليكت) ، ومررت بالطاولات الحزينة في (الروتوند) لأصل الى (السيليكت) . وكان في المشرب بضعة أشخاص ، ورأيت ، في الخارج ، « هارفي ستون » وحده ، وبدا وجهه غير حليق . وكان أمامه ركام من الصحون الصغيرة وقال لي « هارفي » :

ـ اجلس ، كنت أبحث عنك .

ـ ما الأمر ؟

ـ لا شيء ، كنت أبحث عنك وحسب .

ـ هل كنت في ميدان السباق ؟

ـ لا ، لم أذهب منذ يوم الأحد .

ـ ما أخبار الولايات المتحدة ؟

ـ لا شيء . لا شيء ، مطلقاً .

ـ ما بك ؟

ـ لا أدري ، لقد انقطعت كل علاقة لي بهم ، انقطعت تماماً .

وانحنى ثم حدّق الى بياض عيني .

ـ هل تريد أن أفضي إليك بشيء يا « جاك » ؟

ـ أجل .

ـ لقد مضت خمسة أيام لم أطعم فيها شيئاً .

وحسبت ، في فكري ، بسرعة : منذ ثلاثة أيام قمرني « هارفي » بالبوكر وكسب مني مئتي فرنك ، في حانة « نيويورك »

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ صفرٌ من المال ، لما تصل النقود بعدُ (وتوقف) أقولها لك يا « جاك » : إنه لشيء غريب أنني لا أملك ، حين أكون في حال كهذه ، سوى رغبة واحدة هي أن أكون وحيداً ، أن أصبح حِلسَ بيتي . قابعاً في غرفتي ، انني كهر .

وجسست جيبي .

ـ « هارفي » ، هل تفي مئة فرنك بما ترغب ؟

ـ أجل .

ـ هلم ، نأكل سوية .

ـ لا شيء يدعو الى العجلة . اشرب شيئاً ما .

ـ من الأفضل أن نأكل .

ـ لا ، حين أكون في مثل هذه الحال ، سيان عندي أن آكل أو لا آكل

وشربنا ، وأضاف « هارفي » صحني الى ركام صحونه .

ـ هل تعرف « مينكين » يا « هارفي » ؟

ـ أجل ، لماذا ؟

ـ أي نمط من الرجال هذا الشخص ؟

ـ إنه جيد ، وإنه ليتحدث عن بعض الأشياء الطريفة . في المرة الأخيرة التي تناولت فيها طعام العشاء معه تحدثنا عن « هو فنهايمر » فقال لي : « من

المؤسف حقاً أن لا يحذق هذا الرجل سوى فك أربطة الساق ، لا بأس بهذا الرأي أليس كذلك ؟

ـ لا بأس .

ـ لقد انتهى أمره ، حالياً ، فقد كتب عن كل شيء يعرفه ، أما الآن فإنه يكتب عن كل ما لا يعرف .

وقلت :

ـ أحسب أن ما يكتبه جيد ، بيد أنني لا أستطيع أن أقرأه .

وقال « هارفي » :

ـ أوه . ليس ثم إنسان يقرأه ، في هذا الوقت ، فيما عدا الأشخاص الذين ألفوا أن يقرأوا كتاب (معهد ألكسندر هاميلتون) .

وقلت :

ـ إيه ، إنه كتاب جيد أيضاً .

وقال « هارفي » :

ـ طبعاً .

وأنشأنا نفكر ، ملياً ، أمداً غير قصير .

ـ هل لك في قدح بورتو آخر ؟

وقال « هارفي » :

ـ بكل سرور .

وقلت :

ـ ها هو ذا « كون » .

وكان « كون » يجتاز الشارع .

وقال « هارفي » :

ـ يا لهذا المخبول!

وتقدم « كون » من طاولتنا وقال :

ـ هالو . أيها العربيدان .

وقال « هارفي » :

ـ هالو ، « روبرت » . كنت أقول لـ« جاك » ، اللحظة ، إنك مخبول .

ـ وماذا تعني بذلك ؟

ـ أجبنا حالاً ، دون تفكير ، ماذا كنت تفعل ، إذا كان في ميسورك أن تفعل ما تفكر فيه ؟

وطفق « كون » يفكر .

ـ لا تفكر ، أجب ، حالاً .

وقال « كون » :

ـ لا أدري . وماذا يعني على أي حال ، كل هذا ؟

ـ أعني : ماذا كنت تفعل ؟ ماذا يخطر على بالك ، لأول وهلة ؟ ولا ضير إن يكن ، ما تقول ، حماقة .

وقال « كون » :

ـ لا أدري ، أعتقد بأنني أود معاودة لعب كرة القدم ، مع كل ما أعرف الآن من وسائل حسن التخلص .

وقال « هارفي » :

ـ لقد أسأت تقديرك ، فلست بمخبول . إنك لا تمثل سوى حالة توقف النمو .

وقال « كون » :

ـ إنك لمضحك يا « هارفي » . ذات يوم سوف يسدد أحدهم لكمة الى وجهك .

وأغرق « هارفي ستون » في الضحك .

ـ هل تظن ذلك ، ومع هذا ، لن يقوم أحد بذلك البتة ، لأن الأمر عندي سواء . فلست مغرماً بالعراك .

ـ لن يكون الأمر لديك سواء تماماً ، إن قام أحدهم بذلك .

ـ لا . لن يحدث ذلك معي . بل يحدث معك حين ترتكب خطأ جسيما ،

لأنك لست بذكي .

ـ لا تهتم كثيراً بشأني .

وقال « هارفي » :

ـ طبعاً ، الأمر عندي سواء ، فإنك لا تثير اهتمامي في شيء .

وقلت :

ـ هل لك أن تشرب يا « هارفي » قدحاً آخر من البورتو ؟

وقال « هارفي » :

ـ لا ، سأذهب صعداً في الشارع ، لأتناول الطعام . الى اللقاء يا « جاك » .

ومشى وخرج ومضى صاعداً في الشارع ، وجعلت أنظر إليه وهو يعبر الشارع في تؤدة ، بين سيارات التاكسي . وتراءى لي ربعةٌ أقرب الى القصر ، واثقاً من نفسه ، وسط الزحام .

وقال « كون » :

ـ إنه يهيج غضبي دوماً ، ليس في مكنتي تحمله البتة .

وقلت :

ـ أما أنا فأحبه ، إنني أضمر له المحبة والود ، لا ينبغي أن تجد عليه .

وقال « كون » :

ـ أعلم ذلك جيداً ، ولكنه يثير أعصابي .

ـ هل كتبت بعد ظهر اليوم ؟

ـ لا ، لم يواتني ذلك ، كتابي هذا أصعب من الكتاب الأول ، وأجد مشقة في إنهائه .

إن ذلك الغرور القوي الذي كان يتسم به ، إثر عودته من أمريكا في مطلع الربيع ، قد امّحى الآن . كان يبدو ، آنذاك ، واثقاً من عمله ، ولم يكن لديه سوى رغباته الخاصة في الانطلاق بمغامرة . أما الآن فإن ثقته بنفسه قد تبددت . ويخالجني شعور مبهم ، بأنني لم أجلُ « كون » بصورة واضحة ، وقد

نجم ذلك من أنني لم أسمع منه ـ حتى اليوم الذي أضحى فيه عاشقاً لـ« بريت » ـ أية ملاحظة قد تميزه عن الآخرين . كان من الممتع أن ينظر إليه المرء في ملعب التنس . كان يبدو متين البنيان ، محتفظاً بكمال هيئته ، وكان يجيد الإمساك بورقه في لعبة البريدج ، وكان يترقرق في طبعه شيء طريف من طبع الطالب ، وحين يكون بين جماعة فإنه لم يكن ليلاحَظ شيء مما يقول . وكان يرتدي ما كنا ألفنا أن نسميه في المدرسة ، وما يمكن أن يسمى حتى الآن : قمصان (البولو) . ولكنه لم يكن يتراءى بمظهر الفتى ، في تكلف ، ولا أظن أنه كان يولي ثيابه اهتماماً كبيراً ، لقد تكيّف ، في مظهره الخارجي ، بقالب خريجي (برنستون) ، أما في داخله فإنه قد تكيف بتأثير المرأتين اللتين تعهدتاه . وكان في خلقه لون من البشاشة الحلوة الساذجة التي لم يتأتَ له أن يفقدها أبداً ، وأخشى ألا أكون قد وفيت هذه البشاشة حقها من البيان . وكان مشغوفاً بالغلاب في لعبة التنس ، كان يحب ، مثلاً ، أن يغلب مثل « لينغلين » وبالمقابل فإنه لم يكن يستاء إذا هزم . وحين أضحى متيماً بـ« بريت » أفل نجمه في لعبة التنس ، وغلبه أشخاص لم يكن لديهم ، من قبل ، أي حظ في الغلاب وكان يتلقى ذلك تلقياً لطيفاً .

الخلاصة : كنا جالسين على سطحية مقهى (السيليكت) ، بينا كان « هارفي ستون » يعبر الشارع وقلت :

ـ تعال الى (الليلاس) .

ـ لدي موعد .

ـ في أي وقت ؟

ـ إن « فرانسيس » قادمة في الساعة السابعة والربع .

ـ ها هي ذي .

وكانت « فرانسيس كلين » قادمة إلينا ، عبر الشارع ، وكانت امرأة فارعة الطول ، ذات مشية متخلعة ، ولوحت بيدها وابتسمت . ولحظناها وهي تعبر الشارع ، وقالت :

ـ هالو ، كم أنا مسرورة ، أن تكون هنا يا « جاك » . كنت أريد أن أتحدث إليك .

وقال « كون » :

ـ هالو « فرانسيس » .

وابتسم .

ـ أوه ، هالو ، « روبرت » أأنت هنا ؟

واستطردت تقول بسرعة :

ـ لقد أمضيت صبيحة ، وأي صبيحة! إن هذا الشخص (ودلت على « كون » برأسها) لم يعد الى البيت لتناول طعام الغداء .

ـ لم تكن عودتي متوقعة .

ـ أوه ، أدري ذلك ، ولكنك لم تنبئ الطباخة بذلك ، أضف الى هذا أنه كان لدي موعد . ولم تكن « باولا » في المكتب ، وغدوت الى (الريتز) لأنتظرها ثمة ، فلم تأت ، ولم يكن لدي ، طبعاً ، من النقود ما يكفي لأتناول الطعام في (الريتز) .

ـ وما فعلت ؟

ـ إيه لقد ذهبت ، طبعاً (كانت تتكلم في مرح متكلف) . إنني أذهب الى مواعيدي دوماً ، وإن لم يكن أحد يحرص على ذلك ، في هذه الأيام ، لعل في ذلك درساً ينفعني . وبعدُ فكيف حالك يا « جاك » ؟

ـ حسنة .

ـ لقد كانت لطيفة تلك الفتاة التي قدمت بها الى المرقص ، وبعد ذلك كله تذهب مع تلك التي تدعى « بريت » .

وسأل « كون » :

ـ أفلا تروق لك ؟

ـ إنني أجدها ذات لطف آسر . أفلا تجدها كذلك ؟

ولم ينبس « كون » بكلمة .

اصغ إلي يا «جاك» . أود أن أتحدث إليك بشيء . هل لك أن ترافقني الى (الدّوم) وأنت ؟ ستبقى هنا ، أليس كذلك يا «روبرت» ؟ تعال ، يا «جاك» .

وجزنا شارع (مونبارناس) وجلسنا الى طاولة ، واقترب منا غلام يحمل صحف (باريس ـ تايمس) ، واشتريت نسخة وفتحتها .

وقالت :

ـ أوه ، لا شيء سوى أن يريد أن يتخلى عني .

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ لقد أعلن للناس كافة أننا سنتزوج . وأخبرت أمي والجميع بذلك . وها هو ذا يرغب الآن عن ذلك .

ـ لماذا ؟

ـ لقد ارتأى بأنه لم يعش كفاية ، كنت أعلم أن ذلك سيقع له حين سافر الى (نيويورك) .

ورمقتني بعينين براقتين ، متكلفة لهجة عدم الاكترات .

ـ لن أتزوجه إذا لم يكن يرغب في ذلك ، إن هذا لمؤكد . ولن أتزوجه ، الآن ، مهما يكن من أمر . ولكن... يبدو لي أن هذا الزواج متأخر ، بعض الشيء وذلك بعد أن انتظرت ثلاث سنوات ، وفي الوقت الذي سأحصل فيه على طلاقي قريباً .

ولم أقل شيئاً ، وتابعت :

ـ كان علينا أن نحتفل بذلك ، مبتهجين ، ولكننا عمدنا ، بدلاً من ذلك ، الى الشجار ، إن هذا شيء صبياني ، إن مظاهر الاختلاف المقيت تغلب علينا ، وإنه ليبكي راجياً بأن أكون عاقلة ، ثم يقول ، إثر ذلك ، إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك .

ـ يا له من حظ عاثر!

ـ بلى إنه لحظ عاثر . ينبغي أن أقول ذلك ، ها قد مرت علي معه سنتان

ونصف السنة ، ولا أدري ، حالياً ، إذا كان ثمة إنسان يرغب في أن يتزوجني ، كان في مكنتي أن أتزوج منذ سنتين : أي رجل أردت ، هناك في (كان) . كل الكهول الذين يتشوقون الى الزواج بامرأة مرموقة كانوا مدلهين بي . أما الآن ، فلا آمل أن أعثر على أي رجل .

ـ من المؤكد أن في ميسورك الزواج بمن تريدين .

ـ لا ، لا أعتقد بذلك ، أضف الى هذا كله ، إنني أحبه ، وأريد أن يكون لي أطفال . كنت أفكر ، دائماً ، في أننا سنرزق أطفالاً .

وحدجتني بنظرة براقة .

ـ إنني لم أحب الأطفال مطلقاً ، ولكنني لم أشأ أن أفكر في أنني لن أنجب أطفالاً قط . كنت أفكر دوماً في أنني سوف أرزق أطفالاً ثم أحبهم .

ـ أما هو فلديه أطفال .

ـ أجل ، لديه أطفال ، ولديه مال ، ولديه أم ثرية ، ولديه كتاب ألفه ، أما أنا فليس ثمة شخص ، أي شخص ، يرغب في نشر ما أكتب ، ومع ذلك ، فإن ما أكتبه ليس برديء ، وليس لدي ، إلى ذلك ، مالٌ ، كان في استطاعتي الحصول على نفقة ولكنني جهدت في أن أحصل على الطلاق ، بأقصى سرعة ممكنة .

وصوّبت إلي ، كرة أخرى ، نظرة متقدة .

ـ ليس في ذلك عدل ولا نصفة ، ولكنه خطأي ، وهو مع ذلك ، ليس بخطأي . كان علي أن أعرف ذلك على نحو أفضل . وعندما أحدثه بهذا الأمر فإنه يلتمس البكاء ، ويردد أنه لا يستطيع الزواج ، لم لا يستطيع الزواج ؟ سوف أكون له زوجة مثلى . فليس العيش معي صعباً ، سوف أدعه وشأنه ، هادئاً ، بيد أن ذلك لن يجدي أي شيء .

ـ إن هذا لمعيب .

ـ أجل إنه لمعيب ، ولكن لا طائل في الكلام معه ، أليس كذلك ؟ هلا عدنا الى المقهى ؟

ـ ليس في مكنتي طبعاً أن أفعل شيئاً .

ـ لا ، ولكن لا تدعه يعرف أنني أفضيت إليك بشيء ، أنا أعلم ماذا يريد (وتخلت ، لأول مرة ، عن لهجتها المنطلقة المتسمة ببشاشة متكلفة مضنية) إنه يريد أن يعود الى (نيويورك) وحده ، ليكون ثمة حين يصدر كتابه ويرى الى بضع بغايا صغيرات يتحلّقنه معجبات به ، بلى هذا ما يريد .

ـ قد لا ينظرن إليه بإعجاب ، لا أعتقد بأنه كذلك ، حقاً .

ـ إنك لا تعرفه جيداً كما أعرفه يا « جاك » ، هذا كل ما يريد ، أنا أعلم . ولهذا فإنه لا يرغب في الزواج ، إنه يتشوق الى انتصار كبير يظفر به وحده ، هذا الخريف .

ـ هل تودين أن نعود الى المقهى ؟

ـ أجل ، هيا بنا .

وتركنا الطاولة (ولم يكن قد أحضر لنا شيء ما ، نشربه) وعبرنا الشارع متخذين سمتنا نحو (السيليكت) ، حيث كان « كون » جالساً الى طاولة مرمرية ، وابتسم لنا . وسألته « فرانسيس » :

ـ وبعدُ ، فما الذي يحملك على الابتسام ، هل تشعر بأنك سعيد ؟

ـ إنني أبتسم لكليكما ، مع أسراركما .

ـ أوه ، إن ما ذكرت لـ« جاك » ليس سراً ، ولسوف يعرفه الجميع قريباً ، كنت أريد أن أنفض لـ« جاك » حقيقة الأمر .

ـ وما هو ؟ هل يتعلق بموضوع سفرك الى (انكلترا) ؟

ـ أجل ، بموضوع سفري الى (انكلترا) .

ـ إنه لحسن جداً .

ـ أجل ، هذا ما يجري لدى أرقى الأسر ، إن « روبرت » هو الذي يحملني على السفر ، سوف ينقدني مئتي جنيه ، سوف أذهب لأزور بعض الأصدقاء ، أليس هذا رائعاً ؟ إن الأصدقاء لم يعرفوا بعد ذلك .

والتفتت نحو « كون » وابتسمت له ولكنه لم يكن يبتسم آنذاك .

ـ لم تكن تريد أن تعطيني سوى مئة جنيه ، أليس كذلك يا « روبرت » ؟ ولكنني ألجأته الى أن يعطيني مئتي جنيه ، إنه في الحق كريم جداً ، ألست كذلك يا « روبرت » ؟

لا أدري كيف يمكن أن نوجه مثل هذه الكلمات البغيضة الى « روبرت كون » . ثمة أشخاص ليس في ميسورك أن توجه إليهم شيئاً مهيناً . إنهم يدعونك تشعر بأن العالم سيتقوض ، سيتقوض في الحال ، أمام بصرك ، إن نالت منهم كلماتك ، غير أن « كون » تحمل كل هذا . ولقد جرى ذلك أمامي ، ولم أجد في نفسي أي رغبة في وضع حد لها ، بيد أن ما حدث لم يكن سوى شيء أقرب الى المزاح إن قيس بما جرى بعد ذلك .

وقال « كون » معترضاً :

ـ وكيف يمكن أن تفوهي بمثل هذه الأشياء يا « فرانسيس »!!

ـ اصغ إليه ، إنني مسافرة الى انكلترا لأزور بعض الأصدقاء ، هل سبق لك أن ذهبت لتزور بعض أصدقاء لا يريدونك ؟ أوه ، إن عليهم أن يستقبلوني : « كيف حالك يا عزيزتي ؟ منذ زمن طويل ، لم نرك ، كيف حال أمك العزيزة ؟ » . بلى كيف حال أمي العزيزة! لقد وضعت مالها ، لاستثماره ، في أسهم الدفاع الوطني ، لقد فعلت ذلك ، إنها الشخص الوحيد ـ على الأرجح ـ الذي فعل ذلك في العالم كله . ثم : كيف حال « روبرت » ؟ أو أن يسأل عن شخص آخر حريص على أن يجري الحديث حول « روبرت » . أو تفضي واحدة لأخرى : « ينبغي أن تلتزمي مزيداً من الحذر في التحدث عنه ، يا لفرانسيس المسكينة! لقد قدر لها أكبر تجربة مريرة » . أليس هذا طريفاً يا « روبرت » ؟ أفلا تعتقد بأن هذا سيكون طريفاً يا « جاك » ؟

والتفتت نحوي ، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الرهيبة المتألقة ، كانت نشوى أن وجدت مستمعاً لها .

ـ وأنت يا « روبرت » أين ستكون ؟ إنه خطأي ، حسناً إنه خطأي تماماً . حين تيسر لي أن أجعلك تتخلص من السكرتيرة الصغيرة في المجلة

كان عليّ أن أعرف أنك سوف تتركني بالطريقة نفسها . إن « جاك » لا يعلم هذه القصة ، هل ينبغي أن أرويها له ؟

ـ صه يا « فرانسيس »! بالله عليك إلا سكتّ!

ـ حسناً ، سأرويها له : كان لـ« روبرت » سكرتيرة صغيرة لمجلته ، إنها ألطف فتاة في الدنيا ، كان يجدها رائعة . وأخيراً جئت أنا ووجدني رائعة أيضاً . وحينئذ طلبت إليه أن يتركها ، وذهب بها من (كارمل) الى (بروفنستاون) حين نقل مجلته الى هناك ، ولم يدفع لها أجرة عودتها الى الشاطئ[1] ، كل هذا ليدخل السرور الى نفسي ، كان يجدني ، آنذاك ، وسيمة رائعة ، أليس كذلك يا « روبرت » ؟

يجب ألا تسيء الفهم يا « جاك » ، لم يكن الأمر يعدو كونه حباً عذرياً مع السكرتيرة ، لم يكن عذرياً فحسب ، لا ، لا لم يكن كذلك البتة ، كل ما هنالك أنها كانت لطيفة جداً ليس غير ، ولم يعمد الى ذلك إلا ليدخل السرور الى نفسي . وبعد ، فأحسب أن علينا نحن الذين عشنا بفضل السيف ، أن نقضي بالسيف أيضاً . إن هذا الكلام ، أدنى الى أن يكون أدبياً . ألا تريد أن أذكرك به يا « روبرت » من أجل كتابك المقبل ؟

إنك تعلم أن « روبرت » يتهيأ لجمع وثائق لكتاب جديد ، أليس كذلك يا « روبرت » ؟ ولهذا السبب فإنه يتخلى عني . لقد قرر أن سحنتي ليست ملائمة للتصوير ، أتدري ؟ لقد كان مشغولاً ، خلال الفترة التي عشناها سوية ، بكتابة مؤلفه ، الى درجة أنه لا يذكر أي شيء يتصل بنا كلينا ، وهكذا فإنه سيمضي الآن ، بعيداً ، ليبحث عن مواد جديدة ، وبعد ، فإنني أتمنى أن يعثر على شيء ذي أهمية كبيرة .

اصغ إلي ، يا « روبرت » ، يا عزيزي . دعني أقل لك شيئاً ، إذا لم يكن لديك مانع ، أتسمح به ؟ : تجنّب ، ما استطعت ، أن تتاجر مع صديقاتك

(١) يعني الكاتب بالشاطئ شاطئ كاليفورنيا .

الصغيرات ، بلى ، تجنب ذلك ما استطعت ، فإنك لا تقدر القيام بالمشاجرة ، دون أن تبكي ، فتأخذك الشفقة ، بعد هذا ، على نفسك ، إلى حد لا يتأتى لك فيه أن تتذكر ما قاله الشخص الآخر عنك ، وبهذا ، فإنه لن يكون في ميسورك أن تذكر أطراف الحديث . حاول أن تكون هادئاً . إنني أعلم أن ذلك شاق الى درجة مرعبة ، ولكن لا تنسَ أن ذلك لمصلحة الأدب . علينا جميعاً أن نبذل بعض التضحيات في سبيل الأدب . أنظر إلي ، إنني مسافرة الى (انكلترا) دون اعتراض ، كل هذا من أجل الأدب ، يتعين علينا جميعاً أن نساعد الكتاب الناشئين ، ألا ترى ذلك يا « جاك » ؟ ولكنك أنت لست بكاتب ناشئ ، ألست كاتباً ناشئاً يا « روبرت » ؟ إنك تبلغ الرابعة والثلاثين ، ومع ذلك ، فإنني أتصور أن هذه السن أصغر من أن تليق بكاتب كبير ، خذ مثلاً : « هاردي » أو خذ « أناتول فرانس » . لقد مات منذ أمد قريب ، ولكن « روبرت » يرى ، أنه ليس بكاتب جيد ، فقد تناهى هذا القول إليه من بعض أصدقائه الفرنسيين ، وإن يكن نفسه لا يحذق قراءة الفرنسية الحذق كله ، بل إنه ليس بكاتب جيد مثلك يا « روبرت » أليس كذلك ؟ هل تظن أنه قد أتيح له أن يسافر للبحث عن مادة لكتابه ؟ ماذا تحسب أنه كان يقول لخليلاته حين كان يرفض أن يتزوجهن ؟ إنني أتساءل عما إذا كان يبكي أيضاً . أوه ، لقد خطرت في ذهني فكرة (ورفعت يدها الكاسية بالقفاز الى شفتيها) . إنني أعلم السبب الحقيقي الذي يحدو « روبرت » الى عدم رغبته في الزواج بي يا « جاك » . لقد خطرت لي هذه الفكرة الآن ، وجاءتني كأنها إشراقة هنا في (السيليكت) ، تراها فكرة صوفية ؟ سيأتي يوم تردد في سجل القداسة ، كما هي الحال في مدينة (لورد) . هل تود أن تسمعها يا « روبرت » ؟ سأقولها لك ، إنها بسيطة ، إنني أتساءل علام لم أفكر فيها ، من قبل ؟

حسناً ها هي ذي : إن « روبرت » كان يرغب دوماً ، في أن تكون له خليلة ، فإذا لم يتزوجني ، فإن في وسعه أن يقول إنه كان لديه خليلة ، وانها كانت خليلته طوال عامين ، أرأيت ؟ أما إذا تزوجني ، كما كان يعدني بذلك ،

دائماً ، فإن هذا الزواج يضع خاتـمة لقصة حبه العذري ، أفلا تـجدني ذكيـة في تصوري هذا التفسير وحدي ؟ إنه لصحيح... أنظر إليه ترَ أن ذلك كان صحيحاً . إلى أين أنت ذاهب يا « جاك » ؟

ـ عليّ أن أذهب لأرى « هارفي ستون » دقيقة واحدة . ورفع « كون » بصره إليّ ، بينا أنا أمضي . كان وجهه مربداً فيم ظل جالساً ثمة ؟ لمَ كان يتلقى ذلك كله على هذا النحو ؟

وكان في ميسوري ، وأنا واقف أمام المشرب أنظر الى الخارج ، أن أراهما من النافذة ، وكانت « فرانسيس » لا تني تتحدث إليه ، وعلى شفتيها ابتسامتها المتألقة وهي تحدج وجهه بنظرها ، في كل مرة تردد شيئاً آخر ، وقلت للساقي ، إنني لا أريد شرب أي شيء . وخرجت من الباب الجانبي . والتفت ، فيما كنت أتخطى الباب ، فرأيتهما من خلال الزجاج المتضاعف السِّمك وقد لزما مجلسهما ذاك وكانت لا تأتني تكلمه .

وخلصت من جادة صغيرة الى شارع (راسباي) ومرت سيارة تاكسي ، فاستقلتها وذكرت للسائق عنوان شقتي .

الفَصلُ السَّابع

وفيما كنت أهمُّ بصعود الدرج ، نقرت البوابة على زجاج باب حجرتها ، ولما توقفت ، قدمت من حجرتها ممسكة برسائل وبرقية .

ـ هذا هو بريدك ، لقد قدمت سيدة لتراك .

ـ هل تركت بطاقتها ؟

ـ لا . كانت مع رجل ، إنها السيدة نفسها التي جاءت ، ليلة أمس . لقد وجدتُ ، بعد رويّة ، أنها لطيفة جداً .

ـ أكانت مع أحد أصدقائي ؟

ـ لا أدري . فلم يأت هذا الى هنا ، من قبل ، كان رجلاً بديناً ، بديناً جداً ، جداً ، إنها لطيفة جداً . لطيفة ، جداً جداً ، لعلها كانت ليلة أمس... (وأراحت رأسها على يدها وهزته من أعلى الى أسفل) أقول ، بصراحة يا مسيو « بارنس » إنني لم أجدها ليلة أمس لطيفة جداً ، وقد كوّنت عنها فكرة أخرى . ولكن اصغ جيداً الى ما أقول انها elle est très, très gentille[١] ، إنها من أسرة راقية ، إن في ميسورك أن تلحظ ذلك .

ـ هل تركا لي كلمة ما ؟

ـ أجل لقد ذكرا بأنهما سيعودان بعد ساعة .

---

(١) وردت بالفرنسية في النص أي : إنها لطيفة ، لطيفة جداً . (المعرب)

ـ ليصعدا إلي حين يقدمان .

ـ أجل ، يا مسيو «بارنس» . هذه السيدة ، هذه السيدة انها لشخصية قد تكون غريبة الأطوار ، ولكنها شخصية ، إنها لشخصية .

كانت هذه البوابة تبيع ـ قبل أن تصبح بوابة ـ المرطبات في ميدان السباق ، في باريس ، وكانت تقوم بعملها على العشب الأخضر ، بيد أن عينيها كانتا تراعيان الأشخاص ذوي المكانة ، وكانت تُزدهى ، حين تنوّه لي ـ بين من تراه من ضيوفي ـ بمن كانت تجده مرموق المكانة ، ومن كان من عائلة كريمة ، ومن كان رياضياً Sportmen وكانت تلفظ الكلمة ، بالفرنسية ، مع إمالة للفظ Men . وكان المحذور الوحيد ، أن الأشخاص الذين لا يقعون في إحدى هذه الزمر الثلاث ، يستهدفون لخطر الجواب منها بأنه ليس ثمة أحد في شقة المسيو «بارنس» . إن أحد أصحابي (وكان رساماً ذا مظهر يشي بخصاصة ورقة حال ، ولم يكن طبعاً ، يبدو في اعتبار السيدة «دوزينيل» البوابة ، لا مرموق المكانة ولا من عائلة كريمة ولا رياضياً) كتب إلي ، ذات يوم ، رسالة ، يطلب إلي فيها تذكرة مرور يعرضها على البوابة ، ليتيسر له أن يصعد ليراني مساء ، في الوقت المناسب .

وصعدت إلى شقتي ، متسائلاً عما يمكن أن تكون «بريت» قد قامت به نحو البوابة . وكانت البرقية مرسلة من «بيل غورتون» يذكر فيها أنه قادم على باخرة (فرانسا) . ووضعت الرسائل على المنضدة ، ودخلت حجرة النوم ، وخلعت ثيابي وأخذت دوشاً ، وبينا كنت أتنشّف ، سمعت رنين جرس الباب وارتديت مبذلي وانتعلت صندلتي ، ومضيت الى الباب . كانت «بريت» وكان الكونت خلفها ، يحمل باقة كبيرة من الورد . وقالت «بريت» :

ـ هالو يا عزيزي ، هلاّ أذنت لنا بالدخول .

ـ تفضلا ، لقد كنت أغتسل .

ـ يا لك من رجل سعيد! حمّام .

ـ إنه دوش ليس غير ، تفضل بالجلوس ، كونت «ميبيبوبولوس» هل تودان شرب شيء ما ؟

وقال الكونت :

ـ لا أدري إن كنت تحب الورد يا سيدي ، ولكنني سمحت لنفسي بأن أجلب لك هذه الوردات .

ـ هاتها ، أعطني إياها ، (وتناولتها «بريت») إيت ببعض الماء ملء هذا يا جاك .

وملأتُ الكراز[1] الكبير الترابي ، ماء في المطبخ ، وغمستْ فيه «بريت» الوردات ، ثم وضعته في وسط طاولة حجرة الطعام .

ـ حقاً ، إننا نعمنا بنهار ممتع .

ـ هل تذكرين شيئاً ما يتعلق بموعد لي في (الكريون) ؟

ـ لا ، أكان لدينا موعد ؟ لابد أنني كنت آنذاك متعتعة سكراً .

وقال الكونت :

ـ كنت سكرى وحسب ، يا عزيزتي .

ـ أجل أليس كذلك ؟ إن الكونت ، في الحق ، لبق جداً .

ـ إن البوابة ، اليوم ، مفتونة بك وأي افتتان!

ـ كنت أستحق ذلك جيداً فقد منحتها مئتي فرنك .

ـ ينبغي ألا تقومي بحماقات مماثلة .

وقالت وهي تدل على الكونت بإيماءة من رأسها :

ـ إنها من ماله .

ـ لقد رأيت أن علينا أن نعطيها شيئاً يسيراً ، عقب ليلة أمس ، وقد كان ذلك متأخراً جداً آنذاك .

وقالت «بريت» :

---

(١) وعاء كالكوز ضيق العنق .

ـ إنه لرائع ، إنه يتذكر كل ما يجري .

ـ وأنت أيضاً يا عزيزتي .

وقالت « بريت » :

ـ فكّر قليلاً ، فيمن كان يرغب في ذلك ، وبعدُ فهل سنشرب شيئاً ما يا « جاك » ؟

ـ تناولا ما تشاءان ، ريثما أذهب وأرتدي ثيابي . أنت تعلمين أين توجد أدوات الشرب .

ـ وكيف لا أعلم!

وكان يتناهى الى سمعي ، فيما كنت أرتدي ثيابي ، وسوسة الأقداح تضعها « بريت » الى جانب السيفون فوق الطاولة ، وسمعتهما يتحدثان وجعلت أرتدي ثيابي متمهلاً ، وأنا جالس على طرف السرير ، وشعرت بأنني متعب ، موهون القوى ، ودلفت « بريت » الى الغرفة ، وفي يدها قدح وجلست على حافة السرير .

ـ ماذا تشكو يا عزيزي ؟ أتشعر بضيق ؟

وباست جبيني في فتور .

ـ أوه « بريت » أحبك كثيراً .

وقالت :

ـ يا حبيبي (واستطردت) هل تريد أن أصرفه ؟

ـ لا ، إنه لطيف .

ـ سأذهب لأصرفه .

ـ لا ، لا تفعلي ذلك .

ـ بلى ، سأصرفه .

ـ لا يمكن أن تفعلي ذلك على هذا النحو .

ـ ألا أستطيع ؟ مهلاً ، ابق هنا ، إنه مجنون بي ، أؤكد لك .

وخرجت من الغرفة . وتمددت منطرحاً ووجهي الى السرير ، كنت

تعساً ، وسمعتهما يتكلمان ، ولكنني لم أصغ إليهما ، ودخلت « بريت » وجلست على حافة السرير .

ـ يا حبيبي العزيز المسكين .

وجعلت تداعب شعري .

كنت ممدداً ، منحياً وجهي عنها ، فلم أكن أريد أن أراها .

ـ لقد طلبت إليه أن يشتري شمبانيا ، إنه يكلف بالذهاب بحثاً عن الشمبانيا .

وسكتت هنيهة ثم سألتني :

ـ هل تشعر بتحسن يا حبيبي ؟ هل يشعر هذا الرأس بتحسن ؟

ـ إنه في تحسن .

ـ تمدد مطمئناً ، لقد ذهب الى أقصى طرف من المدينة .

ـ « بريت » ألا يمكن أن نعيش معاً ؟ ألا يمكن أن نعيش معاً وحسب ؟

ـ لا أظن ذلك ، سوف أخونك مع الناس كافة . ولن يكون في وسعك أن تطيق ذلك .

ـ إنني أطيقه الآن .

ـ يختلف هذا الوضع عن ذاك . إنه خطأي يا جاك . وإنها الطريق التي رُسمت لي .

ـ أفلا يمكن أن نذهب الى الريف بعض الوقت ؟

ـ ليس هذا بمجد لنا في شيء ، سأذهب إن رغبت في ذلك ، ولكنني لا أقوى على العيش هادئة في الريف ، حتى مع صديق قلبي .

ـ أعلم ذلك .

ـ أي فائدة في أن أقول لك : أحبك ، أليس هذا مثيراً للاشمئزاز ؟

ـ إنك تعلمين أنني أحبك .

ـ لنمسك عن الكلام في هذا الشأن ، إن كل ما نقول هو هذر ليس غير ، سوف أذهب وأبتعد عنك . ثم إن « ميشيل » يوشك أن يعود .

ـ لماذا تذهبين ؟

ـ إنه أجدى لي ولك .

ـ متى ستذهبين ؟

ـ متى استطعت ذلك .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى (سان سيباستيان) .

ـ ألا نستطيع أن نذهب معاً ؟

ـ لن تكون سوى فكرة فاشلة ، بعد كل ما ذكرناه الآن .

ـ إننا دوماً على غير اتفاق .

ـ أوه إنك لتعرف مثل ما أعرف ، لا تكن عنيداً ، يا عزيزي .

وقلت :

ـ أوه ، طبعاً أعلم أنك على صواب ، أشعر بصداع ليس غير ، وحين أشكو صداعاً فإنني أتحدث كمجنون .

وجلست على السرير ، وانحنيت لأمسك بحذائي ، وبعد أن انتعلتهما نهضت .

ـ لا تصطنع هذه السحنة يا عزيزي .

ـ أي سحنة تريدين أن أصطنع ؟

ـ لا تفه بهذه الحماقات ، سأسافر غداً .

ـ إذن فلنشرب قدحاً ، إن الكونت يوشك أن يعود .

ـ بلى إنه قادم وشيكاً . أتدري ؟ إنه لمدهش حين يكون الأمر متعلقاً بالشمبانيا . إنها كل شيء بالنسبة إليه .

ومضينا الى حجرة الطعام ، وتناولت زجاجة البراندي وصببت منها لي ولـ« بريت» . ورنّ جرس الباب ، وذهبت لأفتح ، فإذا هو الكونت ، وخلفه السائق يحمل سلة ملأى بالشمبانيا .

وسألني الكونت :

ـ أين ينبغي أن أطلب إليه وضعها يا سيدي ؟

وقالت « بريت » :

ـ في المطبخ .

وقال الكونت مشيراً بيده :

ـ ضعها هنا يا « هنري » . والآن اذهب وإيت بالجليد (وكان ينظر الى السلة ، من باب المطبخ) أعتقد بأنكما ستجدان هذه الخمر جيدة جداً ، إنني أدري أنه ليس ثمة حظ كبير في أن نحكم على خمر بأنها جيدة في الولايات المتحدة ، حالياً ، غير أنني حصلت على هذه الزجاجات بفضل صديق يعمل في تجارة الخمور .

وقالت « بريت » :

ـ أوه . إن لك دوماً معارف في ميدان التجارة .

ـ يُعنى هذا الشخص بزراعة الكرمة . إن لديه آلاف الأكرات(١) من الأراضي .

ـ ماذا يدعى ؟ « فوف كليلو » ؟

وأجاب الكونت :

ـ لا ، بل « مامس » ، إنه بارون .

وقالت « بريت » :

ـ أليس هذا رائعاً ؟ إن لنا جميعاً ألقاباً كريمة . لمَ لا يكون لديك لقب ، يا « جاك » ؟

وقال الكونت :

ـ أؤكد لك يا سيدي ، (ووضع الكونت يده في ذراعي) ، أن هذا لا يعود بالنفع على أحد ، إنه في أغلب الأحيان ، مجلبة لصرف المال .

وقالت « بريت » :

---

(١) الأكر : الفدان الانكليزي .

ـ أوه ، لا أدري ، إنه ، أحياناً ، ضروري جداً .
ـ أما أنا ، فإنني لم أفد منه شيئاً .
ـ إنك لم تعرف كيف تفيد منه ، أما لقبي فقد أعطاني رصيداً جهنمياً .
وقلت :
ـ تفضل بالجلوس ، سيدي الكونت ، دعني آخذ عنك عصاك .
وكان الكونت يرامق «بريت» عبر الطاولة ، تحت المصباح . وكانت تدخن سيكارتها وتدع رمادها يقع على السجادة ، ولمحتني وأنا ألحظها .
ـ «جاك» لا أريد أن أتلف سجادتك ، ألا تستطيع أن تجلب لي منفضة سكاير ؟
وعثرت على بعض المنافض ، فوزّعتها حولنا ، وصعد السائق يحمل سطلاً مليئاً بالجليد المملّح .
وقال الكونت بصوت عال :
ـ ضع زجاجتين في السطل يا «هنري» .
ـ أتريد شيئاً آخر ، يا سيدي ؟
ـ لا ، انتظر في السيارة (والتفت إلي وإلى «بريت») هلاّ قمنا بجولة في الغابة قبل أن نتناول الطعام ؟
وقالت «بريت» :
ـ إذا شئت ، فقد لا أكون قادرة على أن أطعم شيئاً .
وسأل السائق :
ـ هل يرغب سيدي في أن آتي بالخمر ؟
وقال الكونت :
ـ أجل ، إيت بها يا «هنري» .
وأخرج علبة سكاير ثقيلة مصنوعة من جلد الخنزير ، وبسطها لي :
ـ هل تود أن تجرب تدخين سيجار حقيقي أمريكي ؟
وقلت :

ـ شكراً سوف أنهي هذه السيكارة .

وقرط طرف سيجاره بموسى مذهبة كان يحملها ، منوطةً بطرف سلسلة ساعته .

ـ أحب السيجار الذي يمتص دخانه ، في يسر . إن نصف ما يدخن من أصناف السيجار يمتص دخانه في مشقة .

وأشعل سيجاره . وسحب منه نفساً ، فيما كان يرامق « بريت » عبر الطاولة .

ـ وحين تحصلين على الطلاق ، يا لادي « اشلي » ، فلن تتمتعي بأي لقب .

ـ لا ، وا أسفاه .

وقال الكونت :

ـ لا ، لست بحاجة الى لقب فإنك كريمة النسب ، من رأسك الى أخمص قدميك .

ـ شكراً ، هذا لطف منك .

ـ أنا لا أمزح (ونفث الكونت غمامة من الدخان) إنني لم أر أكرم نجاراً منك . هذا كل ما هنالك .

وقالت « بريت » :

ـ إنه لطف كريم منك ، إن هذا ليجعل أمي مسرورة جداً ، أفلا تستطيع أن تكتبه لي ، لأبعثه إليها في رسالة ؟

وقال الكونت :

ـ سوف أقوله لها أنا أيضاً ، أنا لا أمزح ، أنا لا أمزح أبداً . إن اصطناع المزاح مع الناس ، هو خير وسيلة لخلق الأعداء . هذا ما أردده دوماً .

وقالت « بريت » :

ـ إن ما تقوله لصحيح ، لصحيح ، بصورة مدهشة ، إنني أمزح دائماً مع الناس كافة ، وليس لدي صديق واحد ، فيما « عدا جاك » .

ـ لأنك لا تمازحينه .

ـ حقاً .

قال الكونت :

ـ والآن ، ألا تمازحينه ؟

ونظرت إلي « بريت » ثم غمزت بعينيها وقالت :

ـ لا ، لا أريد أن أمازحه هو .

وقال الكونت :

ـ ألا ترين ؟ إنك لا تمازحينه .

وقالت « بريت » :

ـ إن هذا الحديث متعب جداً ، ما رأيكم في تذوق شيء من الشمبانيا ؟

وغمس الكونت يده في الماء وجعل يدير الزجاجتين في السطل البراق .

ـ لم تبترد بعد ، إنك لا تفكرين إلا في الشراب يا عزيزتي ، لم لا تقتصرين على الكلام فحسب ؟

ـ لقد تكلمت كثيراً جداً . وقلت ما يتعين علي قوله لـ« جاك » .

ـ لكم أحب أن أرى إليك تتحدثين حقاً يا عزيزتي ، فإنك حين تتحدثين إلي لا تنهين جملتك البتة .

ـ إنني أدع لك العناية بإنهائها ، ذر كل إنسان ينه جملته كما يهوى .

ـ إنه لنهج حقيقي بالاهتمام (وانحنى الكونت وجعل يدير الزجاجتين) ، ومع هذا فكم أود أن أسمعك تتكلمين أمداً ما .

وسألت « بريت » :

ـ تراه مجنوناً ؟

ـ آه (وأخرج الكونت زجاجة) أحسب أن هذه باردة .

وأحضرت منشفة مسح بها الزجاجة ثم شالها بيده عالياً .

ـ أحب شرب الشمبانيا ذات القارورة الكبيرة ، إن خمرها ألذ مساغاً . ولكن يصعب كثيراً تبريدها .

وكان يمسك بالزجاجة ، متأملاً فيها ، ووضعت الأقداح ، وقالت « بريت » مقترحة :

ـ إن في استطاعتك فتحها إذن .

ـ أجل يا عزيزتي سأفتحها الآن .

كانت الشمبانيا مدهشة .

ـ هذه هي الخمر ، (ورفعت « بريت » قدحها) هلا شربناها على نخب شيء ما... على نخب الملكية .

ـ إن هذه الخمر هي أكبر من أن تشرب على نخب شيء ما ، يا عزيزتي ، لا ينبغي أن نحشر العواطف مع خمر كهذه وإلا فقدت طيب مذاقها... وأضحى قدح « بريت » فارغاً .

وقلت :

ـ ينبغي أن تؤلف كتاباً عن الخمر يا سيدي الكونت .

وأجاب الكونت :

ـ يا سيد «بارنس» ، إن كل ما أبتغيه هو التمتع بمذاقها .

ـ دعنا نتمتع بمزيد يسير من هذه الخمر .

ومدت « بريت » قدحها ، وصب الكونت الخمر ، في عناية ظاهرة .

ـ ها هي ذي ، يا عزيزتي . تمتعي بمذاقها ، على مهل ، وبعد هذا يضحي في ميسورك أن تسكري منها .

ـ أن أسكر! أن أسكر!

ـ إنك فاتنة حين تكونين سكرى يا عزيزتي .

ـ اصغ الى ما يقول هذا الرجل .

ـ يا سيد « بارنس » (وملأ الكونت قدحي) إنها السيدة الوحيدة التي أعرف أنها فاتنة حين تكون سكرى وحين تزهد في الشرب .

ـ لقد سحت كثيراً ، أليس كذلك ؟

ـ بلى يا عزيزتي ، لقد سحت كثيراً ، وتجولت تجوالاً موصولاً مديداً .

وقالت «بريت» :

ـ اشرب خمرك ، لقد تجولنا كلنا ، إنني لأجرؤ على القول إن «جاك» قد رأى مثل ما رأيت أنت .

ـ يا عزيزتي ، إنني لواثق بأن السيد «بارنس» قد رأى أشياء جمة ، لا تحسب أنني أشك في ذلك يا سيدي ، لقد رأيت أنا أشياء كثيرة .

وقالت «بريت» :

ـ طبعاً يا عزيزي لم أكن أقصد سوى الشرثرة .

وقال الكونت :

ـ لقد خضت سبع حروب ، واشتركت في أربع ثورات .

وسألت «بريت» :

ـ كجندي .

ـ أحياناً يا عزيزتي ، وقد أصبت بجراح سهام ، هل رأيتما جراح سهام من قبل ؟

ـ أرنا إياها .

ونهض الكونت وفك أزرار صداره وفتح قميصه ورفع صداره عن حقويه ، حاسراً عن صدره الأسمر ، وعضلات بطنه الصلبة التي كانت بارزة في الضوء .

ـ هل رأيتماها ؟

وتراءت تحت أضلعه ندبتان بيضاوان .

ـ انظرا إلى المكان الذي خرج منه السهم في الظهر .

وتراءت ندبتان متماثلتان كبيرتان في حجم الإصبع ، في أسفل الظهر .

ـ إيه ، إن هذا ليس بالشيء اليسير .

ـ نفذ السهم من طرف الى طرف .

وأدخل الكونت قميصه ، وسألته :

ـ أين حدث لك هذا ؟

ـ في الحبشة ، وكنت في الحادية والعشرين من عمري .

وسألت « بريت » :

ـ ماذا كنت تفعل ثمة ؟ هل كنت في الجيش ؟

ـ كنت في رحلة أعمال يا عزيزتي .

وقالت « بريت » ملتفتة إليّ :

ـ لقد قلت لك إنه من زمرتنا ، إنني أحبك يا كونت ، إنك لحبيب عزيز .

ـ إنك تغمرينني بالسعادة ، يا عزيزتي ، ولكن هذا ليس بصحيح .

ـ لا تكن حماراً .

ـ أفلا ترى يا سيد « بارنس » أن في مكنتي أن أتمتع جيداً بكل شيء ، لأنني عشت حياتي على نحو عنيف خصب .

ـ أجل بكل تأكيد .

وقال الكونت :

ـ إنني أعلم أن هنا يكمن السر : ينبغي عليك أن تقدر القيم حق قدرها .

وسألت « بريت » :

ـ أفلا يطرأ شيء ما على قيمك هذه ؟

ـ لا . أبداً .

ـ ألم تكن عاشقاً ، يوماً ما ؟

وأجاب الكونت :

ـ دوماً ، إنني دوماً عاشق .

ـ وماذا يفعل الحب بقيمك هذه ؟

ـ إن للحب أيضاً مكاناً بين قيمي .

ـ ليس لك قيم البتة ، أنت ميت ليس غير .

ـ لا يا عزيزتي ، أنت مخطئة لست بميت أبداً .

وشربنا ثلاث زجاجات من الشمبانيا ، وترك الكونت السلة في مطبخي ، وتناولنا طعام العشاء في مطعم بالغابة . وكان عشاء ممتازاً شهياً . فقد كان الطعام يشغل مكاناً ملحوظاً بين قيم الكونت ، مثل المكان الذي تشغله

الخمر . وكان الكونت ملتزماً جانب اللياقة والكياسة مع النساء ، وكذلك كانت «بريت» وكان هذا أبعث على البهجة .

وسأل الكونت عقيب العشاء :

ـ إلى أين تودان أن نذهب ؟

وكنا الأشخاص الوحيدين في المطعم ، وكان الخادمان يقفان قريباً من الباب . كان يبدو أنهما يرغبان في الذهاب الى بيتهما .

وقالت «بريت» :

ـ في ميسورنا الآن أن نذهب الى (الرابية)[1] . أرأيت ما أطيب هذا العشاء ؟

وشاع السرور في محيا الكونت ، كان سعيداً جداً ، وقال :

ـ إنكما لطيفان جداً (وكان يدخن سيكاراً آخر) لم لا تتزوجان ؟

وقلت :

ـ كلانا يريد أن تكون حياته مستقلة .

وقالت «بريت» :

ـ لكل منا أوضاعه ، هيا بنا ، لنذهب من هنا .

وقال الكونت :

ـ لنشرب قدحاً آخر من البراندي .

ـ اشربه هناك على (الرابية) .

ـ لا . لنشرب هنا ، حيث يتوفر الهدوء .

وقالت «بريت» :

ـ إيه! دعنا منك ومن هدوئك! ما هذا الذي يلتمسه الرجال في الهدوء ؟

وقال الكونت :

ـ إننا نلتمسه كما تلتمسين أنت الضجة يا عزيزتي .

---

(١) يعني المؤلف بها (مونمارتر) القائمة على رابية . (المعرب)

وقالت « بريت » :

ـ حسناً ، اطلب لنا قدحاً آخر .

ونادى الكونت :

ـ يا غلام!

ـ نعم يا سيدي!

ـ ما هي أعتق براندي لديكم ؟

ـ ١٨١٢ يا سيدي .

ـ إيت لنا بزجاجة .

ـ ما هذا ، لا تكن متلافاً ، امنعه يا « جاك » .

ـ اصغي إلي يا عزيزتي . إنني أهب لمالي ، حين أبذله في خمر معتقة قديمة ، قيمة تربو على قيمته حين أبذله في شراء قنية من الآثار القديمة .

ـ أيوجد لديك كثير من الآثار القديمة ؟

ـ لديّ بيت مليء بها .

وأخيراً مضينا صعداً الى (مونمارتر) . وكان ملهى (زيلي) غاصاً بالناس ، وكان مشحوناً بالدخان ، صاخباً ، وكانت الموسيقى تضربك بنغماتها من وصيد الصالة . ورقصت مع « بريت » . وكان حشد الراقصين من الكثرة بحيث لم يكن في ميسورنا أن نتحرك إلا في مشقة . ولوح الطبال الزنجي بيده لـ« بريت » . وألفينا أنفسنا في الزحام ، أمامه ، ونحن نرقص في مكان واحد لا نكاد نريم .

ـ كيف الحال ؟

ـ جيدة .

ـ هذا حسن .

ـ وبدا كأنه كتلة من الأسنان والشفاه . وقالت لي « بريت » :

ـ إنه صديق حميم لي . وإنه لقارع طبل لعين .

وتوقفت الموسيقى . فاتخذنا سمتنا نحو الطاولة التي كان يجلس إليها

الكونت ثم استأنفت الموسيقى عزفها ، فرقصنا . ونظرت الى الكونت ، وكان جالساً الى الطاولة يدخن سيجاره . وتوقفت الموسيقى كرة أخرى .

ـ هيا بنا نجلس .

واتجهت « بريت » الى الطاولة ، وعادت الموسيقى الى العزف ، فرقصنا أيضاً ، مضغوطين في الزحام .

ـ إنك لراقص رديء يا « جاك » . إن « ميشيل » أحسن راقص عرفت .

ـ إنه لرائع .

ـ إن له مزاياه .

وقلت :

ـ إنني أضمر له الود وأحبه كثيراً .

وقالت « بريت » :

ـ سوف أتزوجه ، إنه لشيء طريف أن لم أفكر فيه البتة منذ أسبوع .

ـ ألا تكتبين إليه ؟

ـ لا . أنا لا أكتب رسائل أبداً .

ـ أراهن بأنه يكتب إليك .

ـ طبعاً ، إن رسائله رقيقة جداً .

ـ متى ستتزوجينه ؟

ـ كيف تريد مني أن أعرف ؟ حالما أحصل على الطلاق . إن « ميشيل » يحاول أن يقنع أمه لتساعده في تسديد النفقات .

ـ هل يمكنني أن أساعدك في شيء ؟

ـ لا تكن حماراً ، إن أسرة « ميشيل » تملك أموالاً طائلة .

وتوقفت الموسيقى ، ومضينا الى الطاولة ، ونهض الكونت قائماً وقال :

ـ لطيف جداً ، إنكما تبدوان لطيفين جداً جداً .

وسألت :

ـ ألا ترقص يا سيدي الكونت ؟

ـ لا ، إنني شيخ هرم .

وقالت « بريت » :

ـ إيه ، على رسلك .

ـ يا عزيزتي ، إنني لأرقص لو أنني ألفيت في الرقص متعة لي ، ولكنني أجتزئ متعة مشاهدته .

وقالت « بريت » :

ـ بديع جداً! سوف أرقص ، من جديد ، من أجلك . قل لي ، بالمناسبة ، كيف حال صديقك الصغير « زيزي » ؟

ـ دعيني أقل بصراحة . إنني أنفق على هذا الفتى ولكنني لا أسيغ صحبته .

ـ إنه ، على الجملة ، شخص مضايق .

ـ أتدرين ؟ أعتقد بأن له مستقبلاً ، ولكنني لا أرغب ، شخصياً ، في أن يلازمني .

ـ إن « جاك » يرى رأيك تقريباً .

وقلت :

ـ إنه يثير أعصابي .

ـ أجل (وهز الكونت كتفيه) ، أما ما يتعلق بمستقبله ، فلا يمكن التنبؤ بشيء ، على أي حال ، فإن أباه كان صديقاً حميماً لأبي .

وقالت لي « بريت » :

ـ هيا بنا نرقص .

ورقصنا ، وكان ثمة حشد من الراقصين . وكان الهواء خانقاً . وقالت لي « بريت » :

ـ أوه يا حبيبي ، إنني جد بائسة .

وجاذبني شعور بأنني سأمرّ بشيء كان قد حدث لي من قبل .

ـ لقد كنت سعيدة منذ دقيقة .

وكان الطبال يزعق :

ـ « إنك لا تقدر مرتين... » .

ـ لقد انتهى كل شيء .

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ لا أدري ، أشعر بضيق رهيب .

ـ « ... » .

كان يردد الطبال منشداً ، ثم استدار وأمسك بعصويه .

ـ هل تريدين أن نذهب ؟

ولزمني شعور ، كما لو كنت أرى كابوساً يتكرر فيه كل شيء ، وأنني قد مررت بذلك ، وأن عليّ أن أمرّ به كرة أخرى .

ـ « ... » .

كان الطبال ينغم لحنه في بطء .

وقالت « بريت » :

ـ لنذهب ، ألديك مانع ؟

ـ « ... » .

وجعل الطبال يزعق في غنائه مكشراً لـ« بريت » عن أسنانه .

وقلت :

ـ حسناً ، فلنذهب .

وخرجنا من زحمة الراقصين ، ومضت « بريت » الى حجرة الملابس ، وقلت للكونت :

ـ إن « بريت » ترغب في الذهاب...

وهز رأسه :

ـ حقاً ؟ حسناً . اذهبا بسيارتي . سأبقى قليلاً هنا ، يا سيد « بارنس » وتصافحنا ، وقلت :

ـ سهرة ممتعة ، أود لو تسمح لي بأن أدفع أنا الحساب .

وقال الكونت :

ـ لا تكن مضحكاً ، يا سيد « بارنس » .

وقدمت « بريت » وقد تلفعت بمعطفها وباست الكونت ثم أراحت يدها على كتفه لتحول دون نهوضه من مجلسه . وفيما كنا نتخطى الباب خارجين ، التفت فإذا بي أرى ثلاث فتيات جالسات الى طاولته . وركبنا السيارة الكبيرة ، وذكرت « بريت » للسائق عنوان فندقها .

وقالت لي أمام الفندق :

ـ لا ، لا تصعد .

ورننت الجرس وفُتح الباب .

ـ حقاً ؟

ـ لا ، أرجوك .

وقلت :

ـ ليلة سعيدة يا « بريت » . إنه ليزعجني أن تكوني مريضة .

ـ ليلة سعيدة يا « جاك » ، ليلة سعيدة يا عزيزي ، لا أود أن أراك بعد الآن .

وتعانقنا ، واقفين ، أمام الباب . ودفعتني ، ثم عاودنا التقبيل . وقالت « بريت » :

ـ أوه ، لا ، أرجوك .

وانفلتت مسرعة ودخلت الفندق ، وعاد بي السائق الى شقتي ، ومنحته عشرين فرنكاً ، وأمسك بقبعته وقال :

ـ ليلة سعيدة يا سيدي .

ومضى ، ورننت الجرس ، وفُتح الباب ، وصعدت ثم فزعت الى السرير .

الجزء الثاني

الفَصلُ الثامِن

لم يتح لي أن أرى « بريت » إلا عقب عودتها من (سان سيباستيان) وكانت قد أرسلت إليّ صورة تجلو منظر (الكونشا) . وخلفها خطت هذه الكلمات : « عزيزي : إنني بصحة جيدة ، تحياتي الودية الى جميع الرفاق - « بريت » .

ولم أرَ « روبرت كون » أيضاً . وقد تناهى إليّ أن « فرانسيس » سافرت الى (انكلترا) ، وتلقيت رسالة وجيزة من « كون » ذكر فيها أنه سيمضي أسبوعين في الريف ، لا يدري أين . وأنه يوصيني بأن أتمسك برأيي في القيام برحلة صيد الى (اسبانيا) ، وكنا تحدثنا بهذا الموضوع في الشتاء الماضي ، وأنني أستطيع أن أتصل به ، دوماً ، بواسطة مصرفه .

وكانت « بريت » قد سافرت ، ولم تعد تزعجني مشاكل « كون » البتة ، وكنت في الحق ، مسروراً إن لم يتح لي أن ألعب التنس ، إذ كان علي أن أنهي أعمالاً شتى . وكنت أتردد ، غالباً ، على ميدان السباق ، وأتناول طعام الغداء مع أصدقاء لي . وكنت أعمل ساعات إضافية لأتمكن من الاعتماد على سكرتيري حين أسافر الى اسبانيا مع « بيل غورتون » في نهاية حزيران (يونيو) . وقدم « بيل غورتون » وأمضى يومين في شقتي ثم سافر الى (فيينا) . وكان يردد لي أن (الولايات المتحدة) رائعة وأن (نيويورك) رائعة ، وأنه قد مر موسم مسرحي رائع ، وأنه قد تألقت أسماء شباب ملاكمين من

الوزن الخفيف الثقيل ، وأنه يؤمّل بأن يكبر كل واحد منهم ، ويضخم ويطوّح بـ« دامبسي » . وكان « بيل » بادي الغبطة ، فقد عاد عليه كتابه الأخير بمال وفير ، وكان يتوقع أن يظفر منه بمزيد من الربح ، وكان عليه أن يعود بعد ثلاثة أسابيع ، ثم نسافر ، بعدئذ ، الى (اسبانيا) للصيد وحضور حفلات الأعياد (الفييستا)[1] في (بامبلونة) . وقد كتب إليّ : إن (فيينا) مدينة رائعة ، وأرسل إليّ بطاقة من (بودابست) تتضمن ما يلي : « جاك » : إن (بودابست) رائعة . ثم بعث ببرقية تقول : سوف أصل الاثنين .

وفي مساء يوم الاثنين ، عاد الى شقتي ، فقد سمعت أطيط سيارة التاكسي تقف ، ومضيت الى النافذة وناديته ، فلوّح لي بيده ، وصعد الى علٍ ، حاملاً حقائبه . والتقيت به على الدرج ، وحملت إحدى حقائبه ، وقلت :

ـ حسناً . هكذا قمت برحلة رائعة .

وقال :

ـ رائعة ، إن (بودابست) رائعة جداً .

ـ و(فيينا) ؟

ـ ليست مثلها في الروعة يا « جاك » ، ليست مثلها البتة ، إنها تتراءى أجمل مما هي في الواقع .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

وكنت بسبيل إحضار قدحين وسيفون .

ـ لقد تلقيت فيها الشيء العجاب .

ـ إنه لعجيب ، من الأفضل أن تحتسي قدحاً .

وحك « بيل » جبهته ، وأردف يقول :

ـ إنه لشيء غريب فريد ، لا أدري كيف جرى ذلك ، لقد جرى فجأة...

ـ وهل دام ذلك أمداً طويلاً ؟

---

(١) الفييستا : Fiesta تعني العيد في الاسبانية .

ـ أربعة أيام ، يا « جاك » دام أربعة أيام .

ـ وأين ذهبت ؟

ـ لا أذكر ، لقد أرسلت إليك بطاقة ، أتذكر ذلك جيداً .

ـ وهل فعلت شيئاً آخر ؟

ـ لست متأكداً . إنه ممكن .

ـ قص علي ما جرى لك .

ـ ليس في ميسوري أن أتذكر ، لقد ذكرت لك كل ما أتذكره .

ـ هلاّ شربت قدحاً ، لعلك أن تتذكر .

وقال « بيل » :

ـ في وسعي أن أتذكر شيئاً يسيراً . أتذكر شيئاً ما أشبه بحفلة ملاكمة ، حفلة ملاكمة هائلة في (فيينا) . كان هناك ، زنجي ، إنني أتذكر الزنجي جيداً .

ـ أكمل .

ـ زنجي رائع ، كان يشبه « تيجر فلاورس » ، ولكنه أضخم منه بأربعة أضعاف ، وعلى حين غرة ، أخذ الناس يقذفون بأشياء دون أن أشاركهم في ذلك ، فقد طرح الزنجي مواطناً من بلدهم على الأرض . ورفع الزنجي قفازه ، وهمّ بإلقاء خطاب ، غير أن المواطن الأبيض لكمه ، فطوّح به الزنجي ، وعندئذ ، شرع الجميع يقذفون المقاعد . وعاد الزنجي الى البيت بسيارتنا ، ولم يتح له أن يرتدي ثيابه ، فتلفع بمعطفي . إنني أتذكر ، اللحظة ، كل شيء ، كانت أمسية رياضية كبيرة .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لقد أعرت الزنجي بعض الثياب ثم ذهبت معه ، نحاول أخذ ما يستحق من مال . فادّعوا بأن الزنجي مدين لهم ، لما أصاب الصالة من أضرار . إنني أتساءل عمن كان يترجم له آنذاك ، أترى كنت أنا ؟

ـ على الأرجح ، لم تكن أنت .

ـ أصبت ، لم أكن أنا ، كان ثمة شخص آخر ، أحسب أننا كنا ندعوه بمواطن (هارفارد) . إنني أتذكره الآن ، كان يدرس الموسيقى .

ـ وكيف مضيت من هناك ؟

ـ لم ينته الأمر على نحو حسن جداً يا « جاك » ، الجور سائد في كل مكان .

لقد ادّعى المدير بأن الزنجي خالف العقد ، فليس مسموحاً بأن يطوّح على الأرض (نوك آوت) في الملاكمة ، في فيينا ، بمواطن منها . وقال لي الزنجي : « يا إلهي ، إنني لم أفعل شيئاً ، في مدى أربعين دقيقة ، سوى أنني كنت أدعه واقفاً ، ولكن لابد أن الفتى الأبيض قد أصيب بشيء ما ، وهو يندفع نحوي . إذ لم ألكمه لكمة واحدة .

ـ وهل حصلتما على شيء من المال ؟

ـ لم نحصل على شيء ، وكل ما فزنا به هو ثياب الزنجي ، بل ان أحدهم ظفر بساعته ، يا له من زنجي رائع! إنه خطأ فاحش ، أن تسافر الى (فيينا) فليست جميلة رائعة يا « جاك » . ليست رائعة .

ـ ماذا جرى للزنجي ؟

ـ لقد عاد الى (كولونيا) ، حيث يقيم . إنه متزوج ورب عائلة ، وسوف يكتب لي رسالة ويعيد إلي المال الذي أقرضته إياه . إنه زنجي رائع ، أرجو أن أكون قد أعطيته عنواني الصحيح .

ـ على الأرجح أنك فعلت ذلك .

وقال « بيل » :

ـ حسناً ، لنذهب ، على أي حال ، ونتناول طعام العشاء . إلا إذا رغبت في أن أورد لك قصصاً أخرى عن رحلتي .

ـ تابع حديثك .

ـ دعنا نطعم شيئاً .

ونزلنا ، ثم خرجنا الى شارع (سان ميشيل) . كانت أمسية رائعة من

أماسي حزيران (يونيو) .

ـ إلى أين سنذهب ؟

ـ هل تود أن تتعشى في الجزيرة ؟

ـ بكل تأكيد .

ومشينا في الشارع ، وكان ينتصب ، عند التقاء هذا الشارع بشارع (دانفير روشيرو) تمثال لرجلين بثياب متموجة .

ـ إنني أعلم من هما (وكان « بيل » يتطلع الى التمثال) . إنهما السيدان اللذان أوجدا علم الصيدلة . لا تحاول أن تشدني الى « باريس » .

وتابعنا السير ، وقال « بيل » :

ـ ها هو ذا بائع الحيوانات المحنطة ، هل تريد أن تشتري شيئاً ما : كلباً جميلاً محنطاً ؟

قلت :

ـ هيا بنا ، يخيل إلي أنك سكران .

ـ إن الكلاب المحنطة لطيفة ، إنها تؤنس شقتك .

ـ تعال .

اشترِ كلباً محنطاً واحداً ، لك أن تأخذ واحداً أو أن تتركه . اصغ إليّ يا « جاك » كلباً واحداً فحسب .

ـ هيا بنا .

ـ إنه يفسر ، بعد شرائك له ، كل شيء في الدنيا ؛ إنه يمثل تبادل المنافع ليس غير . أنت تعطي مالاً ؛ لتنال كلباً محنطاً .

ـ سوف نشتري واحداً عند عودتنا .

ـ حسناً ، لك ما تشاء ، إن طريق الجحيم ممهدة بالكلاب المحنطة غير المبيعة . ليس هذا خطأي .

ومضينا في السير .

ـ ما الذي حملك على التفكير في الكلاب ، هكذا فجأة ؟

ـ إنني أحمل دوماً هذا الشعور نحو الكلاب ، وأحب دوماً الحيوانات المحنطة .

وتوقفنا لنشرب شيئاً ما . وقال « بيل » :

ـ ليس من شك في أنني أحب أن أشرب . عليك أن تجرب الشرب قليلاً يا « جاك » .

ـ إنك تسبقني بمئة وأربعة وأربعين قدحاً .

ـ ينبغي عليك ألا يطرحك السكر . أنا لم أنطرح أبداً ، هذا سر نجاحي ، لم أنطرح البتة أمام الناس...

ـ أين كنت تشرب ؟

ـ لقد توقفت في (الكريون) وأعطاني « جورج » قدحين من خمر (جاك روز) . إن جورج لرجل عظيم ، هل تعلم سر نجاحه ، إنه لم ينطرح من السكر أبداً .

ـ سوف تنطرح أنت ، بعد ثلاثة أقداح تقريباً ، من البرنود .

ـ ليس أمام الناس . حين أشعر بأنني أوشك أن أنطرح فإنني أتوارى وحدي . وفي هذا المجال أنا شبيه بالهر .

ـ متى رأيت « هارفي ستون » ؟

ـ في (الكريون) كان « هارفي » على وشك أن ينطرح ؛ فلم يكن قد طعم شيئاً من ثلاثة أيام . إنه لا يأكل أبداً ، ثم توارى وشيكاً مثل هر . يا له من محزون لطيف!

ـ إنه في صحة جيدة .

ـ عظيم . ولكنني أوثر ألا يتوارى هكذا ، مثل هر . إنه يثير أعصابي .

ـ ماذا نفعل هذا المساء ؟

ـ سيان عندي . بيد أنه ينبغي ألا يتعتعنا السكر ويطرحنا . أتظن أنه يوجد هنا بيض مسلوق ؟ إذا كان يتوفر ، هنا ، بيض مسلوق ، فليس من حاجة الى ذرع هذه الطريق كلها ، حتى نصل الى الجزيرة .

وقلت :

ـ لا ، سنذهب لنتناول عشاء حقيقياً .

وقال « بيل » :

ـ إنه اقتراح ، ليس غير ، أتود أن نذهب على التو ؟

ـ هيا بنا .

ومضينا نسير ، منحدرين ، في الشارع ، ومرت عربة ، بالقرب منا ، وحدجها « بيل » بنظره .

ـ أرأيت الى هذه العربة ، سوف أحنّط حصان هذه العربة ، من أجلك ، وأقدمه هدية ، في عيد الميلاد . إنني أهدي جميع أصدقائي ، حيوانات محنطة ، أنا كاتب طبيعة .

ومرت سيارة تاكسي ، ولوح شخص بيده ، داخلها ، ثم أشار الى السائق بالوقوف ، وتراجعت السيارة ودانت الرصيف ، وكان داخلها « بريت » .

وقال « بيل » :

ـ إنها سيدة حسناء تهم بأن تخطفنا .

وقالت « بريت » :

ـ هالو! هالو!

ـ إنه « بيل غورتون »... « لادي أشلي » .

وابتسمت « بريت » لـ« بيل » .

ـ لقد عدت الآن . ولم يتح لي أي وقت لأغتسل ، إن « ميشيل » قادم الليلة .

ـ حسناً ، تعالي نتناول طعام العشاء معاً ، ثم نذهب لاستقباله سوية .

ـ عليّ أن أغتسل .

ـ أوه ، تعالي .

ـ يجب أن أغتسل ، إنه لا يصل إلا في التاسعة .

ـ تعالي إذن . لنشرب معاً شيئاً ما ، قبل أن تغتسلي .

ـ هذا ممكن ، إنك تتكلم ، الآن ، كلاماً معقولاً .
وركبنا سيارة تاكسي ، والتفت السائق نحونا . فقلت له :
ـ قف بنا أمام أول مشرب .
وقالت « بريت » :
ـ ولعله من الأفضل أن نذهب الى (الكلوزوري) فلا أستطيع أن أشرب هذه البراندي الرديئة هنا .
ـ الى (الكلوزوري دي ليلاس) .
والتفتت « بريت » نحو « بيل » وقالت :
ـ هل مضى عليك زمن طويل في هذه المدينة الطاعونية ؟
ـ لقد وصلت من (بودابست) ، اليوم .
ـ كيف وجدت (بودابست) ؟
ـ رائعة ، كانت (بودابست) رائعة .
ـ سليه إذن عن حال (فيينا) .
وقال « بيل » :
ـ إن (فيينا) مدينة عجيبة .
ـ إنها تماثل (باريس) تماماً .
وابتسمت له وهي تغمز بعينيها .
وقال « بيل » :
ـ تماماً . إنها تماثل (باريس) حالياً .
ـ إنها بداية جيدة .
ولما اتخذنا مجلسنا فوق سطحية مشرب (الليلاس) طلبت « بريت » كأس ويسكي بالصودا ، وأخذت مثلها . وتناول « بيل » قدح برنود .
ـ كيف حالك يا « جاك » ؟
قلت :
ـ جيدة ، لقد مر علي وقت طيب .

ورنت إلي « بريت » وقالت :

ـ كنت أتحرق شوقاً الى السفر . إن من يغادر (باريس) لهو حمار .

ـ هل تمتعت بوقت طيب هناك ؟

ـ أوه . لا بأس . كان ذلك مشوقاً . دون أن يكون مسلياً بصورة مذهلة .

ـ هل اجتمعت بأحد ؟

ـ لا . لم أجتمع بأي إنسان . لم أكن أخرج البتة .

ـ ألم تسبحي ؟

ـ لا ، لم أفعل شيئاً .

وقال « بيل » :

ـ إن هذا لأشبه بـ(فيينا) .

وغمزت « بريت » بطرف عينها .

ـ إذن ؟ فالحال هكذا في (فيينا) .

ـ إنها تماثل كل شيء في (فيينا) .

وابتسمت له « بريت » ثانية .

ـ إن لك رفيقاً لطيفاً يا « جاك » .

وقلت :

ـ لا بأس به . إنه محنط حيوانات .

وقال « بيل » :

ـ كان ذلك في بلد آخر ، أضف الى ذلك أن حيواناته كلها كانت ميتة .

وقالت « بريت » :

ـ كأساً أخرى ، ثم أمضي سريعاً ، ابعث بالنادل ليبحث عن سيارة تاكسي .

ـ ثمة رتل طويل من السيارات قبالتنا تماماً .

ـ حسناً .

وشربنا ما في كؤوسنا . وأركبنا « بريت » في سيارة التاكسي .

وقالت «بريت» لـ«بيل» :

ـ احرصا على أن تقدما الى (السيليكت) حوالي الساعة العاشرة ، واحمله على المجيء . سيكون «ميشيل» هناك .

وقال «بيل» :

ـ سنكون هناك .

ومضت سيارة التاكسي . ولوّحت «بريت» بيدها ، وقال «بيل» :

ـ إنها فتاة كاملة غاية في اللطف . من هو «ميشيل» ؟

ـ إنه الرجل الذي تنوي أن تتزوجه .

ـ حسناً ، حسناً ، إنني في مثل هذا المجال ، تتوثق معرفتي بالناس ، ماذا سأبعث إليهما ؟ هل تظن أنهما يرغبان في جوادي سباق محنطين ؟

ـ من الأفضل أن نتعشى .

وسألني «بيل» ونحن في سيارة التاكسي التي كانت تسعى بنا الى جزيرة (سان لويس) :

ـ هل هي لادي حقيقية ؟ أو شيء آخر ؟

ـ أوه ، أجل ، إنها مذكورة في سجل الأجواد .

ـ حسناً ، حسناً .

وتناولنا طعام العشاء في مطعم السيدة «لوكونت» القائم في أقصى طرف من الجزيرة . وكان يعج بالأميركيين ، فكان علينا أن ننتظر ، واقفين ، قبل أن نعثر على محلات .

لقد نوه أحدهم بهذا المطعم في دليل النادي النسائي الأمريكي . وأشار الى أنه أكثر مطاعم (باريس) طرافة ، وكان من قبل مجهولاً من الأمريكيين .

وهكذا ، فقد كان علينا أن ننتظر خمساً وأربعين دقيقة قبل أن تفرُغ طاولة . لقد تناول «بيل» الطعام في هذا المطعم عام ١٩١٨ ، وعقيب إعلان الهدنة .

واستقبلته السيدة «لوكونت» بترحيب صاخب حين رأته .

ـ إن ترحيبها لا يتيح لنا ، مع ذلك ، طاولة . ولكنها ، على أي حال ، امرأة طيبة .

وطعمنا عشاء جيداً : دجاجة مقلية ، وفاصولياء ، وهريس البطاطا ووليفة تفاح وجبناً .

وقال « بيل » للسيدة « لوكونت » :

ـ لقد ضممت العالم كله ، لديك ، هنا .

ورفعت يدها وقالت :

ـ أوه يا إلهي .

ـ ستصبحين امرأة غنية .

ـ آمل ذلك .

وبعد أن ارتشفنا القهوة ، قدم إلينا الحساب مكتوباً ، كما هي العادة في هذا المطعم ، على لوح (إنها ، لا شك ، إحدى طرائف هذا المطعم المنوّه به في الدليل) وسددنا الحساب ، وصافحنا صاحبة المطعم وتهيأنا للذهاب . وقالت السيدة « لوكونت » :

ـ إنك لا تأتي الى هنا أبداً يا سيد « بارنس » .

ـ يوجد هنا كثير من مواطنيّ .

ـ تعال لتناول طعام الغداء ، هنا ، فلا يوجد في هذا الوقت كثير من الناس .

ـ حسناً سآتي قريباً .

وتمشينا تحت أغصان الأشجار الحانية فوق النهر ، على ضفة (أورليان) من الجزيرة . وتراءت ، عبر النهر على الضفة المقابلة ، جوانب جدران من بيوت قديمة متهدمة .

ـ سوف يمد هناك شارع .

وقال « بيل » :

ـ طبعاً .

وتابعنا السير ، فدرنا حول الجزيرة ، وكان النهر مظلماً . ومر قارب صغير يتلألأ بالأضواء ويسعى في سرعة وصمت ، ثم توارى عن النهر تحت الجسر . وكانت كنيسة (نوتردام) تبدو في سافلة النهر ، مقعية قبالة السماء الحالكة . واتخذنا أدراجنا الى ضفة (السين) اليسرى ، من رصيف (بيتون) . ومضينا فوق جسر خشبي ، فتوقفنا في منتصفه ، وحدرنا النظر الى النهر ، في اتجاه (نوتردام) . ومن مكاننا على الجسر حيث كنا نقف ، تراءت لنا الجزيرة سوداء وظهرت البيوت سامقة ذاهبة في الفضاء . وبدت الأشجار كأنها الأشباح .

وقال « بيل » :

- إنه لرائع ساحر! يا إلهي . كم أود أن أعود الى هنا .

واستندنا الى الحاجز الخشبي ، وسرّحنا النظر في اتجاه منطلق النهر الى أضواء الجسور الكبرى وكان ماء النهر ، يترقرق ، من أسفل ، مليساً أسود . لم يكن يخلص منه ، وهو ينساب بين عمد الجسر أي صوت . ومر بنا رجل وفتاة كانا يسيران وذراع كل منهما تطوق خصر الآخر .

وعبرنا الجسر ، وسلكنا شارع (الكردينال لوموان) وكانت الطريق صاعدة ، وواصلنا السير حتى ساحة (كونتر سكارب) ، وكانت المصابيح المقوّسة تتلألأ من ثنايا أغصان الأشجار . وتحت أفرع شجرة ، كان يقف أوتوبوس ذو الحرف (S) متحفزاً للسير . كانت تهفو موسيقى من باب حانة (الزنجي المرح) ، ورأيت من خلال نافذة مقهى (الأماتور) المشرب التوتيائي الطويل . وكان على السطيحة ، في الخارج ، عمال يشربون ، وفي داخل مطبخ (الأماتور) المفتوح ، بدت فتاة تقلي البطاطا ، في الزيت ، وكان ثمة قدر حديدي من اليخنة ، وكانت الفتاة تغرف منه وتملأ صحن رجل هرم كان ينتظر واقفاً ويده ممسكة بزجاجة حمراء .

- هل تود أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال « بيل » :

ـ لا ، لا أشعر بظمأ الى الشراب .

وغادرنا ساحة (كونتر سكارب) من طرفها الأيمن ، وسرنا في شوارع ضيقة هادئة توزعت على أطرافها دور قديمة منيفة . كان بعض هذه الدور يبرز متقدماً ، على استقامة الشارع ، ويبدو بعضها متأخراً ، وأفضينا الى شارع (يودوفير) ، وتابعنا السير فيه حتى شمال شارع (سان جاك) ثم انحدرنا في اتجاه الجنوب ، مارين بـ(الفال دوغراس) القائم خلف باحة وسور حديدي ، حتى وصلنا الى شارع (بور رويال) .

وسألت :

ـ ماذا تود أن تفعل ؟ أتود أن نذهب الى المقهى لنرى « بريت » و« مايك » ؟

ـ ولم لا ؟

ومشينا في شارع (بور رويال) حتى المكان الذي يحور فيه الى شارع (المونبارناس) . ومررنا بمقهى (الليلاس) فـ(لافيني) فكل المقاهي الصغيرة فمقهى (داموي) ثم عبرنا الشارع الى (الروتوند) وجاوزنا أضواءه وطاولاته لنصل الى (السيليكت) .

واندفع نحونا « مايك » من بين الطاولات ، وكان يبدو برونزي السحنة وافر الصحة .

ـ هالو ، هالو ، « جاك » ، كيف حالك يا عزيزي ؟

ـ إنك تبدو ، في صحة جيدة يا « مايك » .

ـ أتمتع بصحة جيدة الى درجة مخيفة ، إنني لا أفعل شيئاً سوى المشي ، المشي ، طول النهار ، ولا أشرب الشاي إلا مرة واحدة مع أمي .

وكان « بيل » قد ذهب الى المشرب ، وكان يتحدث الى « بريت » وهي جالسة على مقعد صغير ، واضعة ساقاً على ساق ، دون أن تلبس جوربيها .

وقال « ميشيل » :

ـ إنني سعيد برؤيتك يا « جاك » أنا سكران ، بعض الشيء ، كما تعلم .

إنه لشيء عجاب ، أليس كذلك ؟ أرأيت الى أنفي ؟

وكان يظهر على أرنبة أنفه ندبة .

ـ لقد أحدث هذا الخمش حقائب سيدة عجوز كنت أحاول أن أساعدها على إنزال الحقائب ، فسقطت علي .

وأشارت إليه «بريت» بفم دخينتها وغمزت بعينها . واستطرد مايك يقول :

ـ امرأة عجوز ، سقطت حقائبها علي . هلم ندخل ، لنرى «بريت» ، يا لها من امرأة! «بريت»! أنت امرأة فاتنة ، أين عثرت على هذه القبعة ؟

ـ شراها لي شخص ، ألا تروق لك ؟

ـ إنها قبعة مخيفة ، هلا اشتريت قبعة مناسبة لك .

وقالت «بريت» :

ـ ايه ، لدينا الآن نقود جمة . بالمناسبة ، ألم تتعرف على «بيل» حتى الآن ؟ إنك ، في الحق ، لمضيف مثالي يا «جاك» .

والتفتت نحو «مايك» وقالت :

ـ أقدم لك «بيل غورتون» وهذا العربيد : إنه «مايك كاميبيل» . والسيد «كاميبيل» مفلس دائم .

ـ أأنا كذلك ؟ إنك تعلمين بأنني التقيت بشريكي السابق ، أمس ، في (لندن) ، وهو الذي دفع أجرة منامي .

ـ ماذا قال لك ؟

ـ لقد دفع عني ثمن المشروب . وقد رأيت من المناسب أن أقبل ، إنك يا «بريت» في الحق امرأة فاتنة . ألا تجدها جميلة ؟

ـ جميلة! مع هذا الأنف!

ـ على رسلك ، إنه أنف رائع ، هل لك أن تديريه نحوي... إنها فاتنة .

ـ أفما كان بالإمكان ترك هذا الرجل في اسكتلندا!

ـ هيه ، «بريت» ، ينبغي أن نفيء الى النوم مبكرين .

ـ لا تكن بذيئاً يا « ميشيل » ، لا تنس أن في المشرب سيدات .

ـ إنها فاتنة ، ألا تجدها كذلك يا « جاك » ؟

وقال « بيل » :

ـ توجد حفلة ملاكمة ، هذا المساء . فهل لك أن تذهب إليها ؟

وقال « مايك » :

ـ ملاكمة! من الذي سيلاكم ؟

ـ « لودو » وشخص آخر .

وقال « مايك » :

ـ إن « لودو » ملاكم جيد . كم أود أن أشاهده (وكان يبذل جهداً ليتماسك) ولكنني لا أستطيع ، لدي موعد مع هذه . اصغي إلي يا « بريت » . اشتري قبعة جديدة أخرى .

وجذبت « بريت » قبعتها اللبادية الى أسفل حتى غطت عيناً ، وابتسمت من تحت القبعة وقالت :

ـ اذهبا كلاكما لمشاهدة حفلة الملاكمة . أما أنا ، فيتعين علي أن أعود رأساً بالسيد « كامبيبل » الى البيت .

وقال « مايك » :

ـ لست سكران ، لعلي أن أكون سكران بعض الشيء ، حقاً يا « بريت » . إنك لفاتنة . وقالت « بريت » :

ـ اذهبا لمشاهدة الحفلة! لقد غدا السيد « كامبيبل » صعباً . ماذا تعني هذه العواطف المتدفقة المفاجئة يا « مايك » ؟

ـ يا لك من امرأة فاتنة حقاً!

وتمنيا لهما ليلة سعيدة . وقال « مايك » :

ـ آسف . إنني لا أستطيع مرافقتكما .

وأغربت « بريت » في الضحك .

والتفت نحو الباب . كان « مايك » يتحدث الى « بريت » وهو منحن .

ويده على الخوان ، فيما كانت « بريت » تنظر إليه ، في فتور ، ولكن طرفي عينيها كانا يبتسمان .

وقلت ونحن على الرصيف في الخارج :

ـ هل تود الذهاب الى حفلة الملاكمة ؟

فأجاب « بيل » :

ـ طبعاً! إلا إذا كان علينا أن نذهب مشياً .

وقلت ونحن في سيارة التاكسي :

ـ إن « مايك » يبدو متوفز الأعصاب هائجاً مع صديقته الصغيرة .

وقال « بيل » :

ـ هيه . ولكن ، ليس في وسعك أن تلومه على ذلك أبداً .

الفَصلُ التَاسِعُ

جرت حفلة الملاكمة بين «لودو» و«كيد فرانسيس» مساء ٢٠ حزيران ، وكانت حفلة ملاكمة ناجحة . وتلقيت في اليوم التالي ، رسالة من «روبرت كون» بعث بها إلي من (هنداي) وذكر فيها أنه يتمتع بحياة هادئة ، فيسبح ويلعب الغولف ، قليلاً ، والبريدج كثيراً ، وأن شاطئ (هنداي) جميل ، ولكنه يتحرق شوقاً الى رحلة صيد سمك . ويسألني متى سأذهب ليلحق بي ، ويطلب إليّ أن أشتري له عصا سماك ذات قصبتين وسيسدد ثمنها إلي ، حين قدومي .

وفي الصباح ، سطرت ، في مكتبي ، رسالة الى «كون» . وذكرت له أنني مسافر أنا و«بيل» من (باريس) في ٢٥ من هذا الشهر ، إلا إذا وصله مني إعلام مخالف لذلك ، وأننا سنلتقي به في (بايون) حين نستقل الأوتوبوس للذهاب الى (بايبرنه) ، بطريق الجبال .

وفي مساء اليوم نفسه توقفت بالسيارة أما (السيليكت) حوالي الساعة السابعة ، لأرى «ميشيل» و«بريت» فلم أجدهما ، ومضيت الى (الدينكو) فألفيتهما في المشرب .

وقالت «بريت» مادة يدها إلي :

ـ هالو... يا عزيزي .

وقال «مايك» :

ـ هالو « جاك » ، في الظاهر إنني كنت ثملاً جداً ، مساء أمس .
وقالت « بريت » :
ـ وأي ثمل! إنه لشيء معيب .
وقال « مايك » :
ـ اسمع ، متى ستذهب الى اسبانيا ؟ ألا يضايقك كثيراً إذا ذهبنا سوية ؟
ـ إنه لشيء ممتع لي .
ـ ألا يضايقك حقاً ؟ لقد كنت في (باميلونه) . أتعلم ذلك ؟ إن « بريت » تحن رغبة في الذهاب الى هناك . أأنت متأكد بأننا لن نضايقك ؟
ـ لا تفه بهذا الهراء .
ـ إنني ثمل بعض الشيء ، كما تعلم ، ولولا ذلك لما طلبت إليك ذلك .
وقالت « بريت » :
ـ ايه . صه يا « ميشيل »! كيف يكون في وسع الرجل أن يقول لك الآن إن هذا يضايقه ، سأطلب إليه إبداء رأيه فيما بعد .
ـ ولكن . أحقاً أن هذا لن يضايقك ؟
ـ إياك أن تطلب إلي ذلك كرة أخرى ، إذا كنت تريد مني ألا أستاء . سوف أسافر مع « بيل » صباح الخامس والعشرين من هذا الشهر .
وسألت « بريت » :
ـ بهذه المناسبة ، أين « بيل » ؟
ـ لقد ذهب لتناول طعام العشاء مع بعض الأشخاص في (شانتيي) .
ـ إنه رجل لطيف .
وقال « مايك » :
ـ إنه شخص رائع ، أليس كذلك ؟
وقالت « بريت » :
ـ إنك لا تتذكره .
ـ بلى . إنني أتذكره جيداً . اسمع يا « جاك » : سوف نسافر في مساء

الخامس والعشرين ، فليس في استطاعة «بريت» أن تستيقظ مبكرة .

ـ في الحقيقة لا أستطيع أن أستيقظ مبكرة .

ـ وذلك إن وصلت نقودنا وكنت واثقاً بأننا لن نضايقك .

ـ سوف تصل . وسوف أهتم في تأمينها .

ـ قل لي ماذا يتعين علي أن آخذ معي ؟

ـ خذ معك قبعتين أو ثلاث قبعات بملفاف ، وقبعات أخرى . وبعض الذباب .

وقالت «بريت» :

ـ أنا لن أصيد .

ـ إذن خذ معك قصبتين . ولن يكون «بيل» بحاجة الى شراء قصبة .

وقال «مايك» :

ـ حسناً ، سوف أبعث ببرقية الى وكيلي .

وقالت «بريت» :

ـ يا لسحر المناظر! اسبانيا ، سوف لن نمل هناك أبداً .

ـ الخامس والعشرون ، أي يوم يصادف ؟

ـ يوم السبت .

ـ علينا أن نكون متهيئين .

وقال «مايك» :

ـ مهلاً ، أنا ذاهب الى الحلاق .

وقالت «بريت» :

ـ وأنا ذاهبة الى الحمام ، «جاك» كن إنساناً طيباً ورافقني الى الفندق .

وقال «مايك» :

ـ لقد نزلنا في فندق مدهش ، أحسب أنه مكان بغاء .

ـ حين وصلنا ، تركنا حقائبنا ، في (الدينغو) وقد سألونا ، ثمة ، عما إذا كنا نرغب في غرفة لقضاء الظهيرة فحسب ، وبدا عليهم الارتياح حين

عرفوا أننا سنقضي فيها الليل كله .

وقال « مايك » :

ـ أعتقد بأنه مكان بغاء ، كان علي أن أعرف .

ـ أوه ، اسكت وامض لحلق شعرك .

وذهب « مايك » ومكثت أنا و« بريت » في المشرب . وقالت :

ـ هلا شربنا كأساً أخرى .

ـ حسناً .

وقالت « بريت » :

ـ أشعر بظمأ إلى الشرب .

ومشيا صُعداً ، في شارع (دولامبر) .

وقالت « بريت » :

ـ لم أرك منذ عودتي .

ـ لا .

ـ كيف حالك يا « جاك » ؟

ـ جيدة .

ورنت « بريت » إلي وقالت :

ـ هل سيشترك « روبرت كون » في هذه الرحلة ؟

ـ أجل ، لماذا ؟

ـ ألا تعتقد بأن ذلك سيكون مؤلماً له بعض الشيء ؟

ـ ولماذا يكون ذلك مؤلماً له ؟

ـ مع أي شخص تحسب أنني سافرت الى (سان سيباستيان) ؟

ـ تهنئتي الخالصة .

وكنا لا نأتلي نسير . وقالت :

ـ لماذا قلت هذا ؟

ـ لا أدري . ماذا كنت تودين أن أقول ؟

وظللنا نسير ، ثم انعطفنا الى شارع آخر .

ـ لقد كان مسلكه معي حسناً ، غير أنه يضحي ، أحياناً ، مملاً بعض الشيء .

ـ حقاً ؟

ـ اعتقدت بأن صحبتي له قد تنفعه وتفيده .

ـ أرى أنك قد تكرسين نفسك للخدمة العامة .

ـ لا تكن قذراً .

ـ لا تخافي .

ـ ألم تكن تعلم ذلك ، حقاً ؟

وقلت :

ـ لا ، لم يدر ذلك في خلدي البتة .

ـ والآن ، ألا تخشى أن يكون وجوده معنا مؤلماً له ؟

ـ هذا يخصه وحده ، قولي له إنك ستذهبين ، إن في ميسوره دوماً ألا يأتي .

ـ سأكتب له ، لأفسح له المجال بأن يتجنب ذلك .

ولم أر « بريت » ، بعدئذ ، إلا مساء ٢٤ حزيران (يونيو) ، وسألتها :

ـ هل تناهى إليك خبر ما من « كون » ؟

ـ يبدو أنه مغتبط جداً .

ـ يا إلهي .

ـ أنا أيضاً وجدت ذلك عجباً ، إنه يقول في رسالته إنه لا يطيق الانتظار مشوقاً الى رؤيتي .

ـ تُراك ذكرت له أنك قادمة وحدك .

ـ لا ، لقد جلوت له أننا سنكون جميعاً ، « ميشيل » والآخرون .

ـ إنه لرائع!

ـ أليس كذلك ؟

وكانا ينتظران ورود النقود في الغد ، واتّعدنا أن نجتمع في (بامبليونه) ، فيذهبا رأساً الى (سان سيباستيان) ويغادراها بالقطار . وكان علينا أن نلتقي في فندق (مونتويا) في (بامبيلونه) . فإذا لم يصلا يوم الاثنين ـ على أبعد تقدير ـ فإننا سوف نسبقهما في السفر الى (بورغيت) في الجبل ، لنبدأ الصيد . وكان ثمة أوتوبوس يذهب الى (بورغيت) . ووضعت لهما مخططاً للسفر يعينهما على اللحاق بنا .

وركبت مع «بيل» قطار الصباح ، من محطة (أورسي) وكان الجو ماتعاً معتدل الحرارة . وتجلى لنا الريف في رونقه منذ بدء جلستنا .

وقعدنا في حجرة المطعم ، فتناولنا طعام الفطور . وفيما كنت خارجاً من حجرة المطعم ، طلبت إلى المستخدم بطاقتين لأول دور من تقديم وجبات طعام الغداء .

ـ لا يوجد محلات قبل الدور الخامس .

ـ وكيف ؟

وكنت أعلم أنه لم يكن في هذا القطار أكثر من دورين لتقديم طعام الغداء ، وكانت أكثر المحلات مع ذلك ، خالية ، في هذين الدورين .

وقال المستخدم :

ـ كل المحلات محجوزة يا سيدي ، وسيكون وقت الدور الخامس في الساعة الثالثة والنصف .

وقلت لـ« بيل» :

ـ لقد أضحى الأمر جدياً .

ـ أعطه عشرة فرنكات .

وقلت :

ـ خذ هذا ، نود أن نتناول طعام الغداء في الدور الأول .

ودسّ المستخدم الفرنكات العشرة في جيبه وقال :

ـ شكرا يا سيدي . أنصحكما بأخذ قطار (ساندوتش) . إن جميع

المحلات في الأدوار الأربعة قد حجزت من قبل ، في مكتب الشركة . وخاطبه « بيل » بالانكليزية :

ـ أنت تسلك طريقاً طويلاً يا أخي ، أحسب لو أننا أعطيناك مئة فرنك لنصحتنا بأن نقفز من باب القطار الى الخارج .

وأجاب المستخدم بالفرنسية :

ـ Comment كيف ؟

وتابع « بيل » :

ـ اذهب الى الجحيم ، اذهب وأحضر لنا فطائر (الساندوتش) وزجاجة خمر . اطلب ذلك يا « جاك » .

ـ واجلب لنا ذلك الى حجرة القطار المجاورة .

وأشرت الى حجرتنا .

وكان يجلس في حجرتنا من القطار ، رجل وزوجته وابنهما الصغير .

وسألنا الرجل :

ـ أنتما أمريكيان . أليس كذلك ؟ هل تقومان برحلة ممتعة ؟

وقال « بيل » :

ـ رائعة .

ـ هذا ما ينبغي أن يقوم به الإنسان : أن يسيح وهو لايزال في ريِّق صباه . كنت أتمنى أنا وزوجتي دائماً أن نسافر الى أوربا ، ولكن كان علينا أن ننتظر بعض الشيء .

وقالت زوجته :

ـ كان في ميسورك أن تأتي منذ عشر سنوات لو أنك كنت ترغب في ذلك حقاً . بيد أنك كنت لا تني تردد دوماً : «لنر أمريكا أولاً» . إن في وسعي أن أقول إننا شاهدنا قدراً كبيراً من الأشياء ، على أي حال .

وقال الزوج :

ـ إيه ، إن في هذا القطار كثيراً من الأمريكيين . لقد غصت بهم سبع

حجرات من القطار ، إنهم من (دايتون) ، (أوهيو) ، وهم عائدون من حجهم في روما . وذاهبون الى (بياريتز) و(لورد) .

وقال « بيل » :

ـ هكذا ؟ إنهم حجاج ، يا للمطهرين المقدسين!

ـ من أي إقليم من الولايات المتحدة أنتما أيها الشابان ؟

وقلت :

ـ أنا من (كانساس سيتي) وهو من (شيكاغو) .

ـ أتذهبان الى (بياريتز) ؟

ـ لا ، نحن ذاهبان الى اسبانيا ، لصيد السمك .

ـ صيد السمك ؟ إنني لم أهتم به البتة . ومع ذلك ، فإن الناس مشغوفون بالصيد ، هناك ، في البلد الذي جئت منه . إن ولاية (مونتانا) مشهورة بصيد السمك . وقد ذهبت إليها مع الرفاق ، ولكنني لم أهو الصيد أبداً .

وقالت السيدة :

ـ في الواقع ، إنك لم تفرغ للصيد ، في تلك الرحلة .

وطرف بعينه وقال :

ـ إنكما تعرفان من أي جبلة فطرت النساء . فإما جلبت لنا زجاجة أو ظفرنا بصندوق بيرة ، حسبن أن ذلك جحيم ولعنة .

وقالت لنا السيدة :

ـ هكذا هم الرجال (وملّست ثوبها على ركبتيها) . لقد صوتُّ ضد قانون تحريم الخمر لأسرّه بذلك . ولأنني أود أن يكون في البيت قليل من البيرة فأصغوا إليه الآن وهو يتكلم . إنني أسائل نفسي كيف يعثرون على من يرضين الزواج بهم .

وقال « بيل » :

ـ ألا تعلمان أن هذه العصابة من الآباء والحجاج قد استولت على حجرة المطعم حتى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر .

ـ ماذا تعني ؟ لا يمكن أن يفعلوا شيئاً مثل هذا .

ـ حاول أن تجد محلات .

ـ في هذه الحال ، يا أم ، يخيل إلي أنه من الأفضل أن نعود لنتناول طعام الفطور مرة ثانية .

ـ هل تسمحان أيها الشابان ، بأن تراعيا بنظركما ، حقائبنا ؟ هلم ، تعال يا « هوبير » .

ومضى ثلاثتهم الى مطعم القطار . وبعد ذهابهم بأمد قصير ، أقبل النادل معلناً عن الدور الأول من تقديم وجبة الغداء . وتدافع الحجاج مع رهبانهم الى الممر ، ولم يرجع صديقنا مع أسرته . وجاز الممر نادل يحمل إلينا فطائر (السندوتش) وزجاجة من خمر (الشابلي) فناديناه . وقلت له :

ـ أمامك عمل متصل ، اليوم .

وهز رأسه وقال :

ـ لقد بدأ العمل ، منذ الآن ، في الساعة العاشرة والنصف .

ـ ومتى سنأكل نحن ؟

ـ هممم . وأنا ، متى تظنان أنني سآكل ؟

ووضع لنا قدحين مع الزجاجة ، ودفعنا له ثمن فطائر (السندوتش) ومنحناه رضيخة[١] فقال :

ـ سآتي لأخذ الصحون . إن في ميسوركما جلبها معكما .

والتهمنا فطائر (السندوتش) وشربنا زجاجة (الشابلي) وجعلنا نتأمل في مجالي الطبيعة من النافذة . وكان القمح قد استوفى نضجه وبدت الحقول مكسوة بزهر المنثور وتراءت المراعي مخضرة . وكان ثمة أشجار جميلة ، وكانت تظهر ، أحياناً ، أنهار كبيرة منسابة ، وتتبدى قصور من فوق عذبات أغصان الأشجار .

---

(١) الرضيخة : العطاء القليل وهو يقارب معنى البقشيش . (المعرب)

وفي مدينة (تور) نزلنا نشتري زجاجة خمر أخرى . ولما صعدنا الى حجرتنا في القطار ، ألفينا السيد القادم من (مونتانا) مع زوجته وابنه « هوبير » جالسين في دعة .

وسأل « هوبير » :

ـ تُرى أتوجد مسابح جيدة في (بياريتز) ؟

وقالت أمه :

ـ ليس في وسع هذا الطفل أن يهدأ حتى يظفر بالماء . إنه ليشق على هذا الجيل أن يتمتع بالسباحة .

وقلت :

ـ توجد مسابح جيدة جداً ، ولكنها لا تخلو من خطر حين يسوء الجو .

وسأل « بيل » :

ـ هل تمكنتم من تناول الطعام ؟

ـ طبعاً ، ولم نغادر أمكنتنا حين بدأوا يفدون ، لا ريب أنهم حسبوا أننا من ضمن الجماعة ، فقد خاطبنا أحد النُدُل بالفرنسية ، بكلام ما ، وأعادوا ثلاثة من القادمين .

وقال الرجل :

ـ لقد حسبوا بأننا منهم . إن هذا ليثبت سلطان الكنيسة الكاثوليكية . إنه لمن المؤسف ألا تكونا كاثوليكيين ، أيها الشابان . فلو كنتما كاثوليكيين لتيسر لكما تناول طعام الغداء .

وقلت :

ـ إنني كاثوليكي ، وهذا هو بالضبط ما يثير استيائي .

وتمكنا ، أخيراً ، من تناول طعام الغداء في الساعة الرابعة والربع ، وأضحى « بيل » على الجملة ، مضايقاً . فقد أمسك بطرف مِسحِ راهب عائد مع نفر من الحجاج وقال له :

ـ متى تسنح لنا ، نحن البروتستانتيين ، فرصة بأن نأكل ؟

ـ لا أدري . ألم تحصل على بطاقة ؟

وقال « بيل » :

ـ إن هذا وحده كاف لأن يحمل المرء على الانخراط في عصابة (الكوكلوكس كلان) .

ورشقه الراهب بنظرة ، وهو يتحول عنه .

وفي مطعم القطار ، كان الندُل يعدون الدور الخامس لتقديم الطعام ، وكان النادل الذي يخدمنا ، ينتضح العرق منه غزيراً . وبدت سترته البيضاء ، ذات لون بنفسجي تحت الذراعين .

ـ لابد أنه يشرب مقداراً وافياً من الخمر .

ـ لعله يرتدي قميصاً بنفسجياً من الصوف .

ـ هلا استوضحنا منه ؟

ـ دعه ، إنه يبدو متعباً .

وتوقف القطار نصف ساعة في (بوردو) ، وخرجنا من القطار لنقوم بجولة صغيرة ، ولكن لم ينفسح لنا الوقت لنذهب حتى المدينة .

وجاز بنا القطار (الآند) ، وجعلنا نتأمل في مغرب الشمس ، وكانت تبدو بين أشجار الصنوبر فجوات عريضة خلفتها الحرائق فكأنها الشوارع الوسيعة ، وكانت تتراءى في نهاياتها ربى مشجرة .

وحوالي الساعة السابعة والنصف تعشينا فيما كنا نجيل أبصارنا في مناظر الطبيعة من النافذة المشرعة .

وامتدت أمامنا منطقة مرملة ، محرجة بالصنوبر ومكسوة بنبات الخلنج . وكان ثمة مساحات صغيرة تتوسطها الدور .

وجزنا بعد أمد قصير منشر خشب . وأرخى الليل سدوله ؛ وكان في مكنتنا أن نشعر بأن المنطقة حارة ، رملية ، مظلمة ، من خلف زجاج النافذة . وكانت الساعة تقارب التاسعة ، حين وصلنا الى (بايون) . وصافحنا الرجل وزوجته و« هوبير » ، مودعين ، فقد كان عليهم أن يبقوا ويتابعوا السفر الى (نيغريس)

حيث يستبدلون بهذا القطار ، القطار الذاهب الى (بياريتز) . وقال الرجل :

ـ حسناً ، أتمنى لكما حظاً طيباً .

ـ خذوا حذركم من الثيران .

وقال « هوبير » :

ـ لعلنا نلتقي بكما في (بياريتز) .

ونزلنا مع حقائبنا ، وقصباتنا ، ومضينا في محطة معتمة حتى أفضينا الى الأضواء ، الى صف من سيارات التاكسي وأوتوبوسات الفنادق . وكان يقف هناك « روبرت كون » في حلقة من أدلاء الفنادق . ولم يلمحنا أول الأمر ثم سعى إلينا .

ـ هالو « جاك » ، تراك قمت برحلة ممتعة ؟

وقلت :

ـ ممتازة ، أقدم لك « بيل غورتون » .

ـ أهلاً بك .

وقال « روبرت » :

ـ تعال . لدي مركبة .

وبدا لي ضعيف البصر ، بعض الشيء . ولم ألمح ذلك من قبل . وكان ينظر الى « بيل » متفرساً في محياه ، وخيل إلي ، أنه خجول .

ـ سنمضي الى فندقي فهو جيد ومناسب جداً .

وصعدنا المركبة ، ووضع الحوذي الحقائب فوق مقعد الى جانبه ، وعلا مركبته وفرقع سوطه ، وجاز بنا الجسر المعتم ثم دخلنا المدينة .

وقال « روبرت » لـ« بيل » :

ـ إنني سعيد جداً بالتعرف عليك . كان « جاك » يتحدث إلي دوماً عنك ، كما أنني قرأت كتبك . هل جلبت لي قصبة الصيد يا « جاك » ؟

وتوقفت المركبة قبالة الفندق ، وهبطنا ، ودلفنا الى الفندق .

وكان فندقاً لطيفاً جداً ، وكان موظفو مكتب الفندق ظاهري البشاشة ، وقد أعطوا كل واحد منا غرفة صغيرة جيدة .

الفَصلُ العَاشر

وفي الصباح كانت السماء صافية ، وكانت شوارع المدينة ترش بالماء . وتناولنا نحن الثلاثة طعام الفطور في مقهى .

إن (بايون) مدينة جميلة تشبه مدينة اسبانية نظيفة جداً ، وتقع على سيف نهر كبير . ورغم الصباح الباكر ، فقد كان الحر قائظاً على الجسر الممتد فوق النهر ، ومشينا فوق الجسر ثم قمنا بجولة في المدينة .

ولم أكن متأكداً من أن قصبات صيد « مايك » ستوافيه من (اسكتلندا) في حينه ، فجعلنا نبحث في مخزن أدوات الصيد . وتمكنا ، بعد لأي ، من شراء قصبة لـ« بيل » في دكان قائمة فوق مخزن أقمشة . وكان البائع حين دخلنا غائباً ، فكان علينا أن ننتظر عودته . وآب أخيراً ، واشترينا بثمن بخس قصبة جيدة وشبكتين لصيد السمك .

وخرجنا الى الشارع حيث ألقينا نظرة على الكنيسة . ولاحظ « كون » أنها نموذج رائع لشيء ما ، لم أعد أذكره ، على أنها كانت تتبدى لي كنيسة جميلة ، جميلة ومعتمة ، كالكنائس الاسبانية . ثم مشينا صعداً فمررنا بالقلعة القديمة ، حتى وصلنا الى مقر نقابة المشروعات ، حيث كان يتعين على الأوتوبوسات أن تنطلق . وقيل لنا ، هناك ، إن سيرها لن يبدأ قبل أول تموز (يوليو) . وفي مكتب السياحة ذكر لنا أن علينا أن نستأجر سيارة إن شئنا الذهاب الى (بابيلونة) . واستأجرت بأربعمئة فرنك سيارة من كراج كبير قائم

في ركن من مبنى المسرح البلدي . وكان على السيارة أن تقدم لنقلنا من الفندق بعد أربعين دقيقة .

وتوقّفنا في مقهى الساحة الذي طعمنا فيه صباحاً ، وشربنا بيرة . وكان الجوّ حاراً ، بيد أنّ المدينة كانت عابقة بشذا صباحي رطيب . وكان الجلوس في المقهى ممتعاً ، إذ هيمن نسيم عليل . كان في ميسورك أن تشعر أنه يهب من البحر ، وكانت في الساحة طيور الحمام ، وبدت البيوت متّشحة بلون أصفر ملوّح بأشعة الشمس . ولم أكن أحبّ مغادرة المقهى ، لولا أنه كان علينا أن نذهب الى الفندق لنحزم حقائبنا ونسدّد أجرة إقامتنا . وأجرينا القرعة على من يدفع ثمن البيرة ، وأحسب أن « كون » هو الذي دفع ، ثمّ عدنا الى الفندق . ولم تكن الأجرة تتجاوز ستّة عشر فرنكاً ، دفعها كلٌّ منّا ، أنا و« بيل » ، يضاف اليها ستة بالمائة لقاء الخدمة .

وانزلنا حقائبنا ، وانتظرنا « روبرت كون » . وفيما كنّا ننتظر ، بصرت بحشرة بنت وردان[١] على الأرض الخشبية ، وكان طولها ثلاث إنشات[٢] تقريباً ، وأريتها لـ« بيل » قبل أن أدوسها بقدمي . وقد قدّرتها أنها دخلت من الحديقة فقد كان الفندق ، في الحق ، غاية في النظافة .

وأقبل « كون » أخيراً ، واتّجهنا الى السيارة . وكانت سيّارة كبيرة مغلقة وكان السائق يرتدي متراباً[٣] أبيض وكانت ياقته وحاشية كميه بيضاوين . وطلبنا اليه أن يضع غطاء السيارة ، وينضد الحقائب في أمكنتها .

وغادرنا الشارع . . خرجنا من المدينة ، ومررنا الى جانب حدائق ناضرة . ولمّا التفتنا الى خلف ، نفضنا المدينة كلّها بنظرة شاملة ، ثمّ أوغلنا في الريف ، وكان ينبسط أمام منسرح بصرنا أخضر مائجاً . كانت الطريق تلتوي ، في صعود موصول ، وصادفنا كثيراً من الباسكيّين ، بأبقارهم

---

(١) بنت وردان : دويبة كريهة الريح تألف الأماكن القذرة في البيوت .

(٢) الأنش أو البوصة : مقياس للطول يساوي ٢٧ ميلمتراً .

(٣). المتراب : Duster سترة تقي من الأتربة والغبار .

وقطعانهم التي تجر عربات على طول الطريق . وصافحت أبصارنا بيوت مزارع جميلة مبيضّة بالكلس ، واطئة السطوح . إنّ الأرض في بلاد الباسك تتراءى خصبة خضراء ، كما تتراءى البيوت والقرى في حال جيّدة ونظيفة . إنّ في كل قرية ميداناً للعب كرة (البيلوته) . ولقد لحظنا في بعض منها أطفالاً يلعبون تحت أشعّة الشمس . وكان معلّقاً على جدران الكنيسة ، لوحة تمنع لعب كرة (البيلوته) في باحة الكنيسة ، وكانت سطوح البيوت في القرية من الآجر الأحمر .

وتلوّت الطريق مرتفعة ، وصعدنا في كنف تلّة ذات وادٍ عميق ، تتّصل بها ربى ممتدّة خلفها حتّى تشارف البحر . ولم يكن في ميسورك أن ترى البحر فقد كان بعيداً . ولكن كان في مكنتك أن ترى الى الربى ثمّ الى مزيد من الربى ، وأنت تعلم ، مع ذلك ، أين يوجد البحر .

ومررنا بالحدود الاسبانية : وكان ثمّة نهير وجسر ، وقف الى جانب منه جنود اسبانيّون ، بقبّعاتهم الجلدية البونابرتية وشواربهم . ولم يفتحوا سوى حقيبة واحدة . ثمّ أمسكوا بجوازات سفرنا ونظروا فيها . وكان قائماً على طرفي الحدود مخزن وفندق صغير ، وكان يتعيّن على السائق أن يمضي ليملأ في بعض الأوراق بيانات خاصة بسيارته .

وخرجنا من السيارة واقتربا من النهر لنرى ماإذا كان فيه سمك . وحاول « بيل » أن يتكلّم الاسبانية مع أحد الجنود فلم يفلح في ذلك . واستوضح « روبرت كون » وهو يشير بإصبعه ، عمّا إذا كان يوجد سمك في النهير فقال له الجندي : نعم ولكن ليس بقدر وفير .

وسألته عمّا إذا كان يصيد ، من قبل ، فقال لي : لا ، وإنه لم يهتم بالصيد البتّة .

في تلك اللحظة ، دنا من الجسر رجل شيخ لوّحت الشمس شعره ولحيته ، وكانت ثيابه تتبدّى وكأنّها مصنوعة من الجلد . وكان يتوكّأ على عصا طويلة ويحمل على ظهره ، جدياً شكّلت قوائمه الأربع وتدلّى رأسه .

ونحّاه الجندي بسيفه ، دون أن ينبس ببنت شفّة وقفل الرجل عائداً ، سالكاً طريق اسبانيا :

وسألت :

ـ لمَ عاد الرجل ؟

ـ ليس لديه جواز سفر .

وقدّمت سيكارة الى جندي المرور ، فتناولها شاكراً .

وسألت :

ـ ماذا سيفعل ؟

وبصق الجندي على الأرض .

ـ اوه سوف يعبر الحدود من مخاضة النهر .

ـ أيوجد لديكم كثير من حوادث التهريب ؟

وقال :

ـ اوه ، يتخطّى كثيرون الحدود .

وعاد السائق طاوياً أوراقه ، ثمّ وضعها في جيب سترته من الداخل . وركبنا السيارة ومضينا في الأرض الاسبانيّة فوق طريق بيضاء مغبّرة . ولم يتغيّر منظر الطبيعة عن ذي قبل ، الى مدى قصير ، ثمّ أخذنا في الصعود حتّى وصلنا الى شعب جبل . وكانت الطريق تتلوّى ، متداخلة ، والفينا أنفسنا حقّاً في اسبانيا .

كان ثمّة سلسلة من الجبال الشامخة السمراء وقليل من أشجار الصنوبر . وفي المدى الأبعد ، امتدّت على بعض السفوح ، غابات من شجر الزان . وحاذت الطريق ، في البدء ، قمّة الشعب ، ثمّ انحدرت . واضطرّ السائق الى التزمير والتمهّل والانحراف ليتحاشى أن يدوس حمارين نائمين على الطريق . وغادرنا الجبال لنضرب في غابة سنديان . كان في الغابة قطيع أبيض يرعى العشب . وكانت تنفسح ، في المدى المتطامن الواطيء ، سهول معشوشبة وجداول نميرة . ثمّ عبرنا نهراً . وبعد أن قضينا ليلة في قرية صغيرة مظلمة

تابعنا السير الى علٍ ومضينا نصعد مسافة طويلة . وجزنا بشعب جبل آخر مرتفع ، ودرنا حوله ، ثمّ عادت الطريق الى الإنحدار نحو اليمين ، ورأينا سلسلة أخرى من الجبال ، في الجنوب . وكانت تتراءى كلّها ، سمراء متكلّسة ذات صدوع غريبة الشكل .

وابتعدنا عن الجبال بعد فترة قصيرة ، فإذا بأشجار توزّع على عذاري الطريق ، وبنهر ينساب أمامنا ، وبحقول من القمح تنبسط على مرمى أبصارنا . غير أنّ الطريق ماعتمت أن استقامت ، بيضاء ، ثمّ فرعت تلّة صغيرة .

واشرأبّت ، على الناحية اليسرى ، الى مسافة قريبة ، رابية يعلوها قصر قديم ذو أبنية محيطة ، وحقل من القمح النامي المتطاول الى الجدران ، المتموّج على هينمة الريح .

وكنت أجلس الى جانب السائق ، واستدرت الى خلف ، فرأيت « روبرت كون » يغطّ في نومه ، ولكنّ « بيل » كان ينظر ويهزّ رأسه . ثمّ جزنا سهلاً وسيعاً كان على الجانب الأيمن منه يتألّق نهر كبير تحت أشعة الشمس ، بين صفّين من الأشجار .

كان في ميسورك أن ترى ، في المدى البعيد ، هضبة (بامبيلونه) تنتصب مرتفعة فوق السهل ، وجدران المدينة العالية ، والكنيسة الكبيرة السمراء ، وخيال الكنائس الأخر غير المتناسق .

وبدت خلف الهضبة جبال متعالية ، وكان في وسعك أن ترى أنّى سرّحت طرفك ، جبالاً .

وتلوّت الطريق عبر السهل أمامنا ، بيضاء ، حتّى (بامبيلونه) . ووصلنا الى المدينة من الطرف الآخر للهضبة . وكانت الطريق تصعد عموديّة ، مغبّرة ، تتفيّأ صفّين من الأشجار ، لتستوي بعد ذلك حين تدخل المدينة الجديدة المبنية خارج الجدران القديمة . ومررنا بملعب مصارعة الثيران عالياً أبيض . كان يبدو في أشعّة الشمس صلباً جامداً . ثمّ خلصنا الى الساحة

الكبيرة من شارع جانبي ، وتوقّفنا أمام فندق (مونتوبا) .

وأعاننا السائق على إنزال حقائبنا . وكان ثمّة جماعة من الغلمان جعلوا يرافقون السيارة ، وكانت الساحة قائظة والأشجار مخضرّة . وكانت الأعلام معلّقة بسارياتها ، وكان من الممتع السائغ أن تنتقل من وقدة الشمس الى فيء القناطر التي كانت تظلّل الطريق المحيطة بالساحة .

وبدا « مونتويا » مغتبطاً برؤيتنا . فصافحنا وأنزلنا في غرفة مشرفة على الساحة . واغتسلنا وتنظّفنا وهبطنا لنتغدّى في حجرة الطعام ، وبقي السائق ليتغدّى أيضاً . ودفعنا له ، بعد ذلك ، أجرته ، وانقلب راجعاً الى (بايون) .

إنّ في فندق (مونتويا) حجرتي طعام : حجرة في الدور الثاني مطلّة على الساحة ، وحجرة في الدور الأرضي واقعة على استقامة أرض الساحة ، ولها باب يفضي الى شارع خلفي تمرّ فيه الثيران في الصباح الباكر ، حين تخب راكضة في الشوارع صوب الملعب .

كانت حجرة الطعام السفلى رطبة ، فتناولنا فيها وجبة غداء جيّدة . إنّ الوجبة الأولى في اسبانيا تثير لديّ دوماً صدمة ، بما تحتوية من مقبّلات وبيض ، وصنفين من اللحم ، والخضر ، والسلطة والحلواء والفاكهة ، وإنه ليتعيّن عليك لإزلاق هذا كلّه ، أن تحتسي كثيراً من الخمر .

وحاول (روبرت كون) أن يفسّر للفتاة التي كانت تخدمنا أنه لايريد صنفاً ثانياً من اللحم ولكننا لم نشأ أن نترجم له ، فأحضرت له شيئاً آخر بدلاً منه ، أحضرت صحن لحم بارد ، فيما أحسب .

وقد ظهرت على « كون » منذ لقائنا به في (بايون) أمارات عصبية ، ولم يدر أننا على علم بقصّة سفره مع « بريت » الى (سان سيباستيان) . ولعلّ إخفاءه ذلك قد خلّف في نفسه شيئاً من الضيق .

وقلت :

ـ حسناً ، إن على « بريت » و« مايك » أن يقدما اليوم مساءً .

وقال « كون » :

ـ لست واثقاً بأنهما سيقدمان ، الليلة .

وقال « بيل » :

ـ ولمه ، طبعاً سيقدمان .

وقلت :

ـ إنهما يتأخّران دوماً .

وقال « روبرت كون » :

ـ أعتقد بأنهما لن يأتيا البتّة .

قالها ، بلهجة متعالية ، أثارت غضبنا كلينا .

وقال « بيل » :

ـ اراهنك على خمسين بيزيته بأنهما سيكونان ، الليلة ، هنا .

إنّ « بيل » يراهن دوماً ، حين يتميّز غيظاً ، وهو على الغالب يراهن في حماقة .

وقال « كون » :

ـ أقبل الرهان . حسناً ، هلاّ تذكّرت يا « جاك » . خمسين بيزيتة .

وقال « بيل » :

ـ سوف أتذكّر أنا ذلك .

ولحظت أنه مغضب ، وأردت أن أهدّئه فقلت :

ـ من المؤكّد أنهما سيأتيان ، ولكن قد لايقدمان ، الليلة .

وسأله « كون » :

ـ هل تريد أن تتراجع ؟

ـ لا ، لمه ؟ إرفع الرهان الى مائة إن شئت .

ـ حسناً ، أقبل .

قل :

ـ كفى ، وإلاّ فإن عليك أن تؤلّف كتاباً في ذلك ، وتدع لي جزءً منه .

وقال « كون » :

ـ أعتبر نفسي راضياً (وابتسم) ، أرجح أنك ستستعيد ربحه في البريدج على أي حال .

وقال « بيل » :

ـ لم تحصل على ذلك بعد .

وخرجنا ، وتمشّينا تحت القناطر ، متّجهين الى مقهى (ايرونا) لنشرب القهوة هناك . وقال « كون » أنه سيمضي ليحلق شعره .

وقال لي « بيل » :

ـ قل لي ، ترى ألدي حظ في أن أربح الرهان ؟

ـ لقد اخترت حظّاً خاسراً ، فإنهما لم يألفا الحضور الى أي موعد في الوقت المحدّد . ومن المؤكّد أنهما لن يأتيا ، الليلة ، إذا لم تصل نقودهما .

ـ ماكدت أفتح فمي حتّى ندمت . ولكنّني لم أملك أن أمنع نفسي من ذلك . أحسب أنه ليس لديه مايؤخذ عليه . ولكن علام يتكلّف مظهر من يعرف أكثر من الآخرين ؟ لقد إتّفق « مايك » و « بريت » معنا على القدوم الى هنا .

ورأيت « كون » راجعاً من الساحة .

ـ هاهو ذا عائد .

ـ حسناً . لاتفسح له مجالاً في أن يصطنع مظهر اليهودي المتفوّق .

وقال « كون » :

ـ إن صالون الحلاقة مغلق ولن يفتح الا في الساعة الرابعة .

وشربنا القهوة في مقهى (الايرونا) ، جالسين على كراسي خيزرانية مريحة ننعم برطوبة فيء القناطر ، ونردّد ثمّة أبصارنا في الساحة الكبيرة . وبعد مضي فترة قصيرة ، ذهب « بيل » ليكتب بعض الرسائل ، وقصد « كون » صالون الحلاقة . غير أنّ الصالون كان لايزال مغلقاً فاعتزم آنئذ العودة الى الفندق ليستحم .

وبقيت جالساً في المقهى ، ثمّ خرجت أتجوّل في المدينة . وكان الجو شديد الحر ، فسلكت الشوارع من جوانبها الظليلة ، واجتزت السوق ، وكنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أرى المدينة من جديد .

ومضيت الى (الأنيوتنامينتو) باحثاً عن الرجل الشيخ الذي كان يعنى في كل سنة ، بأن يحجز لي محلاّت لحضورحفلات مصارعة الثيران . لقد تلقّى النقود التي حوّلتها له من (باريس) وأمّن لي تجديد اشتراكي في الحفلات . كان يعمل قيّماً للمحفوظات ، وكانت كل وثائق المدينة محفوظة في مكتبه ـ وليس لهذا إيّما صلة بسياق القصّة ـ وعلى أي حال ، فقد كان لمكتبه باب من النسيج الغليظ الأخضر يليه باب كبير خشبي . وحين مضيت من لدنه ، تركته جالساً بين وثائقه التي كانت تغطّي الجدران كلّها ، وأغلقت البابين . ولمّا أفضيت من مكتبه الى الشارع ، استوقفني البوّاب ليزيل ماعلق بسترتي من تراب ، وقال لي :

ـ لاريب أنّك كنت تستقل سيّارة .

وكانت ياقتي الخلفية والطرفان العلويّان من كتفي سترتي ، مكسوّة بالتراب .

ـ من (بايون) .

وقال :

ـ طبعاً ، طبعاً ، كنت أعلم جيّداً بأنّك كنت تركب سيّارة ، من التراب الذي علق بك .

واعطيته ، لما تكلّف من جهد ، قطعتيَ نقد نحاسيّتين .

ورأيت في نهاية الشارع ، الكنيسة ، فيمّمت شطرها . لقد لاحظت أوّل مرّة شاهدت فيها الكنيسة أنّ واجهتها قبيحة ولكنّها راقت عيني في هذه المرّة ، ودخلتها... كانت معتّمة من الدخل ، وكانت عمدها مرتفعة ، وألفيت أشخاصاً يصلون . وفغم في جوّها عبق البخّور ، وكان فيها زجاج رائع مقطّع بالصور... وركعت وأخذت أصلّي فأطيل الصلاة... صلّيت من أجل الذين كنت

أفكّر فيهم ، من أجل « بريت » و« مايك » و« روبرت كرن » ، من أجل ذاتي أنا ، ومن أجل كل مصارعي الثيران . وصلّيت بصورة منفردة خاصة من أجل من أحبهم ، وبصورة شاملة من أجل الآخرين . ثم عاودت الصلاة من أجل ذاتي . وفيما كنت أصلّي من أجل نفسي وجدتني أغفو وحينئذ دعوت الى الله أن يجعل حفلات مصارعة الثيران جميلة رائعة . وأن يكون العيد (الفييستا) بديعاً ، وأن يتاح لنا صيد وفير . وتساءلت عمّا إذا كان في ميسوري أن أسأل الله شيئاً آخر . وفكّرت في أنني أحب أن يكون لديّ مال ، وجعلت أبتهل الى الله بأن يتيح لي ربح مبالغ طائلة ، ثمّ أخذت أفكّر في الوسيلة التي أكسب فيها المال . وحملتني فكرة الكسب الى تذكّرالكونت ، وساءلت ذات نفسي : أين يمكن أن يكون الآن ، وأسفت على عدم تمكّني من رؤيته في تلك الأمسية في (مونمارتر) ، وتذكّرت شيئاً مضحكاً روته « بريت » عنه . ولمّا كنت راكعاً طوال هذا الوقت ، وجبهتي على الخشب أمامي ، فإن تذكّرتي بأنني كنت أفكّر في نفسي وأنا أصلّي ، خلف لدي شيئاً من الخجل . وأسفت على كوني كاثوليكيّاً رديئاً ، غير أنني وجدت أنني لاأملك أن أفعل شيئاً آخر من أجل ذلك ، على الأقل ، في هذه الفترة ، وربّما الى الأبد... ووجدت أنّ هذا الدين هو ، على أي حال ، دين عظيم . وتمنّيت أن أصبح متديّناً وأملت أن أكونه في المرة القادمة . وأخيراً ألفيت نفسي مغموراً بأشعّة الشمس القائظة على درجات الكنيسة . كانت أصابعي وإبهام يدي اليمنى ما تزال نديّة ، وشعرت بأنّها تجف في الشمس ، وكانت أشعّة الشمس حارة قاسية . وجزت الساحة وأنا أسير الى جانب البيوت ، ثمّ عدت الى الفندق عن طريق الشوارع الصغيرة .

ولاحظنا ، فيما كنّا نتعشّى ، أنّ « روبرت كون » قد استحمّ وحلق شعره وغسله بصابون (الشامبوان) وأنه قد وضع فوقه شيئاً ما ، ليتماسك .

وكان يظهر على « كون » إمارات العصبية والإنفعال . ولم أفعل شيئاً لأجعله يخلد الى الطمأنينة . وكان منتظراً أن يقدم القطار من (سان

سيباستيان) في الساعة التاسعة ، فإذا كان « بريت » و« مايك » قد اعتزما المجيء ، اليوم ، فلا بدّ أنهما قد استقلا هذا القطار .

وفي الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة ـ ولم نكن قد جاوزنا منتصف وجبة طعام العشاء ـ نهض « روبرت كون » ، وقال أنه يريد الذهاب الى المحطّة .

وقلت له ، لأغيظه ليس غير ، إنني أريد مرافقته . وقال « بيل » إنه يؤثر بأن يذهب الى الجحيم على أن يقطع عشاءه ويمضي . وقلت له : إننا عائدان في الحال .

وذهبنا الى المحطّة ، مشياً ، وكنت أستمتع برؤية عصبية « كون » ، وتمنّيت أن تكون « بريت » في القطار .

وفي المحطّة ، علمنا أن القطار سوف يتأخّر عن موعد وصوله ، وجلسنا في عربة بضائع ، وانتطرنا ، والظلمة تشملنا ، في الخارج .

انني لم أرَ ، عمري كلّه ، إنساناً في مثل عصبية « روبرت كون » ونفاد صبره . كانت عصبيّته تسلّيني . وإنه لشيء مقيت ، أن أستشعر لذة في ذلك ، ولكنّني كنت أحس بأنني مقيت . لقد كان « كون » ذا موهبة عجيبة في أن يبعث لدى أي انسان أسوأ العيوب .

وسمعنا ، بعد أمد قصير صفير القطار ، يتناهى من المنخفض القصي في الطرف الثاني من الهضبة . ورأينا مصباح القاطرة يرتقي الأكمة قادماً . ودخلنا الى المحطّة وانتظرنا ، واقفين بين جمع من الناس ، خلف الأبواب الحاجزة . ووصل القطار ثمّ توقّف ، وشرع المسافرون يتقدّمون ثمّ يتخطّون الأبواب . لم يكونا بين جموع القادمين . وانتظرنا حتّى مضى جميع المسافرين وخرجوا من المحطة وابتعدوا عنها واستقلّوا الأوتوبيس أو المركبات ، أو سعوا مشياً في الظلمة ، صوب المدينة ، مع أصدقائهم وأقاربهم .

وقال « كون » :

ـ كنت أعلم جيّداً أنهما لا يأتيان . فلنعد الى الفندق .

وقلت :

ـ حسبت لعلّهما يستطيعان...

ولمّا وصلنا ، كان « بيل » يأكل فاكهة ، وينهي شرب زجاجة خمر .

ـ لم يأتيا ؟ هه ؟

ـ لا .

وقال « بيل » :

ـ إن لم يكن لديك مانع ، سوف أعطيك صباح الغد مئة بيزيته ، يا « كون » . إذ لمّا أصرفْ بعد نقودي ، هنا .

وقال « كون » :

ـ إيه ، إنس هذا ، ولنقم برهان آخر . هل يمكن أن نراهن في حفلات مصارعة الثيران ؟

وقال « بيل » :

ـ يمكن ذلك ، ولكن لست بحاجة اليه .

وقلت :

ـ إنه شبيه بالرهان على الحرب ، فلست فيه بحاجة الى أيّما فائدة اقتصادية .

وقال « روبرت » :

ـ إنّني مشوق الى مشاهدة حفلة مصارعة الثيران .

واقترب « مونتويا » من طاولتنا ، حاملاً بيده برقية .

ـ إنها لك .

وأعطانيها . . وقرأت :

« سنبقى لنبيت في (سان سيباستيان) » .

« بريت »

وقلت :

ـ إنّها منهما .

ووضعتها في جيبي . . ولو أنّها أتت في الحال الإعتياديّة . لكنت بسطتها لهما . وتابعت :

ـ لقد توقّفا في (سان سيباستيان) إنهما يبعثان إليكما بتحاياهما .

لمَ شعرت بتلك الرغبة في إثارة غضبه ؟ لاأدري . . طبعاً أدري ذلك جيّداً ، ولكنّها الغيرة ممّا تمّ له هي التي أعمتني ، على نحو لايغتفر . وفي الحق أن علمي بما حدث بينهما وتقبّلي ذلك على أنه أمر طبيعي لم يكن ليبدّل شيئاً . إنني على التحقيق لاأكرهه . . وأحسب أنني لم أكرهه من قبل ، حتّى ذلك الوقت الذي اصطنع فيه مظهر المتعالي فيما كنّا نتغدّى . أضف الى ذلك ، تردّده الموصول على الحلاّق . لهذا كلّه إذن ، دسست البرقية في جيبي . وعلى أي حال ، فقد كانت البرقية موجّهة اليّ .

وقلت :

ـ حسناً ، علينا أن نستقل الأوتوبيس المسافر ظهراً الى «بورغيت» ، إنّ في وسعهما اللحاق بنا إن وصلا مساء غد .

ولم يكن هناك ، سوى قطارين من (سان سيباستيان) : قطارفي الصباح المبكّر ، والقطار الذي كنّافي استقباله .

وقال «كون» :

ـ هذه الفكرة تبدو لي حسنة . كلّما وصلنا مبكّرين الى النهر ، كان ذلك أوفق .

وقال «بيل» :

ـ الأمر عندي سواء بالنسبة لوقت السفر ، من الأفضل أن نسافر مبكّرين . وذهبنا الى (الايرونا) وجلسنا فترة قصيرة شربنا فيها القهوة ، ثمّ قمنا بجولة صغيرة حتّى ملعب الثيران . ثمّ توغّلنا في الحقول متفيّئين الأشجار حتّى انتهينا الى سفح الهضبة حيث جعلنا نرامق النهر ، من عل ، في حلك الليل .

وقفلت راجعاً الى الفندق ، لأخلد الى النوم مبكّراً ، ومكث «بيل»

و« كون » في المقهى الى وقت متأخّر ، فيما أحسب ، إذ كنت نائماً حين قدما .

وفي صباح اليوم التالي ، شريت ثلاث بطاقات للسفر في الأوتوبيس المخصّص للسفر الى (بورغيت) وكان يغادر ـ حسب جدول أوقات السفر ـ في الساعة الثانية . ولا يوجد أي سفر قبل هذا الوقت .

كنت جالساً في (الأيرونا) أقرأ الصحف ، حين بصرت بـ« روبرت كون » يجتاز الساحة . واقترب من الطاولة وجلس على كرسي من تلك الكراسي الخيزرانية ، وقال :

ـ هذا المقهى مريح جداً ، هل نمت جيّداً يا « جاك » ؟

ـ نمت مثل الحطبة .

ـ لم أنم جيّداً ، لقد سهرت مع « بيل » الى ساعة متأخّرة .

ـ أين كنتما ؟

ـ هنا . وبعد إغلاقه ، ذهبنا الى ذاك المقهى ، إنّ الرجل الشيخ ، هناك ، يتكلّم الألمانية والإنكليزية .

ـ أهو مقهى (سويزه) ؟

ـ هو نفسه . إنّ له ملامح شيخ طيّب النفس . أحسب أنّ ذاك المقهى أحسن من هذا .

ـ إنه غير جيّد في النهار فهو حار جداً . بهذه المناسبة ، لقد شريت بطاقات السفر في الأوتوبيس .

ـ لن أسافر اليوم ، تستطيع أن تسافر مع « بيل » ، قبلي .

ـ لقد شريت بطاقتك .

ـ أعطنيها ، سأستعيد ثمنها .

ـ ثمنها خمس بيزيتات .

وسحب « روبرت كون » قطعة فضّية من فئة خمس بيزيتات وأعطانيها . وقال :

ـ يجب أن أبقى . أخشى أن يكون ثمة سوء تفاهم .

وقلت :

ـ لمه ؟ قد لايقدمان الى هنا قبل ثلاثة أيّام أو أربعة إذا كانا قد أساغا اللهو في (سان سيباستيان) .

وقال « روبرت » :

ـ هذا هو بالضبط ماعنيت . أخشى أن يكونا في انتظاري في (سان سيباستيان) . ولعلهما توقّفا هناك لهذا السبب .

ـ ماالذي حملك على هذا الإفتراض ؟

ـ لأنني كنت كتبت الى « بريت » مقترحاً عليها ذلك .

وأردفت قائلاً :

ـ إذن لمَ لم تبق هناك ـ بحق الجحيم ـ لتستقبلهما... ؟

ثمّ أمسكت عن متابعة الكلام . فلعل هذه الفكرة قد خطرت له ، بيد أنّي لاأعتقد أنّها مرّت في باله .

وشعر آنذاك بأنه منساق للبوح بأسراره . ولعلّه كان يجد متعة أن يكون في ميسوره التحدّث اليّ . وكأنّني على علم بأنّ ثمّة شيئاً مابينه وبين « بريت » .

وقلت :

ـ على أي حال ، سنسافر أنا و« بيل » عقب الغداء .

ـ لكم أود أن أسافر أنا أيضاً ، فقد كنّا نتشوّق طوال الشتاء الى القيام برحلة العيد هذه (وأخذته رقّة عاطفية بهذا الصدد) ، ولكن ينبغي أن أبقى . في الحق يتعيّن علي أن أبقى حالما يصلان الى هنا . فإنني سأقدم بهما رأساً...

ـ لنبحث عن « بيل » .

ـ عليّ أن أغدو الى الحلاّق .

ـ سأراك في وقت الغداء .

ووجدت « بيل » في حجرته يحلق شعر ذقنه . وقال « بيل » :

ـ أوه بلى ، لقد روى لي كل شيء ، ليلة أمس . إنه هائل في سرد أسراره . وقد ذكر لي بأنّ لديه موعداً مع « بريت » في (سان سيباستيان) .

ـ ياله من ابن سفاح كذّاب!

وقال « بيل » :

ـ أوه . لا تستأ ، لا تستأ ، في هذا الوقت ، وقت السفر . هلاّ ذكرت لي كيف تيسّر لك أن تتعرّف على هذا الشخص ؟

ـ لاتلحّ عليّ .

ـ أجال « بيل » بصره حواليه ، وذقنه نصف حليقة ، ثمّ أخذ يتكلّم أمام المرآة وهويزبد رغوة الصابون على خدّه .

ـ ألم تبعث به اليّ في (نيويورك) في الشتاء الماضي مع كتاب توصيه منك ؟ حمداً لله أنني دوماً رجل أسفار! قل لي : ألم تجد بين أصدقائك خيراً من هذا لتأتي به ؟

ودلك ذقنه بإبهامه ونظر اليه ، ثمّ تابع الحلق .

وقلت :

ـ لقد ظفرت أنت بأصحاب في غاية الظرف .

ـ أوه إن لي بعض الأصحاب ، ولكن ليس بينهم من يداني « روبرت كون » ، والشيء الطريف أنه ـ الى ذلك ـ لطيف ، فأنا أكن له الود ، ولكنه لايطاق البتّة .

ـ إنّ في ميسوره أن يكون لطيفاً جداً .

ـ أدري ذلك ، وهذا أرهب مافيه .

واستضحكت ، فقال « بيل » :

ـ بلى ، بلى . لك أن تضحك فأنت لم تكن معه ليلة أمس حتّى الساعة الثانية صباحاً .

ـ هل كان مضايقاً جداً ؟

ـ إنه لرهيب . قل لي ، بهذه المناسبة ، ماقصّة علاقته بـ « بريت » هل كانت تعاشره من قبل ؟

ورفع ذقنه وشدّها من طرف الى طرف .

ـ صحيح ، لقد ذهبت معه الى (سان سيباستيان) .

ـ آه ، ياللحماقة اللعينة ، لم فعلت هذا ؟

ـ كانت تريد أن تنجو من المدينة ، ولم يكن في مكنتها أن تسافر وحدها ، الى أي مكان ، وقد أفضت اليّ بأنّها كانت تفكّر في أنّ صحبتها قد تنفعه .

ـ أي حماقة بلهاء يستطيع البشر أن يقوموا بها! لمَ لمْ تذهب مع شخص من وسطها ؟ معك مثلاً (وذكر على سبيل المثال) أو معي أنا ؟ لمَ لمْ أكن أنا ؟ (وحدّق الى سحنته في المرآة ، في أناة ، ثمّ غمر كلتا وجنتيه برغوة من الصابون) ، أليس لي رأس لائق ؟ ، إنه رأس تجد لديه أي امرأة أمناً وطمأنينة .

ـ إنّها لم تره من قبل .

ـ كان عليها أن تراه ، على كلّ النساء أن يتأمّلن فيه ، إنه رأس حقيق بأن يعرض على الشاشة في البلاد . على أي امرأة ، حين تغادر هيكل المعبد ، أن تظفر بصورة هذا الرأس . على الأمّهات جميعاً أن يتحدّثن الى بناتهن عن هذا الرأس ، يابني (وأشار اليّ بالمحلق[١]) ، اذهب الى الغرب بهذا الرأس ، يحالفك أنت وبلدك النُجح .

وانحنى فوق الطست ثمّ غسل وجهه بالماء البارد ومسحه بقليل من الكحول . وتطلّع الى وجهه ، في عناية ، في صقال المرآة فيما كان يشد شفته العليا الكبيرة . وقال :

ـ ياإلهي ، تراه رأساً مخيفاً ؟

---

(١) آلة الحلق تعريب كلمة (Razor) .

وعاود النظر الى المرآة واستطرد يقول :

ـ لنعد الى «روبرت كون» لقد أعياني... حقاً ، إنّ في وسعه أن يمضي الى جهنّم ، وإنني لسعيد جداً بأن أبقى هنا ، وهكذا فلن يتاح له أن يرافقنا في رحلة العيد .

ـ رأيك صائب وحق الشيطان .

ـ سوف نذهب لصيد السمك ، سوف نذهب للصيد في نهر (ايراتي) . سنمضي الآن لنسكربخمر هذا البلد ونحن نتناول طعام الغداء ، ثمّ نستقل الأوتوبيس في رحلة ماتعة .

وقلت :

ـ هلّم . لنذهب الى (إيرونا) ولنبدأ به .

الفَصلُ الحَادي عَشَر

كان الحرّ شديداً في الساحة حين خرجنا بعد الغداء ، بحقائبنا وقصبات السماكة ، لنذهب الى (بورغيت) . وكان جمع من المسافرين فوق سطح الأوتوبيس ، وجعل آخرون يتسلّقون السلم .

وصعد «بيل» وجلس «روبرت» الى جانب «بيل» ليحتفظ بمكاني . وعدت الى الفندق لأجلب زجاجتي خمر ، نأخذهما معنا . ولمّا رجعت كان الأوتوبيس قد امتلأ . وعلى سطح الأوتوبيس كان الرجال والنساء جالسين فوق البضائع والأكياس ، وكانت النساء يحرّكن مراوحهن تحت أشعّة الشمس . كان الحر في الحق قائظاً ، وهبط «روبرت» واحتللت المكان الذي احتفظ لي به ، على المقعد الخشبي الممتد فوق السطح .

وظل «روبرت كون» واقفاً في فيء القناطر حتّى وقت سفرنا ، واستلقى قبالتنا على السطح رجل باسكي ، مسنداً ظهره الى أرجلنا ، واضعاًعلى ركبتيه زقّاً جلديّاً كبيراً من الخمر . وقدّم زقّ الخمر اليّ والى «بيل» . ولمّا رفعته لأشرب ، قلّد الباسكي صوت زمّارة السيارة فجأة ، تقليداً كان من الإتقان بحيث أدّى الى انسكاب بعض الخمر على ثوبي . وأغرب الجميع في الضحك . واعتذر الرجل ورجاني أن أشرب مزيداً من الخمر . وبعد هنيهة عاود تقليد صوت الزمّارة . وحدث لي كرة أخرى مثلما حدث أوّل مرة . لقد كان ماهراً في ذلك . إنّ الباسكيّين مغرمون بذلك كثيراً .

وكان جار «بيل» يتحدّث اليه بالاسبانية ، فلم يفته شيئاً . ومدّ الى الرجل إحدى زجاجتي الخمر ، فنحّى الرجل الزجاجة ، وذكر أنّ الحر شديد وأنه شرب قدراً كبيراً من الخمر على الغداء . ولمّا قدّم اليه «بيل» الزجاجة كرة أخرى ، شرب منها جرعة كبيرة . وتنقّلت الزجاجة ، دائرة على ذلك الجمع الراكب في الأوتوبيس . وكان كل منهم يشرب منها ، في أدب جمّ ، ثم يعيد سدّها ويضعها الى جانب ، وألحّوا علينا بأن نشرب من زقاقهم ، لقد كانوا قرويّين ذاهبين الى التلال .

وأخيراً ، وبعد صوتين أو ثلاثة أصوات مقلّدة لزمارة السيّارة ، تحرّك الأوتوبيس ، سائراً ، ولوّح «روبرت كون» بيده ، وأجاب عنه كل الباسكيّين ملوّحين بأيديهم . وماكدنا نمضي في الطريق خارج المدينة ، حتّى شعرنا بالرطوبة ، وكانت الجلسة ممتعة فوق سطح الأوتوبيس تحت أغصان الأشجار ، وكان الأوتوبيس يسرع بعض الشيء في سيره ، مخلفاً نسيماً قويّاً .

وفيما كنّا نسعى في الطريق ونحن نهبط التلّة ، والغبار يكسو الأشجار . انفسح وراءنا عبر الأغصان منظر رائع للمدينة وهي مشرئبّة فوق ذروة الهضبة ، ومطلّة على النهر . وقد دلّني الباسكي المستند الى ركبتي على هذا المنظر بعنق زقه ، وغمز لنا بعينه ، وهزّ رأسه .

ـ جميل... هيه ؟

وقال «بيل» :

ـ هؤلاء الباسكيّون... إنهم لشعب ظريف .

وكان الباسكي المستند الى ركبتيَ قد لوّحته الشمس بسمرة السرج الجلدي . وكان يرتدي قميصاً أسود مثل لباس الآخرين ، وكان عنقه متغضّناً . واستدار مقدّماً زقه الى «بيل» فناوله «بيل» احدى زجاجتينا . وحرّك الباسكي سبّابته أمامه . وأعاد له الزجاجة ، وهو يدخل سدادتها بضربة واحدة من راحته . وشال زقه مردّداً :

ـ ..Arriba. arriba الى فوق ، الى فوق .

ورفع «بيل» الزق الجلدي ، وأمال رأسه الى خلف ، وأراق سلسالاً فاض في فمه . ولمّا انتهى من الشرب وخفض زقه ، تحدّرت على ذقنه قطرات من الخمر .

وقال عدد كبير من الباسكيّين :

ـ لا ، لا ، ليس هكذا . .

وانتزع احدهم ـ وكان يبدو شاباً ـ الزق الجلدي من صاحب له كان يهمّ نفسه بأن يعرض لنا كيف يكون الشرب ، وأمسك بالزق وشاله عالياً . وضغطت قبضته على الزق فانهرق سلساله وظلّ ممسكاً بالزق والخمر تنصب في خط متّسق الى فمه وهو لايني يبلغ في انتظام وتمهّل .

وحرّك شارب الخمراصبعه الصغيرة ، ونظر الينا وفي عينيه تتألّق ابتسامة ، ثم قطع سلسال الزق فجأة ، ورفع الزق في خفّة ، واعاده الى صاحبه وغمز بعينه لنا ، وخضخضه[1] صاحبه ، في أسى .

ومررنا بمدينة توقّفنا فيها أمام نزل صغير (Posada) . وأخذ السائق رزماً عديدة ثمّ استأنفنا السير . وإمّا خرجنا من المدينة ، جعلت الطريق ترتفع ، ومضينا في مزارع تتطاول فيها تليلات صخرية ثمّ تتطامن نحو الحقول . كانت سفوحها مكسوة بسنابل القمح . وكنّا كلّما أخذنا في الصعود ، تبدّت لنا متموّجة على ممسّ الريح .

كانت الطريق بيضاء مغبّرة . والغبار يعلو من العجلات حتّى ينعقد سحباً في الفضاء خلفنا .

وارتقت الطريق التلال مخلّفةً . حقول القمح الخصبة . في المنخفض نحن الآن في العلاء ، لم يبق سوى بقع من حقول القمح على السفوح الجرداء ، وكان يترقرق على طرف كل سفح جدول ماء .

---

(١) خضخض : حرّك ، من فصيح العامية .

واضطررنا الى أن ندور على حيد الطريق فجأة ، لنفسح مكاناً لرتل طويل من بغال ستة كان مشدوداً الى عربة ، ويسعى واحداً في إثر الآخر . وكانت العربة والبغال مكسوّة بالغبار . وكان ثمّة بغال أخرى وعربة ثانية تدرج وراءها مباشرة ، وكانت هذه العربة محملة بالأخشاب . وانحنى البغّال (Arriero) الذي كان يسوق البغال الى خلف ، وشدّ المكابح الخشبية الثخينة حين مررنا .

ولمّا وصلنا الى عل ، بدت الأرض جرداء ، وتراءت الأكمات صخرية ذات صلصال قاسٍ متكلّس مخدّد بالأمطار .

وفي منعطف الطريق ، وجدنا أنفسنا أمام مدخل مدينة ، وانبسط فجأة ، وادٍ ممرّع أخضر ، وكان هناك نهر يجتاز منتصف المدينة ، وتبدّت حقول الكروم قريبة من البيوت .

وتوقّف الأوتوبيس قبالة نزل صغير (Posada) وهبط كثير من المسافرين ، وأخرجت الحقائب من تحت الأغطية الجلدية الكبيرة التي كانت تلفعها ، وأنزلت من سطح الأوتوبيس . وهبطت مع «بيل» ودخلنا النزل فإذا هو حجرة واطئة مظلمة ، تتدلّى من سقفها سرج ، وعدد الفرس ، ومذارٍ مصنوعة من الخشب الأبيض ، وعناقيد من الصنادل ، وشرائح من لحم الخنزير وشحمه ، وضفائر من الثوم الأبيض وقطع مستطيلة من السجق . وكانت الحجرة رطبة معتّمة ، واقتربنا من خوان خشبي طويل وقفت خلفه امرأتان تقدمان الشراب ، ووراءهما رفوف حافلة بمختلف السلع والأطعمة .

وشرب كلّ منّا قدحاً من (Aguardiente)[1] ودفعنا الثمن أربعين سنتيماً لتأخذ ما زاد رضيخة[2] ، ولكنّها أعادت اليّ عشرة سنتيمات ، تحسب أنني أخطأت في الثمن .

---

(١) نوع من الخمر في الاسبانية .

(٢) بقشيش .

ودخل باسكيّان أصرّا على تقديم الشراب الينا ، فقدّما الينا الشراب مرة ، وقدمنّا نحن اليهما الشراب أيضاً ، وعندئذ ربتا على ظهرينا وقدّما الينا من جديد ، وقدّمنا الشراب بدورنا كرة أخرى .

وخرجنا لنستقبل أشعة الشمس والحر ، ثمّ ارتقينا سطح الأوتوبيس وأضحى ثمّة محلاّت كثيرة كافية تتيح لكل واحدٍ بأن يجلس على مقعد . واتخذ الباسكي الذي كان ممدّداً ، من قبل ، على سطح الأوتوبيس التوتيائي ـ مجلسه بيني وبين « بيل » .

وخرجت الإمرأة التي قدّمت الينا الشراب . وهي تجفّف يديها بمئزرها . وتكلّمت مع شخص داخل الأوتوبيس ، وخرج السائق مراوحاً بيديه كيسي بريد جلديّين فارغين ، وصعد . ولوّحت الأيدي بالتحيّات ، مودّعة حين رحلنا .

وتخلّت الطريق فجأة عن الوادي الأخضر فإذا نحن بين الأكمات كرة أخرى . وكان « بيل » والباسكي يتجاذبان أطراف الحديث . وانحنى رجل من الطرف الثاني للمقعد وسأل بالانكليزية :

ـ أأنتما أميركيّان ؟

ـ طبعاً :

وقال :

ـ لقد كنت هناك منذ أربعين عاماً .

وكان شيخاً في مثل سمرة الأخرين ، عارضاه مكسوّان بلحية خفيفة وخطها الشيب .

ـ وكيف كانت ؟

ـ ماذا تقول ؟

ـ كيف كانت امريكا في ذلك العصر ؟

ـ اوه ، كنت في (كالفورنيا) ، كانت رائعة .

ـ ولماذا رحلت عن هناك ؟

ـ ماذا تقول ؟

ـ لماذا عدت الى هنا ؟

ـ اوه ، عدت لأتزوج . كنت أتمنّى أن أرجع الى هناك ، ولكن زوجتي لاتحبّ السفر . من أين أنت ؟

ـ من (كانساس سيتي)

وقال : ـ كنت هناك . وكنت في (شيكاغو)و (سان لوي) و(كانساس سيتي)و (دنفر)و (لوس أنجلوس)و (سالك ليك سيتي) .

وكان يعددها في أناة .

ـ كم من الوقت لبثت هناك ؟

ـ خمسة عشر عاماً ، ثمّ عدت وتزوّجت . . .

ـ هل تودّ أن تشرب معنا شيئاً ما ؟

وقال :

ـ أودّ ذلك ، ليس في ميسوركما الحصول على مثل هذه الخمر في امريكا ، أليس كذلك ؟

ـ إنها مبذولة إن كنت تستطيع أن تدفع ثمنها .

ـ لمَ جئتما الى اسبانيا ؟

ـ لمشاهدة حفلات العيد (الفييستا) في (بامبيلونه) ،

ـ هل تحبّان مشاهدة حفلات مصارعة الثيران ؟

ـ طبعاً ، وأنت ؟

ـ أجل ، أحسب أنني أحبّها .

وأردف يقول بعد لحظة :

ـ والآن الى أين أنتما ذاهبان ؟

ـ الى (بورغيت) لصيد السمك .

وقال :

ـ إذن أتمنّى لكما صيداً وفيراً .

وشدّ على يدي مصافحاً ، وعاد ليجلس على المقعد خلفنا ، وبدا على بقيّة الباسكيين أنّهم قد أخذوا بهذا الحديث . وقعد الرجل ورائي في جلسة مريحة . وجعل يبتسم لي كلّما استدرت لأتملّى مناظر الريف . ويبدو أنّ الجهد الذي بذله في التحدّث بالانكليزية قد أتعبه ، فلم ينبس ببنت شفة بعد ذلك .

وكان الأوتوبيس لايني يصعد ، وبدت أرض الريف عارية ، فالصخور تبرز من الصلصال ، ولم نعد نشاهد أي عشب على الطريق ، وكان في مستطاعنا أن نرى ، ونحن نتلفّت ، الريف الوسيع الممتد من المنخفض . وفي المدى البعيد ، كانت الحقول تؤلّف مربعات خضراء وسمراء على سفوح الأكمات . وكانت تسد الأفق جبال سمراء ذات أشكال غريبة . وكنّا نرى الى الأفق يتغيّر كلّما أخذنا في الإرتفاع .

وفيما كان الأوتوبيس يرتقي الطريق على مهل ، استطعنا أن نرى جبالاً بارزة في الجنوب .

ودارت الطريق حول القمة ، ثمّ انبسطت وتمهّدت وغابت داخل غابة من شجر السنديان . وكانت أشعة الشمس تنثال حزماً من فرجات الأغصان ، وكان ثمّة قطعان ترعى خلف الأشجار .

وأوغلنا في الغابة . وانسابت الطريق خارجة منها ، ثمّ دارت حول نشز من الأرض . وكان ينفسح أمامنا سهل أخضر مدوّر مغلق بجبال سمراء . ولم تكن كتلك الجبال السمراء المتكلّسة التي خلفناها وراءنا . بل كانت جبالاً مشجّرة تنساق منها الغيوم منحدرة .

وأخذ السهل الأخضر ينبسط الى مدى بعيد طويل ، وكان مقطّعاً بحواجز ، وكان بياض الطريق يلوح من ثنايا جذوع صفّين من الأشجار كانا يشقّان السهل في إتّجاه الشمال .

ولمّا وصلنا الى سفح الهضبة رأينا بيوت (بورغيت) البيضاء وسطوحها الحمراء . وكانت البيوت مصطفّة في استقامة خارج السهل . ومن بعيد ، على

كنف أوّل جبل أسود ، تراءى سطح كنيسة (رونسوفال) الرمادي المغلّف بالمعدن .

وقلت :

ـ هذه هي (رونسوفو) .

ـ أين ؟

ـ هناك حيث تمتد الجبال .

وقال « بيل » :

ـ لاريب أن البرد قاسٍ هناك .

وقلت :

ـ إنها عالية . لعلّها أن تشارف ارتفاع ألف ومئتي متر .

وقال « بيل » :

ـ هناك برد شديد مخيف .

ودرج الأوتوبوس على صعيد مستو مستقيم في الطريق الذاهبة الى (بورغيت) ، ثمّ مررنا بمفرق طريق ، وعبرنا جسراً فوق نهر ، وكانت بيوت (بورغيت) قائمة على جانبي الطريق . ولم يكن فيها شوارع معترضة ، ومررنا بالكنيسة فالمدرسة . وتوقّف الأوتوبوس ، ونزلنا ، وناولنا السائق حقائبنا وغمد قصبات الصيد .

واقترب منّا جندي يضع على رأسه قبّعه مثلّثة الأطراف ، ويتمنطق زنّاراً جلدياً أصفر وسأل :

ـ ماذا يوجد داخلها ؟

وأشار الى غمد قصبات الصيد .

وفتحته وأريته ، وطلب الينا إبراز رخصتي الصيد ، فأبرزتهما له . وألقى نظرة الى تاريخهما وأشار الينا بالذهاب ، وسألته :

ـ هل نحن ضمن النظام ؟

ـ أجل ، طبعاً .

واتخذنا أدراجنا نحو الفندق ، ومشينا في الشارع ، الى جانب بيوت حجرية مبيضّة بالكلس ، وقد جلست على عتباتها نساء جعلن يتطلّعن الينا .

وخرجت الامرأة البدينة التي كانت تدير الفندق ، من المطبخ ، وأقبلت علينا مصافحة ، ثمّ نزعت نظارتها وجفّفتها وأعادت وضعها ، وكان البرد يشيع في الفندق والهواء قد بدأ يهب في الخارج ، وطلبت الإمرأة الى فتاة أن ترافقنا الى علٍّ لتدلّنا على الغرفة . . كان فيها سريران ومنضدة وصوّان[١] ولوحة نقش كبيرة ذات إطار (نويسترا سينيورة دورونسيفال)

وأخذت الريح تهب على مصراعي النافذة ، فقد كانت الغرفة في الطرف الشمالي من الفندق . واغتسلنا وارتدى كل منّا كنزة وهبطنا الى حجرة الطعام . وكانت أرضها مبلّطة وسقفها وطيئاً مصفّحاً بخشب السنديان . كانت مصاريع النوافذ كلّها مفتوحة وكان البرد من الشدّة بحيث كان في ميسورنا أن نرى لهاثنا .

وقال « بيل » :

ـ يا إلهي . لا يمكن أن يحدث برد كهذا غداً . لن أخوض في النهر في طقس مماثل .

وقبع بيانو في أقصى ركن من القاعة خلف الطاولات الخشبية . واقترب منه « بيل وشرع يعزف عليه وقال :

ـ إنّ هذا لممّا يجلب الدفء .

وبحثت عن الامرأة وسألتها عن إجرة الإقامة مع الطعام فدسّت يديها تحت مئزرها ونحّت بصرها وقالت :

ـ اثنتا عشرة بيزيتة .

ـ كيف ؟ أن هذا نفس ما ندفعه في (بامبيلونه) .

ولم تقل شيئاً واكتفت بأن تنزع نظارتها وتنظّفها بمئزرها ، وقلت :

---

(١) خزانة تصان فيها الملابس : Clothes-Chest

ـ إنّ هذا لغالٍ . إننا لاندفع أكثر من هذا المبلغ في فندق كبير .

ـ لقد أنشأنا حجرة حمّام جديدة .

ـ ألديك ما هو أرخص ؟

ـ ليس في الصيف ، نحن الآن في ذروة الموسم .

ولم يكن أحد سوانا في الفندق ، وقلت في ذات نفسي : «وبعد ، فلن نبقى هنا سوى أيام قليلة» .

ـ هل يتضمّن ذلك ثمن الخمر ؟

ـ أوه ، أجل .

وقلت :

ـ إذن لابأس .

وعدت الى «بيل» الذي زفر لهاثه على وجهي ، لأرى الى شدّة البرد ، ودلف الى البيانو ليعزف عليه . وجلست الى إحدى الطاولات وأنشأت أتأمّل في اللوحات المعلّقة . كانت ثمّة أرانب ميّتة ، ودرّاجة ميّتة ، وصورة بطّات ميّته أيضاً . وكانت الصور كلّها مسودّة ذات منظر داخن ، وكانت هناك خزانة حافلة بزجاجات المشروبات الروحية ، ونظرت اليها ، وكان «بيل» لايزال يعزف ، وقال :

ـ ما رأيك في شرب قدح (بونش)[١] دافئ ؟ إنّ ما أفعله لا يتيح لي الاحتفاظ بالدفء دائماً .

وخرجت لأشرح للمرأة ما هو (البونش) ، وكيف يحضّر . وبعد دقائق قليلة جاءت الفتاة بكوب حجري ينعقد فوقه بخار (البونش) . وانصرف «بيل» عن البيانو ، وشربنا (البونش) الحارفيما كنّا نصغي الى زفيف الريح .

ـ ليس فيه قدر كاف من الروم .

وذهبت الى الخزانة وتناولت زجاجة (الروم) فملأت نصف الكوب ، وقال

---

(١) البونش : مزيج من خمر الروم وعصير الفاكهة .

« بيل » :

ـ العمل المباشر خير من التشريع .

وقدمت الفتاة لتعد المائدة قبل أن تجلب طعام العشاء ، وقال « بيل » :

ـ تهب هنا ريح زعزع من سقر .

وعادت الفتاة تحمل صفحة كبيرة من حساء الخضر الساخنة ، وخمراً وطعمنا سمكاً مقلوّاً وصنفاً من اليخنة وطبقاً كبيراً من الفريز البرّي ، ولم نخسر نقودنا مع الخمر ، وقد أتت الفتاة بالخمر في خجل مشوب بالمجاملة . وقدمت الإمرأة العجوز مرة لتلقي نظرة وتحصي الزجاجات الفارغة .

وبعد أن تعشّينا ، صعدنا الى غرفتنا ودخّنا وقرأنا ونحن في السرير ، لنحتفظ بالدفء ، واستفقت مرة واحدة في الليل ، فسمعت زفيف الريح . إنه لمن الممتع أن ينعم المرء بالدفء في فراشه .

الفَصلُ الثاني عَشَر

ولمّا استيقظت في الصباح خففت الى النافذة لأسرح منها بصري ، وكان الفضاء ماتعاً صافياً بعد أن انقشعت السحب عن الجبال .

وجثمت تحت النافذة ، في الخارج ، عربات نقل ، ومركبة كبيرة قديمة ذات سقف متآكل ومتشقّق من اختلاف الطقس . لابدّ أنها أهملت منذ أيّام استعمال الأوتوبيس .

وقفزت ماعز على إحدى العربات ومنها الى سطح المركبة ، وهزّت رأسها لبقية المواعز في الأسفل ، ولمّا لوّحت لها بيدي نطّت على الأرض .

كان « بيل » لايزال نائماً ، فارتديت ثيابي ، وانتعلت حذائي في البهو ، ونزلت الى الدور الأرضي . لم يكن ثمّة أحد قد نهض ، فأدرت مزلاج الباب وخرجت . وكان الجو رطباً في الصباح الباكر ، والشمس لمّا تجفّف الندى الذي تشكّل بعد أن هدأت الريح .

وأخذت أدور تحت السقيفة خلف الفندق ، فعثرت على شيء أشبه بالمعول . وانحدرت الى النهر لأنكت الأرض وأستخرج بعض الديدان كي أتّخذ منها طعماً للسمك . وكان الماء صافياً ضحلاً ، ولكنه لم يكن يشي بالسمك .

وغرزت المعول في الشاطئ المعشوشب حيث كان التراب نديّاً ، وقلعت مدرة من التراب ، فألفيت تحتها ديداناً لم تلبث أن اختفت حين رفعت

المدرة . وحفرت في أناة ، واستخرجت كمّية وفيرة . ووجدت وأنا أحفر على طرف الأرض الندية ، قدراً كبيراً من الديدان يمكن أن يملأ علبتي سكاير . وازلت ماعليها من تراب . وكانت المواعز تنظر اليّ فيما كنت أحفر ، ولمّا عدت الى الفندق ، كانت الامرأة في الفندق ، وسألتها أن تعدّ لنا القهوة وذكرت لها أننا نود أن نأخذ معنا طعام الغداء .

وكان « بيل » مستيقظاً وجالساً على حافة السرير ، وقال :

ـ لقد رأيتك من النافذة ولم أشأ أن أتدخّل ، ماذا كنت تفعل ؟ هل كنت تدفن نقودك ؟

ـ يا لك من كسول!

ـ تُراك كنت تعمل للصالح العام ؟ رائع! أتمنّى أن تفعل ذلك كل صباح .

وقلت :

ـ هيّا انهض ، قم . . .

ـ ماذا ؟ انهض ؟ لن أقوم البتّة .

واندس في فراشه وسحب اللحاف حتّى شارف ذقنه .

ـ والآن ، حاول أن تنهضني .

وأخذت أبحث عن أدوات الصيد ، ووضعتها في الكيس في غير نظام . وسأل « بيل » :

ـ أفلا يثير هذا اهتمامك ؟

ـ أنا ذاهب لأتناول طعام الفطور .

ـ الطعام ؟ لمَ لم تقلْ ذلك من قبل ؟ كنت تفكّر في أنّك تود أن أنهض وتقصد ممازحتي ليس غير . الطعام ؟ حسناً . إنّك تبدو الآن معقولاً ، اذهب واستخرج بعض الديدان بينما أكون قد تهيّأت التهيّؤ كلّه .

ـ اوه اذهب الى الجحيم .

ـ اعمل للصالح العام (وارتدى « بيل » ثيابه الداخلية) ، أرني شيئاً من الشفقة والسخرية .

وخرجت من الغرفة حاملاً كيس أدوات الصيد : الشبكة والقصبات .

ـ ايه ، تعال .

ومددت رأسي من الباب .

ـ هل لك أن تريني شيئاً من السخرية والشفقة .

ووضعت إبهامي على أنفي ساخراً فقال :

ـ ليس هذا بسخرية .

وسمعت ، وأنا أهبط «بيل» يغنّي : «سخرية وشفقة ، حين تشع بذلك ، أوه ، اعطهم سخرية وأعطهم شفقة . وحين يشعرون ، أعطهم قليلاً من السخرية ليس غير ، قليلاً من الشفقة ليس غير» وظلّ يغنّي ، الى أن نزل . كان النغم مقتبساً من نغم الأغنية «الأجراس تدق من أجلي وأجل صديقتي» . وكنت أقرأ جريدة اسبانية يعود تاريخها الى أسبوع مضى . وقلت له :

ـ مامعنى هذه السخرية وهذة الشفقة ؟

ـ كيف ؟ ألم تسمع بالسخرية والشفقة ؟

ـ لا ، من الذي نشرها ؟

ـ كل الناس ، كل الناس في (نيويورك) قد جنّوا بها ، إنها كأغنية (فراتيلليني) القديمة تماماً .

ودخلت الفتاة تحمل القهوة مع قطع الكعك المدهون بالزبد ، وبالأصح قطع الخبز المحمّص[١] المدهون بالزبد ، وقال «بيل» :

ـ سلها إن كان لديها مربب[٢] ؟ وكن ساخراً معها .

ـ ألديكم مربب ؟

ـ هذه ليست بسخرية ، لكم أود أن أتكلّم الاسبانية ؟

وكانت القهوة جيدة وقد شربناها في فناجين كبيرة . وأحضرت لنا الفتاة

---

(١) الموضوع قليلاً على النار . من فصيح العامية .

(٢) في العامية مربّى .

مربب توت العليق في صحن زجاجي .

ـ شكراً .

وقال « بيل » :

ـ ليس هكذا ، قل لها شيئاً ساخراً . قص عليها فكاهة عن (بريمودور يفيرا) .

ـ في ميسوري أن أسألها أي نوع من المربب يحسبون أنّهم قد أساغوه داخل الريف[١] .

وقال « بيل » :

ـ إنها سخرية هزيلة ، هزيلة جداً . ليس في وسعك أن تحذق السخرية . هذا كل مافي الأمر ، إنّك لاتعرف أن تسخر . وليس لديك أي شفقة . قل شيئاً بسبيل الشفقة :

ـ« روبرت كون » .

ـ لابأس ، إنه موضوع يفضل غيره كثيراً ، نتساءل الآن : لماذا كان « روبرت كون » جديراً بالشفقة ؟ كن ساخراً في الجواب .

وقلت :

ـ ايه ، ياللجحيم ، مايزال الحديث عنه مبكّراً في هذا الصباح .

ـ هكذا ، وتزعم الى ذلك ، أنّك تريد أن تصبح كاتباً ؟ لست سوى صحافي مغترب ، عليك أن تكون ساخراً لحظة نهوضك من فراشك ، وعليك ، إمّا استيقظت ، أن تجعل فمك مليئاً بالشفقة .

وقلت :

ـ كفى! من الذي علّمك هذا الهراء ؟

ـ الناس كلّهم ، ألم تقرأ شيئاً ؟ ألم ترَ إنساناً من قبل ؟ أتعرف من أنت ؟ أنت مغترب ، لمَ لاتقيم في (نيويورك) ؟ . لو أقمت هناك لعرفت كل

---

(١) يعني بها المنطقة التي احتلّها الاسبان من مراكش (المغرب) .

هذه الأشياء ، ماذا تريد أن أفعل من أجلك ؟ أن أقدّم كل عام ، الى هنا ، لأروي لك ذلك كلّه ؟

وقلت :

ـ اشرب قليلاً من القهوة أيضاً .

ـ حسناً ، إن القهوة مفيدة لك ، إن فيها مادة (الكافئين) . (الكافئين) ؟ ها نحن أولاء... إن (الكافئين) تسلم الرجل قيادة نفسه ولكنها تفضي بالمرأة الى القبر . أتدري ماهو الشيء المزعج في وضعك ؟ إنه وضعك كمغترب ، إنه أقبح نموذج ومثال للإنسان ، ألم تسمع ذلك من قبل ؟ لم يكتب أي شخص غادر بلده شيئاً جديراً بأن ينشر ، حتّى لو في الجرائد . وشرب قهوته .

ـ أنت مغترب ، لقد فقدت تماسك بالأرض ، أضحيت ثميناً ، إن أنماطاً من مستوى معيشة أوروبي مزيّف قد أفسدتك . إنك مقبل على الشرب ، مستسلم لسلطان الغريزة والجنس ، تضيّع وقتك في الحديث بدلاً من العمل . أنت مغترب ، ألا ترى ذلك ؟ إنّك تنتقل بين المقاهي .

وقلت :

ـ تتجلّى لي الحياة هكذا عذبة سائغة ، فمتى أعمل ؟

ـ إنّك لاتعمل أي شيء ، بعضهم يدّعي أن النساء ينفقن عليك وبعضهم يزعم أنّك عنين .

وقلتِ :

ـ لا . . لقد كنت ضحية حادثُ ، ليس غير .

وقال « بيل » :

ـ لاتشر الى ذلك الآن ، هذا هو أحد الأشياء التي يجدر ألا تعرض لها في الحديث ، وهو ماينبغي أن تحوطه بالغموض ، إنه كدراجة « هنري » .

وكان يبدو منطلقاً في الكلام إنطلاقاً رائعاً ، ولكنه سكت فجأة . وخشيت أن يكون قد ظنّ أنني استأت من تندّره بعنانتي وأردت أن يتابع

كلامه فقلت :

ـ لم تكن درّاجة . كان يمتطي صهوة جواده .

ـ قيل لي أنه كان يستقل درّاجة بثلاث عجلات .

ـ لاضير ، إنّ الطائرة تشابه دراجة بثلاث عجلات ، إن المكبح في كلتيهما يعمل بالطريقة نفسها .

ـ ولكن ليس للطائرة دوّاسة .

وقلت :

ـ لا . أعتقد بأنه ليس لها دوّاسة .

وقال « بيل » :

ـ لنغيّر الحديث .

ـ كما تشاء . أنني أدافع عن الدرّاجة ذات العجلات الثلاث ، ليس غير .

وقال « بيل » :

ـ أحسب أنه كاتب جيّد ، وأنت شخص طيب ، على نحو هائل ، ألم يقل لك أحدٌ ما إنّك شخص طيّب ، من قبل ؟ .

ـ لست شخصاً طيباً .

ـ إصغ اليّ . أنت شخص طيّب على نحو هائل . وإنني لأحبّك أكثر من أي إنسان في الدنيا ، لن يكون في ميسوري أن أردّد هذا في (نيويورك) لئلا يحمل كلامي على أنني(درويش) . لقد كان هذا هو الذي أشعل نار الحرب الأهلية.. كان «ابراهيم لنكولن » درويشاً ، كان يحب الجنرال « غرانت » وكذلك كان « جيفرس دافيس » . وقد ألغى «لنكولن » الرق نتيجة الرهان ليس غير . ولم تحرّك قضيّة «دريد سكوت » إلا بتدخّل جمعية منع المسكرات . إن المسائل الجنسية تفسر كل هذا... إن عقلية الكولونيل ، و« جودي أوغريدي » هماالبسبوستيان حتّى منبت أظافرهما .

وأمسك عن الكلام ثمّ قال :

ـ هل تود سماع مزيد ؟

وقلت :

ـ تابع .

لاأدري شيئاً أكثر من هذا ، وسأروي لك شيئاً ونحن نتغدّى .

وقلت :

ـ إيه أيها العزيز «بيل» .

ـ أيّها الخبيث .

والتهمنا طعام الغداء ، وأتينا على زجاجتي خمر من الكيس ، وحمله «بيل» على ظهره ، ووضعت أنا غمد القصبات والشبكات في كيس على ظهري ، وأخذنا نمشي مصعدين . واجتزنا سهلاً . وألفينا درباً يعبر الحقول ، وأوغلنا في الغابة الممتدّة على سفح أوّل أكمة . ثمّ مضينا في الدرب الرملية عبر الحقول المتموّجة المعشوشبة . كان العشب صغيراً لأن الأغنام كانت قد رعته . وكانت القطعان تسرح في أعلى الأكمات ، وتناهى الى سمعنا أصوات أجراسها من الغابة .

وكانت الدرب تعبر نهراً ، وتمتد على جذع شجرة مصقول بالمنجر ، وقد انعطف فوقه فرع شجرة ليكون له متّكأ .

وكان صغار الضفادع في الماء الراكد الى جانب النهر ، ترفش الرمل . وعلونا ضفّة وعرة ثمّ جزنا حقولاً متموّجة . وتطامنت نظراتنا فصافحت (بورغيت) ورأينا بيوتها البيضاء وسطوحها الحمراء وطريقاً بيضاء تتدرّج في مداها سيارة بضائع وتثير سحباً من الغبار .

واجتزنا ، إثر الحقول ، نهراً آخر أكثر سرعة وتدفّقاً وكانت هناك درب رملية تنحدر وتنتهي الى مخاضة ، ثمّ تنساب في الغابة . وكانت الدرب تعبر النهر ، فوق المخاضة ، على جذع شجرة أيضاًلتستأنف امتداد الطريق...

ودخلنا الغابة ، وكانت حافلة بأشجار الزان ، وبدت لنا هرمة ، جذورها ناجمة عن الأرض ، وأغصانها مجدولة .

وحثثنا الخطى في الطريق بين جذوع أشجار الزان الضخمة الهرمة .

كانت الشمس تنفض أشعتها من فرجات الأغصان دوائر مضيئة فوق العشب .

وكانت جذوع الأشجار ضخمة وأوراق أغصانها كثيفة ، بيد أنّها لم تكن تشيع عتمة وكآبة . لم تكن ثمّة أشجار متواشجة ، بل كان ينبسط عشب ناعم حاني الخضرة[١] ندي . وكانت الأشجار الرمادية متنائية ، بعضها متباعد عن بعض بشكل منتظم ، كأنها مزروعة في حديقة عامة .

وقال « بيل » :

ـ هذا هو الريف .

وكانت الطريق آخذة في الصعود نحو الأكمة . ووصلنا الى غابة كثيفة والطريق لاتأتلي تعلو . مع أنّها قد تنخفض أحياناً ، لتستأنف صعودها ، صعبة المرتقى . وكانت أصوات القطعان تتأتّى الى سمعنا ، طوال الوقت من الغابات . وتوغّلنا ، بعدئذ ، في أعلى قمة من سلسلة الأكمات المشجّرة التي كنّا نراها من (بورغيت) . وكان التوت البرّي نامياً على الطرف المشمس من القمّة ، في بقعة صغيرة بين الأشجار .

وتلوتّ الطريق الخارجة من الغابة ، أمامنا ، لترتقي قمم الأكمات التي بدت لنا غير مشجّرة . وكانت تنفسح حقول وسيعة من شجر الرتم الأصفر ورأينا جرفاً مغطّى بالأشجار المظلمة وموشّى بالصخور الرمادية التي تمشي بمجرى نهر (إيراتي) .

ـ ينبغي أن نسلك هذه الطريق التي تتجه الى القمة ، ونتجاوز هذه الأكمات ونجتاز الغابات القائمة على تلك الأكمات البعيدة هناك ، ثمّ ننحدر الى وادي (ايراتي) .

وأشرت الى ذلك لـ « بيل » فقال :

ـ إنها مسيرة جهنمية .

ـ إنها بعيدة جداً ، إذا شئنا أن نذهب لنصطاد ثمّ نعود في يسر ، في

---

(١) الخضرة الضاربة الى سواد .

النهار نفسه .

ـ في يسر :إنها كلمة جميلة .علينا أن نضرب في طريق جهنّمية ، ثمّ نؤوب دون أن يتاح لنا أن نظفر بأي صيد .

وأخذنا نسير دائبين . كانت مناظر الريف جميلة جداً ، غير أننا شعرنا بالتعب حين جعلنا ننحدر في الطريق الوعرة الممتدة من الأكمات المشجّرة الى وادي (ريودولا فابريكا) .

وانبثقت الطريق من أفياء الغابة الى لظى الشمس ، وانساب أمامنا نهر في واديه ، وارتفعت من العدوة الثانية للنهر أكمة وعرة . وكان ينفسح فوق الأكمة حقل من الحنطة السوداء .

ورأينا بيتاً أبيض ، قائماً بين بعض الشجيرات على سفح الأكمّة . وكان الحرّ شديداً ، فتوقّفنا في فيء الشجر ، الى جانب سد يقطع النهر .

وألقى «بيل» كيسه قبالة إحدى الشجيرات ، وشرعنا نتهيّأ للصيد ، بعد أن وصلنا قصبات السماكة وأعددنا الملفّات .

وسأل «بيل» :

ـ أمتأكّد أنت من أنه يوجد هنا سمك الاطروط ؟

ـ إنه متوفّر بكثرة هنا .

ـ سأصيد أنا بطعم ذبابة . هل جلبت معك علبة ذباب(ماك جينتيس) ؟

ـ يوجد شيء منه هناك .

ـ هل تنوي أن تصيد بطعم دودة ؟

ـ أجل . سوف أصيد هنا ، في ماء السد .

ـ اذن سوف آخذ علبة الذباب (وعلق ذبابة) . أين ينبغي أن أذهب ؟ أفي اتجاه عالية النهر أم سافلته ؟

ـ من الأفضل في اتجاه سافلته . ولكن يوجد كثير من السمك في عاليته أيضاً .

ونزل «بيل» الى الضفّة .

ـ خذ معك علبة من علب الديدان .

ـ لا . لا أريد . إذا لم يرغب السمك في الذباب فلسوف أرمي بالقصبة .

وكان « بيل » على الضفة الوطيئة ، يحدّق الى النهر . وعلا صوته على هدير ماء السد ، صارخاً :

ــ اسمع... هلاّ وضعت زجاجتي الخمر في الخزّان ، هناك ، في أعلى الطريق ، وصرخت :

ـ حسناً .ولوّح « بيل » بيده وجعل يهبط في اتجاه مسير النهر ، ووجدت زجاجتي الخمر في الكيس فأخرجتهما وسعيت الى النبع حيث ينبجس الماء من خزّان ويسيل في قناة حديدية . وكان فوق الخزّان لوح خشبي فرفعته ، وكبست سدّادتي الزجاجتين في قوة ، ثمّ غوّصتهما في الماء ، وكان من البرودة ، ماهراً ساعدي وراحتي . وأعدت اللوح الخشبي الى مكانه ، آملاً ألا يستطيع أحد العثور على الخمر .

أمسكت بقصبتي التي كنت قد أسندتها الى جذع شجرة ، وأخذت علبة الطعوم والشبكة ، ومشيت فوق السد ، الذي كان قد بني ، ليتوفّر الماء اللازم لتعويم الخشب ونقله . وكان حاجز السد مفتوحاً ، فجلست على أحد الألواح السنديانية المربّعة ، وأخذت أتأمّل في سطح الماء الهادىء الأملس شلاّلاً . وكان الماء المزبد الأبيض بحذاء أسفل السد ، عميقاً . وفيما كنت أضع الطعم نطّت سمكة من الماء الى مهبط الشلاّل ثم توارت ، وما كدت أنتهي من وضع الطعم حتى نطت سمكة أخرى الى الشلال ، بالحركة الدائرية الرشيقة نفسها . ثمّ اختفت في الماء الهادر . ووضعت راسباً متوسّط الحجم ودفعت بخيط قصبتي الى الماء الأبيض صوب حافة ألواح السد .

ولم أشعر بالسمكة الأولى وهي تعض الطعم ، ولكن ، حين شرعت أجذب الخيط ألفيت أنني اصطدت سمكة وسحبتها ، فيما كانت تتخبّط وتعطف قصبتي من الماء الجيّاش في مهبط الشلال . وأرجحتها في الفضاء قبالة السد . كانت سمكة رائعة ، وضربت رأسها باللوح الخشبي فتخلّجت وقرّت

حركتها ثمَ أزلقتها في سفطي .

وكانت سمكات عديدة قد نطّت ، فيما كنت أصيد هذه السمكة ، الى مهبط الشلال . وماكدت أضع الطعم وأرمي بخيط قصبتي حتّى ظفرت بثانية ووضعتها الى جانب الأخرى ، وأضحى لدي بعد فترة قصيرة ، ست سمكات . وكانت جميعها ذات أحجام متقاربة ، ورصفتها ، الواحدة منها الى جانب الأخرى ، ورؤوسها متّجهة الى طرف واحد ، وأخذت أدقّق في النظر . كانت ألوانها ساحرة ، وقد صيّرها الماء البارد جامدة صلبة . وإذ كان النهار قائظاً ، فقد بقرتها كلّها ونزعت أحشاءها ورميت بأحشائها في النهر . ثمّ وضعتها على الشط وغسلتها بالماء البارد الساكن الثقيل ، فوق السد ، ثمّ قطفت أوراقاً من نبات الخنشار ولففتها بها ، في السفط ، فوضعت ثلاث سمكات على وريقات الخنشار ، وفوقها ثلاث أخر ثمّ غطّيتها بوريقات الخنشار ، وكانت تتراءى لطيفة جميلة تحت الأوراق ، وأضحى السفط ممتلئاً بها فنقلته الى فيء شجرة .

كان الجو حاراً على السد ، فوضعت علبة الديدان في الظل الى جانب السفط . وأخذت كتاباً من الكيس وتفيّأت شجرة لأقرأ ، منتظراً أوبة « بيل » لنتغدّى سويّة .

وكان الوقت بعد الظهيرة ، وتقلّصت الظلال ، بيد أنني أسندت ظهري الى جذعي شجرتين متجاورتين وأخذت أقرأ .

وكان الكتاب من تأليف (أ . ي . ماسون) ، وقرأت قصة رائعة عن رجل تجمّد في جبال الألب ، إذ سقط في كتلة من الجليد حيث اختفى . وكانت خطيبته تعدّ نفسها لأن تنتظر مدى أربعة وعشرين عاماً ، حتّى يأزف اليوم الذي تخرج جثّته من ركام الجليد ، في حين كان الرجل الذي تحبّه حقّاً ينتظر أيضاً . وكان كلاهما بسبيل الانتظار ، في القصة ، حين أقبل اليّ « بيل » سائلاً :

ـ هل اصطدت شيئاً ؟

وكان يحمل بيده قصبته وسفطه وشبكته ، وكان جسمه ينتضح عرقاً ، ولم اسمعه حين أتى ، بسبب هدير المياه المتساقطة من السد .

ـ ست سمكات ، وأنت ؟

وجلس «بيل» وفتح سفطه وأراح على العشب سمكة كبيرة ، وأخرج ثلاث سمكات أخر ، كل واحدة منها أكبر من سابقتها ، وصفّها بعضها الى جانب بعض في ظل الشجرة ، وكان وجهه المتألّق بالفرح يقطر عرقاً ، وقال :

ـ وما حجم سمكاتك ؟

ـ إنها أصغر من سمكاتك .

ـ أرني إيّاها .

ـ لقد لففتها .

ـ ماطولها ؟ حقّاً ؟

ـ طول الواحدة منها يقارب أصغر سمكة من سمكاتك .

ـ ألا تغشّني ؟

ـ أود ذلك .

ـ هل اصطدتها كلّها بالطعم ؟

ـ أجل .

ـ يالك من كسول!

وأعاد «بيل» السمكات الى السفط ومضى الى النهر وهو يراوح السفط المفتوح . وكان «بيل» مبلّلاً حتّى خصره ، وعرفت أنه قد خوّض في النهر . وذهبت صعداً في الطريق لآتي بزجاجتي الخمر ، فألفيتهما باردتين . وحين عدت الى شجراتنا كانتا تقطّران نداوة . ووضعت طعام الغداء على جريدة ، وفتحت إحدى الزجاجتين ، مسنداً الأخرى الى شجرة .

وتقدّم «بيل» وهو يجفّف يديه ، وسفطه مليء بنبات الخنشار ، وقال :

ـ لننظر الى هذه الزجاجة(وفتحها وأمالها ثمّ شرب) أي . إنها تؤلم عيني .

ـ دعني أجرّب .

وكانت الخمر مثلّجة ، وكان يمازج مذاقها شيء من الصدأ .

وقال « بيل » :

ـ ليست بالخمر الرديئة .

وقلت :

ـ إن البرد يحسن منها .

وفتحنا مزادة[1] الغداء الصغيرة .

ـ دجاج .

ـ وهذا بيض مسلوق .

ـ هل وجدت الملح ؟

وقال « بيل » :

ـ لنأخذ البيض أوّلاً ثمّ الدجاج ، لعلّ « بريان » يرى ذلك أيضاً .

ـ لقد مات . قرأت الخبر أمس في الجريدة .

ـ حقاً ؟

ـ أجل . لقد مات « بريان » .

ووضع « بيل » البيضة التي كان يقشّرها وقال :

ـ سادتي (وأخرج من ورقة جريدة ساق دجاجة) إنني أعاكس النظام من أجل « بريان » ، إننا نبدأ ، تكريماً لذكرى النائب العظيم بالدجاج ثمّ نشفعه بالبيض .

ـ إنني أتساءل : في أي يوم خلق الله الدجاج ؟

وقال « بيل » : وهو يمصمص قطعة فخذ .

ـ كيف تريد أن تعرف ذلك ؟ ينبغي ألا نناقش هذا . إن بقاءنا على الأرض ليس بطويل ، فلنتمتّع ولنؤمن بالله ولنحمده .

---

(١) المزادة : ما يوضع فيه الزاد . ولعل العامية اشتقت منه الزوادة وهو طعام السفر . (المعرب)

ـ هلاّ أكلت بيضة .

وكان « بيل » يحرّك يديه ممسكاً بيدٍ قطعة الفخذ وبيد زجاجة الخمر .

ـ لنتمتّع ببركة السماء . ولنسغْ طيورالسماء ونستضف نتاج الكرمة . هل تود ياأخي أن تحظى بشيء من ذلك ؟

ـ في أثرك ياأخي .

وشرب « بيل » جرعة كبيرة ، وتابع :

ـ خذ قليلاً منها (وناولني الزجاجة) ، ولا تستسلم الى الشك ياأخي ، وإيّاك أن تبتهل وأنت تفضّ أسرار الدجاج المقدّسة ، بأصابعك القردية . لنعتقد بقلب مؤمن ، ولنقل في بساطة : « أريد أن تنضمّوا الينا لنقول » : ماذا ينبغي أن نقول ياأخي ؟

وأومأ لي بقطعة الفخذ وأردف :

ـ دعني أقل لك ، وإنني لفخور بأن أقوله ـ وأريد أن تقوله معي ياأخي ونحن راكعان ـ ينبغي ألا يخجل أي انسان من الركوع هنا ، في هذا المنفسح من الفضاء ، تذكّر أنّ الغابات كانت المعابد الأولى للرب ، فلنركع ولنقل : « لاتأكل هذه اللادي . يمكن أن تكون « مينكن » .

وقلت :

ـ إيه اشرب قليلاً من هذه .

وفتحنا الزجاجةالثانية ، وقلت :

ـ ماذا دهاك : تراك لاتحب « بريان » ؟

وقال :

ـ أنا ؟ ولكنّني أعشقه ، كنّا كأخوين . .

ـ أين تعرّفت اليه ؟

ـ كنّا أنا وهو و« مينيكن » سويّة في معهد (هولي كروس) .

ـ« وفريدريك فريش » .

ـ « ليس هذا بصحيح ، لقد ذهب « فرانكي فريش » الى « فوردهام » .

وقلت :

ـ أمّا أنا فقد ذهبت الى (لوايولا) مع القس «ماينتغ» .

وقال «بيل» :

هذا كذب... فقد ذهبت أنا الى (لوايولا) مع القس «مايينغ» .

وقلت :

ـ أنت سكران .

ـ من الخمر ؟

ـ لم لا ؟

وقال «بيل» :

ـ من الرطوبة ، ينبغي أن تزول هذه الرطوبة اللعينة .

ـ اشرب قدحاً آخر .

ـ أهذا كل مالدينا ؟

ـ زجاجتان .

ـ أتدري من أنت ؟

ونظر «بيل» الى الزجاجة في حنان . وقلت :

ـ لا .

ـ أنت من يعمل لمصلحة جمعية منع المسكرات .

ـ لقد ذهبت الى معهد (نوتردام) مع «داين ويلر» .

وقال «بيل» :

ليس هذا بصحيح . لقد ذهبت أنا الى مدرسة التجارة في (أوستن) مع «داين ويلر» . كان رئيساً في صفه .

وقلت :

ـ حسناً يجب أن تزول الحانة .

وقال «بيل» :

ـ رأيك صائب يازميلي في الدراسة ، يجب أن تزول الحانة ، وسآخذها معي...

ـ أنت سكران .

ـ من الخمر ؟

ـ من الخمر .

ـ حسناً لعلّي أن أكونه .

ـ هل تود أن تنام قليلاً ؟

ـ حسناً .

واضطجعنا ، ورأسانا في الفيء ، ونحن نحدّق الى الأشجار .

ـ هل نمت ؟

وقال « بيل » :

ـ لا أنا أفكّر .

ـ وأغمضت عينيّ . إنّ الاضطجاع على الأرض لذيذ .

وقال « بيل » :

ـ هل ذكرت لي ما هي قصّة « بريت » ؟

ـ أي قصّة ؟

ـ هل كنت تتعشّقها من قبل ؟

ـ طبعاً .

ـ كم استمر ذلك من الوقت ؟

ـ في غضون فترات مديدة جهنّمية من الوقت .

وقال « بيل » :

ـ أوه ياللجحيم! عفواً اليك ياعزيزي .

وقلت :

ـ لابأس عليك ، إنني لاأعبأ بذلك الآن .

ـ حقّاً ؟

ـ حقّاً . ولكنني أود الا يعرض الحديث الى ذلك البتّة . .

ـ هل استأت ، لأنني سألتك ذلك ؟

ـ ومم أستاء ؟

وقال « بيل » : ـ سأنام .

وغطّى وجهه بالجريدة ، وقال :

ـ قل لي يا « جاك » أأنت كاثوليكي حقّاً ؟

ـ بصورة فعلية .

ـ ماذا تعني بذلك ؟

ـ لا أدري .

وقال :

ـ حسناً ، والآن ، سأنام ، لا تزعجني بأحاديثك .

ونمت أنا أيضاً ، ولمّا استفقت ، كان « بيل » يعدّ كيسه . كان النهار قد مضى أكثره ، وكان ظل الأشجار يمتد ، طويلاً ، حتّى بلغ السد . وشعرت بتيبّس في أوصالي إثر رقادي على الأرض .

وقال « بيل » :

ـ ماذا فعلت ؟ هل استيقظت ؟ لمَ لا تبقى هنا الليلة كلّها ؟

وتمطّيت وفركت عينيّ .

وقال « بيل » :

لقد رأيت حلماً حلواً ، لا أذكر تفاصيله ، ولكنه كان حلماً رائعاً ،

ـ أحسب أنني لم أحلم أي حلم .

وقال « بيل » :

ـ كان عليك أن تحلم بشيء . إنّ كل رجال الأعمال العظام ، عندنا ، كانوا حالمين . انظر الى « فورد » وانظر الى الرئيس « كوليدج » والى « روكفلر » والى « جو دافيدسون » .

وطويت قصبتي وقصبة « بيل » ووضعتهما في الغمد ، كما وضعت الملفاف في كيس الصيد . وكان « بيل » قد انتهى من ترتيب الكيس ، ووضعنا فيه سفط السمك ، وحملت أنا السفط الآخر ، وقال « بيل » :

ـ وبعد ؟ فهل أخذنا كلّ شيء ؟

ـ والديدان ؟

ـ ديدانك ؟ ضعها هنا .

وكان الكيس على ظهره ، فوضعتها في إحدى جيوبه الجانبية .

ـ هل أخذت كل شيء الآن ؟

وأجلت نظري حولي ، فوق العشب ، وعند منابت جذوع الأشجار .

ـ أجل .

وسلكنا الطريق بين الغابات ، وكانت مسيرتنا الى (بورغيت) طويلة . وكانت الظلمة قد غلبت حين انحدرنا ، عبر الحقول ، في الطريق التي أفضت بنا الى الفندق القابع بين بيوت القرية ذات النوافذ المضيئة .

وأقمنا في (بورغيت) خمسة أيّام كان فيها صيدنا وفيراً . وكان الليل رطباً والنهار حاراً ، والنسيم يهب دوماً ، حتّى في الساعات القائظة من النهار . وكانت الحرارة قويّة الى حد أننا كنّا نجد متعة كبيرة في التخويض وسط الماء البارد ، وكانت تنشّفنا ونحن جالسان على الضفّة ، وقد عثرنا على نهر ذي بركة عميقة صالحة للسباحة . وفي المساء كنّا نلعب البريدج مع ثالث لنا ، وكان انكليزيّاً يدعى « هاريس » ، جاء سيراً على قدميه ، من (سان جانبييه دوبور) وأقام في الفندق بغية الصيد . وكان لطيفاً جداً ، وقد رافقنا مرّتين الى نهر (إيراتي) . ولم يصلنا أي خبر من « روبرت كون » ولا من « بريت » و« مايك » .

الفَصلُ الثَالثَ عَشَر

ذات صباح ، نزلت لأتناول طعام الفطور ، وكان « هاريس » جالساً الى الطاولة يقرأ في جريدة ، واضعاً نظّارته . ونظر اليّ وهو يبتسم وقال :

ـ صباح الخير ، توجد رسالة موجّهة اليك ، لقد توقّفت في مكتب البريد فسلمنيها مع الرسائل الخاصة بي .

وكانت الرسالة موضوعة أمام مجلسي من الطاولة ، ومسندة الى فنجان القهوة ، وكان « هاريس » منصرفاً الى مطالعة الجريدة . وفتحت الرسالة . كانت مؤرّخةمن يوم الأحد . سان سيباستيان :

« عزيزي جاك »

لقد وصلنا الى هنا ، يوم الجمعة . وقد مرضت « بريت » في القطار مرضاً شديداً . وقد جئنا الى هنا لنستريح ثلاثة أيّام لدى رفاق قدماء لنا . سنقدم يوم الثلاثاء ، الى فندق (مونتويا) في (بامبيلونه) ، ولاأدري في أي ساعة سنصل . ابعث الينا بكلمة ، بواسطة الأوتوبيس ، لتعلّمنا كيف نستطيع أن نلتقي بكما ، يوم الأربعاء تحيّة ودّية من كلينا ، وألف اعتذار على تأخّرنا . لقد كانت « بريت » في الحق ، على آخر رمق من الوهن ، وسوف تستعيد قواها يوم الثلاثاء تماماً . ويمكن أن نقول إنّها قد استعادت قواها ، فعلاً الآن . إنني أعرفها جيّداً ، وأجهد في العناية بها . وهذا ليس بالأمر اليسير ، التحيّات الى جميع الأخوان .

« ميشيل »

وسألت «هاريس» :

ـ أي يوم هذا اليوم من الإسبوع ؟

ـ أحسب أنه يوم الأربعاء ، بلى ، الأربعاء ، إنه لشيء عجيب ، كيف ينسى المرء مفهوم الزمن في هذه الجبال!

ـ أجل . هاقد مضى علينا أسبوع تقريباً ، ونحن هنا .

آمل ألا تفكّرا في الرحيل .

ـ أجل ، أخشى أن نكون مضطرّين الى الرحيل ، في الأوتوبيس الذاهب بعد الظهر .

ـ إنه لشيء مضايق . لكم كنت أرجو أن تتاح لنا فرصة أخرى نذهب فيها الى نهر (إيراتي) .

ـ علينا أن نعود الى (بامبيلونه) فإنّ لنا فيها موعداً مع أصدقاء .

ـ يا لحظّي السيّئ! لقد أمضينا هنا ، في (بورغيت) ، وقتاً ممتعاً .

ـ تعال معنا الى (بامبيلونه) ، سوف يكون في ميسورنا أن نلعب البريدج ، ولسوف يكون العيد (الفييستا) رائعاً جداً .

ـ كم أودّ ذلك ، إنه للطف منك أن تطلب اليّ ذلك ، ولكنني أبقى هنا ، إذ لم يبق لدي منفسح كافٍ من الوقت للصيد .

ـ إنّك ترغب في السمكات الكبيرات من نهر (إيراتي) .

ـ أوه ، أظن ذلك ، ابقى يوماً آخر تكن إنساناً كريماً .

ـ علينا أن نعود الى (بامبيلونه) .

ـ وا أسفاه .

ولمّا انتهى طعام الفطور جلست أنا و«بيل» على مقعد ، قبالة الفندق ، نتمتّع بدفء أشعة الشمس وأخذنا نتداول الرأي في الأمر . ورأيت فتاة تتقدّم من الطريق . كانت آتية من مركز المدينة . وتوقّفت أمامنا ، وأخرجت برقية من قمطر جلدي يتدلّى على ثوبها . وقالت :

ـ Por Ustedes الى حضرتكم ؟

ونظرت الى البرقية ، وكان العنوان : الى « بارنس » ـ (بورغيت) .
وقلت :
ـ أجل هي لنا .
وأخرجت دفتراً لأضع فيه توقيعي ، وأعطيتها قطعتين نحاسيّتين من النقد
وكانت البرقية بالاسبانية :

Vengo Jueves

« كون »

ـ ماذا تعني كلمة « كون » ؟
وقلت :
ـ يا لها من برقية بلهاء! كان في وسعه أن يضع عشر كلمات ويدفع الثمن نفسه ، إنه يقول : « سأصل الخميس » ـ « كون » إنّ هذا يعني شيئاً كثيراً ، ألا تجد ذلك :
ـ هذا يفسّر لك كل ما يهم « كون » .
وقلت :
ـ سنسافر على أي حال ، من العبث أن نستقدم « بريت » و« مايك » الى هنا ، ثمّ نعود ، بعد ذلك ، لنحضر العيد ، (الفييستا) . هل يتعيّن علينا أن نرد على البرقية ؟
وقال « بيل » :
ـ هذا أفضل ، فلسنا بحاجةالى أن نتصنّع التعالي .
وذهبنا الى مكتب البريد وطلبنا ورقة برقية ، وسأل « بيل » :
ـ ماذا ستكتب له ؟
ـ سنصل مساء ، هذاكاف .
ودفعنا أجرة البرقية ، وعدنا مشياً الى الفندق ، وكان « هاريس » هناك .
وصعدنا نحن الثلاثة الى (رونسوفو) ، لنزور الكنيسة .
وقال « هاريس » بينما كنّا نخرج منها :

ـ إنهَ مكان آخّاذ . بيد أنّ هذه الأشياء لاتثيرتطلّعي .

وقال « بيل » :

ـ ولاتثير تطلّعي أيضاً .

وقال « هاريس » :

ـ ومع ذلك ، فإنه مكان آخّاذ ، كنت أوشك ألا أظفر برؤيته ، فقد كنت كل يوم أنوي زيارته ثمّ أرجىء الزيارة .

وقال « بيل » :

إنه كالصيد ، على أي حال . أليس كذلك ؟

وكان « بيل » يحب « هاريس » ، وأجابه « هاريس » :

ـ لست أظنّ ذلك .

وتوقّفنا أمام معبد الكنيسة القديم .

وسأل « هاريس » :

ـ أليست تلك بحانة ، هناك ، على الجانب الثاني من الطريق ، أم أنّ عيني تخدعانني ؟

وقال « بيل » :

ـ إنها تشبه حانة .

وقلت :

ـ تتراءى لي كأنّها حانة .

ـ هل لنا أن نستعملها ؟ (لقد أخذ عن « بيل » فعل : استعمل) .

واحتسى كل واحد منّا زجاجة خمر ، ولم يدعنا « هاريس » ندفع ثمنها ، وكان يتكلّم الاسبانيّة جيّداً . وتمنّع صاحب الحانة من أخذ الثمن وقال « هاريس » :

ـ إنّكما لاتعرفان ، ماذا يعني بالنسبة لي ، وجود كما معي هنا .

ـ لقد أمضينا وقتاً طيّباً ، يا « هاريس » .

وكان « هاريس » قد سكر بعض الشيء . وقال :

ـ أقولها لكما ، أنكما لاتعرفان ماذا يعني هذا بالنسبة اليّ ، إنني لم أسغْ مثل هذه المتعة قط ، منذ الحرب .

ـ سوف نصيد معاً ، يوماً ما ، لاتنس ذلك يا « هاريس » .

ـ بلى ، بلى ، علينا أن نقوم بذلك ، يوماً ما ، لقد أمضينا أوقاتاً هنيئة .

ـ هلاّ شربنا زجاجة أخرى .

وقال « هاريس » :

ـ إنّها فكرة جميلة .

وقال « بيل » :

ـ الآن دوري في الدفع ، وإلا رفضنا أن نشرب .

ـ أود أن تدعاني أدفع ، إن هذا ليسرّني كثيراً .

وقال « بيل » :

ـ في هذه المرّة ، يجب أن أظفر أنا بالسرور .

وأحضر لنا صاحب الحانة الزجاجة الرابعة ، واحتفظنا بأقداحنا ، ورفع « هاريس » قدحه .

ـ حقّاً إن هذا « يستعمل » جيّداً .

وربت « بيل » على ظهره :

ـ أيّها العزيز « هاريس » .

ـ ألا تعلمان أنّ اسمي في الواقع ليس« هاريس » ، بل « ويلسون ـ هاريس » إنه اسم مركّب مع فاصل بين جزأيه . وقال « بيل » :

ـ ياعزيزي « ويلسون ـ هاريس » إننا ندعوك « هاريس » لأننا نحبّك كثيراً .

ـ كما ذكرت لك يا « بارنس » ! إنّك لاتدري ماذا يعني هذا بالنسبة اليّ .

وقلت :

هلاّ « استعملت » قدحاً آخر .

ـ « بارنس » ، حقّاً يا « بارنس » ليس في ميسورك أن تعرف . . هذا كل شيء .

ـ اشرب يا « هاريس » .

وعدنا ، مشياً ، من (رونسوفو) يتوسّطنا « هاريس » ، وتغدّينا في الفندق ، ورافقنا « هاريس »الى الأوتوبوس ، وأعطانا بطاقته ، وكانت تشير الى عنوانه في (لندن) ، وناديه وعنوانه التجاري . وفيما كنّا نصعد الاوتوبوس اعطى « هاريس » كلاً منّا ظرفاً وفتحت ظرفي فإذا بي أجد دزينة من الذباب ، كان « هاريس » قد علقها ونسقّها ، وكان يعلّق ذباباته كلّها .

وقلت :

ـ ما هذا يا « هاريس » ؟

فقال :

ـ لا ، لا ، (وكان يهم بالنزول من الأوتوبيس) ، ليست ذبابات من النوع الجيّد ، بيد أنني قد فكّرت في أنّها قد تذكركما إذا شئتما أن تصيدا يوماً ما ، بتلك الأويقات الحلوة التي أمضيناها معاً .

ومضى الأوتوبيس ، وكان « هاريس » واقفاً أمام مكتب البريد ، ولوّح بيده ، ولمّا مضينا ، انقلب راجعاً الى الفندق .

وقال « بيل » :

ـ يا له من إنسان طيّب!

ـ أحسب أنه أمضى في الواقع ، وقتاً ممتعاً .

ـ من ؟ هاريس ؟ أظن ذلك .

ـ كم تمنّيت لو أنه قدم معنا الى (بامبيلونه) .

ـ ولكنه يرغب في الصيد .

ـ أجل . وبعد ، فليس في ميسورك أن تقول كيف يعاشر هؤلاء الانكليز ويخالط بعضهم بعضاً .

ـ افترض خلاف ذلك .

ووصلنا الى (بامبيلونه) ، عصراً ، وتوقّف الأوتوبيس أمام فندق (مونتويا) . وكان ثمّ عمّال في الساحة يمدّون أسلاكاً كهربائية لإنارة الساحة

أثناء العيد (الفييستا) . واقترب منّا بعض الصبية ، حيث توقّف الأوتوبيس ، وطلب موظّف الجمرك الى جميع المسافرين فتح حقائبهم على الرصيف . ودخلنا الفندق ، ووجدت « مونتويا » على الدرج ، وصافحنا ، وعلى شفتيه ابتسامة مرتبكة ، وقال :

ـ إن أصدقائكم هنا .

ـ السيّد « كامبيبل » ؟

ـ أجل ، السيد « كون » والسيد « كامبيبل » واللادي « اشلي » . وابتسم كأن ثمة شيئاً يهمّني أن أسمعه .

ـ متى جاءوا ؟

ـ البارحة ، لقد احتفظت لهم بالغرفتين اللتين كنتما فيهما .

ـ حسناً ، هل أعطيت السيد « كامبيبل » الغرفة المطلّة على الساحة ؟

ـ لقد رأينا الغرف كلّها .

ـ وأين أصدقاؤنا الآن ؟

ـ أحسب أنهم ذهبوا ليلعبوا (البيلوته) .

ـ وما حال الثيران ؟

وابتسم « مونتويا » وقال :

ـ مساء ، في الساعة السابعة مساء ، سوف تنقل ثيران (فيلار) وغداً ثيران (ميوراس) . أتذهبون لمشاهدتها ؟

ـ أوه أجل ، إنهم لم يشاهدوا ، من قبل النقل Desencajonada(١) .

ووضع « مونتويا » يده على كتفي .

ـ سوف أراك هناك .

وابتسم من جديد ، وكان لايأتلي يبتسم كأن مصارعة الثيران سرٌّ خاص بيني وبينه ، سر منفر ، ولكنه سرّ عميق ، يعرفه كلانا .

---

(١) النقل في اسبانيا ويعني بها نقل الثيران . (المعرّب)

كان لايني يبتسم ، كأن ثمة شيئاً معيباً يجده الغير في هذا السر ، ولكنه شيء معروف منّا ، شيء لايمكن أن يشرح أمام أشخاص لايفهمونه .

ـ أيكون صديقك ولوعاً Aficionado أيضاً ؟

وكان « مونتويا » يبتسم لـ« بيل » .

ـ بلى ، لقد جاء من (نيويورك) ليرى عيد (سان فيرمين)

ـ أجل (كان « مونتويا » ريبيّاً مؤدّباً) ولكنه ليس ولوعاً (Afi-cionado) ، مثلك .

ووضع يده على كتفي ، مرّة أخرى ، مرتبكاً . وقلت :

ـ بلى إنه ولوع Aficionado حقّاً .

ـ ولكنه ليس بولوع مثلك .

إنّ كلمة (Aficio) تعني بالاسبانية الولع ، والولوع (Aficionado) هو الولوع بمصارعة الثيران . إن جميع مصارعي الثيران النابهين ، ينزلون في فندق (مونتويا) ، وأعني بهم أولئك الذين يستأثرون بإعجاب الولوعين (Afi-cionados) ، أمّا مصارعو الثيران التجاريّون ، فإنهم ينزلون في فندق (مونتويا) مرّة واحدة ولكنّهم قد لايعودون اليه .

إنّ النابهين من مصارعي الثيران يقصدونه كل سنة ، وكان (مونتويا) يحتفظ بصورهم الفوتوغرافية في غرفه . وكانت موقّعة ومهداة الى « جوانيتو مونتويا » أو الى أخته . وكانت صور مصارعي الثيران الذين آمن « مونتويا » بتفوّقهم تحظى بأطر لها . أمّا صور مصارعي الثيران الذين لايظفرون بولع المعجبين فقد كان « مونتويا » يحتفظ بها في درج مكتبه ، وكانت تحمل ، على الجملة ، إهداءً كثير الإطراء ، ولكنّه لايعني شيئاً . وقد قذف بها كلّها « مونتويا » ، الى سهلة المهملات ، إذ لم يكن يود أن يراها قريبة منه .

وكنّا نتحدّث أحياناً عن الثيران ومصارعي الثيران ، فقد تجرّمت سنوات عديدة وأنا أنزل في فندق « مونتويا » . ولم نكن نتحدّث في كل مرّة طويلاً ،

فقد كنّا نجتزئ بمتعة تبادل الرأي .

وكان ثمة رجال يقدمون الى هنا ، من مدن قصيّة ، فيتوقّفون بضع دقائق ، قبل مغادرة (بامبيلونه) ليتحدّثوا الى « مونتويا » عن الثيران .

وكان هؤلاء الرجال من زمرة الولوعين (Aficionados) وكان في ميسور أي ولوع أن يجد غرفة في الفندق حتّى ولو كان ممتلئاً . وقد عرّفني « مونتويا » ببعضهم . وكانوا يظهرون دوماً ، في مستهل التعارف مهذّبين . وكان يطرفهم كثيراً أن أكون امريكيّاً ، فقد كان يفترض ، مسبقاً ، أنه ليس في وسع أمريكي ما أن يكون لديه ولع (Aficion) . وقد يكون في مقدوره أن يتظاهر به أو يواريه بالتحمّس ولكنه لا يستطيع في الواقع ، أن يظفر به . وكانوا يرون أن لدي هذا الولع ، ولم يكن هناك ـ للتحقّق من ذلك ـ كلمات سرّية أو أسئلة معدّة من قبل ، بل كان الأمر لا يعدو أن يكون امتحاناً شفهيّاً أو أسئلة متعلّقة ، دوماً ، بشيء عن الدفاع ، وغير ظاهرة البتّة . وكان يرافق هذا كلّه : أن يضع الشخص يده على كتف المتحدّث ، بطريقة مرتبكة متماثلة ، أو أن يلقي بتحية (Buen hombre)[١] وكان هناك ، على الجملة ، تماس جسمي ، فكأنهم كانوا بحاجة الى اللمس ليصلوا منه الى اليقين .

وكان في ميسور « مونتويا » أن يغفر أي سيئة لمصارع ثيران يحظى بالولع ، كان في استطاعته أن يغفر له النوبات العصبية والفزع ، والخطأ الذي لاتعليل له وأي زلّة أو هفوة . وكان في مكنته أن يغفر ، الى ذلك ، أي شيء لمن يعرف لديه هذا الولع (Aficion) . ولقد غفر لي ، دون ريب ، هفوات أصدقائي ، ودون أن يفضي اليّ بشيء صراحة ، فقد كان يعتبرها أشياء مخجلة بعض الشيء وحسب ، تشبه مثلاً ، بقر بطون الجياد في حفلة مصارعة الثيران .

---

(١) تحية أيها الرجل . وردت بالاسبانية . (المعرّب)

وكان «بيل» قد صعد الى غرفته ، حين دخلنا ، وألفيته يغتسل ويغيّر ثيابه الداخلية في غرفته . وقال لي :

ـ إيه . لقد تحدّثت بالاسبانية كثيراً ، أليس كذلك ؟

ـ كان يحدّثني عن الثيران التي ستقدَم ، الليلة .

ـ علينا أن نجد الآخرين ، وانزل أنت بعد ذلك .

ـ حسناً ، إنهم ، على الأرجح ، في المقهى .

ـ هل اشتريت البطاقات ؟

ـ أجل ، لقد حصلت على بطاقات مشاهدة نقل الثيران .

ـ وأي شيء هذا ؟

وكان يشدّ وجنته أمام المرآة ، ليرى إن كان ثمة موضع من عارضيه ، لم يحلق .

وقلت :

ـ إنه لشيء مثير ، إنهم يدعون الثيران تخرج من أقفاصها ، واحداً في إثر واحد . وفي (الكورال) أي الحظيرة تقف بعض الأبقار لتحول دون تقاتلها ، إذ تهجم الثيران على الأبقار التي تركض كعوانس عجائز ، بغية تهدئتها .

ـ وهل تنطح الثيران هذه الأبقار ؟

ـ طبعاً ، تبادرها أحياناً فتنطحها وتودي بها .

ـ وهل تستطيع الأبقار أن تفعل شيئاً ما ؟

ـ لا ، إنّها لا تملك سوى أن تتودّد اليها .

ـ ولماذا تجلب هذه الأبقار ؟

ـ لتهدئة الثيران ، ولئلا تحطّم قرونها على الجدران الحجرية ، ولئلاّ يقتل بعضها بعضاً .

ـ لابدّ أنّ هذه الأبقار لطيفة .

وانحدرنا وخرجنا من الباب ، فاجتزنا الساحة ، ميمّمين شطر مقهى (إيرونا) . وكان في الساحة محلاّن منفردان لبيع البطاقات ، وكانت شبابيك

البطاقات التي سجّل عليها Sol y Somdra[١] وSombra[٢] مغلقة ، ولم تكن تفتح إلا في اليوم السابق لعيد (الفييستا) .

وكانت تمتد من الجانب الآخر في ساحة حتّى حيد الرصيف ، الطاولات الخيزرانية البيضاء وكراسي مقهى (إيرونا) المظلّلة بالقناطر .

وفتّشت عن « بريت » و« مايك » فألفيت الجميع هناك : « بريت » و « مايك » و« روبرت كون » . وكانت « بريت » تضع قبعة باسكية كما كان « مايك » يضع أيضاً قبعة باسكية ، بيد أنّ « روبرت كون » كان حاسر الرأس ، وكان واضعاً نظارته . ورأتنا « بريت » بينما كنّا نقترب منهم ، ولوّحت لنا بيدها ، وغمزت بعينها حين وصلنا الى الطاولة ، وهتفت قائلة :

ـ صباح الخير ، أيها الرفيقان .

كانت « بريت » تبدو سعيدة ، وكان « مايك » يعرف كيف يضع في مصافحته الاحساس بالود المشبوب ، وصافحنا « روبرت كون » لأننا كنّا قد عدنا . وسألت :

ـ أين كنتم ؟ أي جهنّم قد استأثرت بكم ؟

وقال « كون » :

ـ أنا الذي جئت بهما .

وقالت « بريت » :

ـ يا للهراء! لو لم تكن أنت معنا لكنّا قدمنا الى هنا قبل ذلك .

ـ لولاي ، لما قدمتما الى هنا قط .

ـ يا للهراء! إيه أيها الرفيقان لقد أصبحتما أسمرين ، انظروا الى « بيل » .

وسأل « مايك » :

---

(١) أي المحلات المعرّضة للشمس .

(٢) المحلات المظلّلة .

ـ هل أصبتما صيداً جيّداً ؟ ، كنّا نود أن نلحق بكما .

ـ لم يكن الصيد رديئاً . لقد كنّا نفتقدكم .

وقال « كون » :

ـ كنت أريد أن ألحق بكما ، ولكنني رأيت أن أقدم بهما .

ـ أنت تقدّم بنا ؟ يا للكذّب!

وسأل « مايك » :

ـ إحقاً كان الصيد جيّداً ؟ هل ظفرتم بصيد وفير ؟

ـ لقد مرّت أيّام كنّا نصيد فيها كل يوم اثنتي عشرة سمكة تقريباً ، وقد التقينا هناك بالانكليزي .

وقال « بيل » :

ـ إنه يدعى « هاريس » . هل تعرفه يا « مايك » ؟ كان مجنّداً أيضاً في الحرب .

وقال « مايك » :

ـ ياله من محظوظ! أي أيّام هنيئة مرّت علينا! كم أودّ أن تعود تلك الأيّام الحلوة .

ـ لا تكن حماراً .

وسأل « كون » :

ـ هل كنت جنديّاً في الحرب يا « مايك » ؟

ـ كيف لم أكن ؟

وقالت « بريت » :

ـ كان جنديّاً لامعاً حقّاً ، قص عليهم كيف جمح جوادك ، ذات مرّة ، في (البيكاديللي) .

ـ لن أقصّها ، لقد رويتها أربع مرّات .

وقال « روبرت كون » :

ـ ولكنّك لم تقصّها عليّ .

ـ لاأحب أن أورد هذه القصة . فإنها تنتقص منّي .

ـ اروِ لهم قصة أوسمتك .

ـ لن أرويها ، فإنّ فيها انتقاصاً كبيراً منّى أيضاً .

ـ وماهذه القصّة ؟

ـ سترويها لكم « بريت » . إنها تسرد جميع القصص التي تنال منّي .

ـ هيّا ، قصّي علينا كيف كان ذلك يا « بريت » .

ـ هل أستطيع ذلك ؟

ـ سأرويها أنا .

ـ أي أوسمة نلت يا « مايك » ؟

ـ لم أنل أي وسام .

ـ ينبغي أن يكون لديك بعض الأوسمة . .

ـ أنا أفترض بأنني نلت الأوسمة المعروفة وإن لم أسع للحصول عليها ، لقد أقيمت ذات يوم حفلة عشاء فخمة وكان على الأمير « أوف ويلز » أن يحضرها . وكانت بطاقات الدعوة تشير الى ضرورة حمل الأوسمة ، ولم يكن لديّ ، طبعاً ، أي وسام ، ومضيت الى خيّاطي الذي استحوذت الحفلة على اهتمامه ، وفكّرت في أن اهتبل الفرصة ، فقلت له : « ينبغي أن تستحصل لي على أوسمة » فقال : « وأي أوسمة ياسيّدي ؟ » فقلت : « أي وسام شئت ، اجلب لي بعض الأوسمة وحسب ، وحينئذ قال : « ولكن ماهي الأوسمة الموجودة لديك يا سيّدي ؟ » وقلت : « وكيف تريد منّي أن أعرف » . لقد كان يتصوّر أنني أنفق وقتي في قراءة الجريدة الدامية ، وعقّبت : « اجلب لي أوسمة وكفى ، واختر ما تشاء » .

وهكذا جلب لي أوسمة ، من تلك الأوسمة الصغيرة ، وأعطانيها ضمن علبتها فوضعتها في جيبي وأنسيتها .

ولمّا قدمت الى الحفلة ـ وكان ذلك عشيّة مصرع « هنري ويلسون » ـ لم يأت الأمير « أوف ويلز » ، ولم يأت الملك أيضاً . فلم يضع أحد أي وسام ،

وشغل جميع المدعوّين بنزع أوسمتهم ، وكانت أوسمتي في جيبي . وسكت ليترك لنا المجال بأن نضحك .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ هذا كل شيء . لعلّي لم أعرف كيف أروي القصة .

وقالت « بريت » :

ـ حقاً : ولكن ، لا بأس .

وجعلنا نضحك جميعاً . وقال « مايك » :

ـ أوه ، بل تذكّرت الآن ، كان عشاء مملاً لعيناً ، ولم أطق البقاء فانصرفت . وفي وقت متأخر من سهرة في ملهى ، وجدت عليبة الأوسمة في جيبي وساءلت نفسي :

« ما هذا ؟ أوسمة ؟ وأوسمة عسكرية ملطّخة بالدم ؟ » وعندئذ فتقتها من شريطها ـ إنكم تعلمون أنها مثبّتة بشريط ـ ثمّ وزّعتها ، فأعطيت لكل فتاة ـ في الملهى ـ وساماً ، كذكرى منّي . وقد وجدت أنني جندي مغفّل . إنها لجرأة أن يوزّع المرء أوسمته في ملهى ، أليس كذلك ؟ »

وقالت « بريت » :

ـ قص علينا الخاتمة .

وقال « مايك » مستفهماً :

أفلا تجدون ذلك مضحكاً ؟ (وضحكنا جميعاً) إنه لمضحك . أؤكّد أن ذلك مضحك جداً ، والخلاصة ، أنّ خيّاطي كتب اليّ طالباً إعادة الأوسمة ، ثمّ أرسل اليّ أحد عمّاله ، وظل يكتب اليّ ، شهوراً عدّه . والظاهر أنّ أحدهم كان قد تركها لديه لينظّفها له ، وكان شخصية عسكرية مخيفة ، وكان معلّق القلب بها كأنّها إنسان عينه (وتوقّف « مايك » هنيهة ثمّ تابع) يالحظ الخيّاط العاثر! » .

وقال « بيل » :

ـ إنّك لا تعني ذلك حقاً ، أحسب أن حظّه كان سعيداً .

ـ إنّه خيّاط ماهر جداً . قد لاتؤمن بذلك إن نظرت اليّ الآن . وقد تعوّدت أن أنقده مئة جنيه ، في العام ، ليدعني وشأني ، وهكذا أمسك عن إرسال قوائم الحساب اليّ وكان إفلاسي مصيبة كبيرة له ، وقد حدث هذا الإفلاس عقيب قصة الأوسمة ، وأصبحت رسائله إليّ ، بعد ذلك ، ذات لهجة لاذعة .

وسأل « بيل » :

ـ وكيف تمّ إفلاسك ؟

وقال « مايك » :

ـ تمّ على شكلين : بصورة متدرّجةأوّل الأمر ثمّ بصورة مفاجئة ، بعد ذلك .

ـ ماهو السبب الذي أدّى الى إفلاسك ؟

وقال « مايك » :

ـ أصدقائي هم السبب ، كان لدي زمرة كبيرة من الأصدقاء ، من الأصدقاء المزيّفين ، وكان لدي دائنون ، وعلى الأرجح كان لدي دائنون أكثر من أي إنسان في إنكلترا .

وقال « بريت » :

ـ اروِ لهم قصة المحكمة .

وقال « مايك » :

ـ لا أتذكرها ، كنت ثملاً بعض الشيء .

ورفعت صوتها قائلة :

ـ ثملاً ، تعني أنك كنت متعتعاً من السكر .

وقال « مايك » :

ـ إنه لشيء عجاب ، لقد التقيت بشريكي ذات يوم ودعاني الى المشرب .

وقالت « بريت » :

ـ اروِ لنا قصة محاميك العالم .

وقال «مايك» :

ـ لن أرويها ، إنّ محاميّ كان يتعتعه السكر أيضاً ، ثمّ إنها قصة كئيبة ، ترى هل نقلت الثيران ؟

ـ لنذهب...

ونادينا النادل وأدينا ثمن المشروب ، ثمّ غدونا الى المدينة . كنت أسير مع «بريت» ولكنّ «روبرت كون» لحق بنا ومشى الى جانب «بريت» . ومررنا نحن الثلاثة ، أمام (الأيونتامينتو) وقد نصبت في شرفته الأعلام ثمّ اجتزنا السوق ، ثمّ هبطنا في شارع منحدر ينتهي الى جسر ممتد على نهر (الأرغا) .

وكان جمع من الناس كبير يسعى لمشاهدة الثيران ، وكان ثمة عربات تنحدر من الأكمة وتجتاز الجسر ، وكان الحوذية والجياد والسياط أكثر بروزاً وظهوراً في الشارع من السابلة . وبعد أن جزنا الجسر . انعطفنا في الدرب المفضية الى الحظائر (الكورال) ومررنا أمام حانة ، وبدت على النافذة لوحة خطّ عليها : خمر جيّدة ، ثمن الليتر : ثلاثون سنتيماً .

وقالت «بريت» :

ـ ههنا ينبغي المجيء ، حين يتضاءل الوفر من المال .

ونظرت إلينا الامرأة الواقفة على عتبة الحانة ، فيما كنّا نمر ، ونادت أشخاصاً من الداخل . فأقبلت فتيات ثلاث ، جعلن يسارقننا النظر من النافذة ، ويرامقن «بريت» .

وكان يقف أمام باب (الكورال) رجلان يتناولان بطاقات الداخلين ، وتخطّينا الباب ، فألفينا في الداخل أشجاراً وداراً وطينة حجرية . وفي أقصى ركن كان ينتصب جدار الحظائر (الكورال) الحجري . وكانت تتوزّع بين أحجار الجدران ثغرات شبيهة بالكوى . كان هناك سلّم يتناهى الى أعلى الجدار ، وجعل أشخاص يتسلّقون السلّم ويتوزّعون فوق الجدران الفاصلة بين

الحظيرتين ، وفيما كنّا نسعى الى السلّم ، ونحن نمشي فوق العشب تحت أغصان الأشجار ، مررنا أمام الأقفاص الكبيرة المصبوغة باللون الرمادي التي تضم الثيران . وكان كل قفص يضم ثوراً . لقد استقدمت هذه الثيران من مربّى الثيران في (قشتاله) بالقطار . وقد نقلت من حجرات القطار في المحطّة ، ثمّ جلبت الى هنا لتفرّغ من أقفاصها داخل الحظائر (الكورال) . وكان كل قفص يحمل صنف الثور واسم مربّيه .

وصعدنا فوجدنا مكاناً فوق الجدار المطل على (الكورال) . وكانت الجدران مبيّضة بالكلس ، وكان على الأرض قش ومزاود خشبية ومعالف موضوعة قبالة الجدار ، وقلت :

ـ صعّدوا أبصاركم الى هناك .

كانت هضبة المدينة تشرئب فيما وراء النهر . وكان ثمّ أشخاص يقفون فوق الجدران القديمة والحصون ، وكانت خطوط الجدران المحصّنة الثلاثة تشكّل خطوطاً ثلاثة سوداء من البشر . وفوق الجدران كانت تتبدّى رؤوس متلعة من نوافذ البيوت . وتراءى في أقصى نهاية الهضبة صبية فوق الأشجار .

وقالت «بريت» :

ـ لقد تصوّروا ، ولابد ، أنّ ثمّة شيئاً سيحصل .

ـ إنهم يريدون رؤية الثيران .

وكان «مايك» و«بيل» قد صعدا الى الجدار الآخر من الجانب الثاني للكورال ، ولوّحا لنا بالأيدي... وكان وراءنا بعض المتخلّفين يدفعونا كلّما تزاحم بعض القادمين خلفهم . وتساءل «روبرت كون» :

ـ لمَ لا يبدأون ؟

وكان هناك بغل ربط بأحد الأقفاص فأخذ يجرّه حتّى باب الجدار (الكورال) . ودفع الرجال القفص بقضبان حديدية ووضعوه قباله الباب . وفوق الجدار وقف رجال يتهيّأون لسحب باب (الكورال) ثم سحب باب القفص... وانفتح في الطرف الثاني من (الكورال) باب فدخلت بقرتان ، تخبّان وتهزّان

رأسيهما وتؤرجحان خصورهما الهضيمة . وظلّتا معاً واقفتين في ركن قصي من (الكورال) . ورأساهما متّجهان نحو الباب الذي سيدخل منه الثور . وقالت « بريت » :

ـ لا يبدو عليهما أنهما سعيدتان .

ومال الرجال القائمون فوق الجدار الى خلف ، ساحبين باب (الكورال) ثمّ باب القفص . وانحنيت من فوق الجدار ، محاولاً أن أنظر الى داخل القفص فألفيته مظلماً . وقرع أحدهم القفص بقضيب حديدي ، فكأنّ شيئاً ما قد انفجر في داخله . كان الثور يضرب الخشب بقرنيه يمنة ويسرة ، مثيراً جلبة شديدة . ولمحت ، آنذاك خطماً[1] أسود ، وظلّ القرنين . وخرج الثور ضارباً بحوافره خشب القفص الفارغ . ثمّ اندفع صوب (الكورال) وتوقّف ، وقائمتاه الأماميّتان مغمورتان بالقش ، ورأسه متلع وعضلات رقبته منتفخة في قسوة . وكانت عضلات جسمه كلها تتخلّع فيما كان ينظر الى الناس الواقفين فوق الجدران الحجرية . وفزعت البقرتان الى الجدار ، متراجعتين ، مطأطئتي الرأس ، وعيناهما مصوّبتان الى الثور ، ورآهما الثور فكرّ عليهما مهاجماً ، وأخذ رجل يصيح خلف أحد الأقفاص ، ويضرب بقبّعته الحاجز الخشبي ، فما كاد الثور يداني البقرتين حتّى صدف عنهما وتلفّت ، ثمّ تجمّع وهجم على المكان الذي لمح فيه الرجل ، محاولاً أن يبلغه وهو خلف الحاجز ، بعشرات الضربات السريعة الباحثة من قرنه الأيمن .

وقالت « بريت » :

ـ يا إلهي ما أجمله!

وكنّا ننظر اليه من عل . وقلت :

ـ انظري اليه كيف يجيد استعمال قرنيه ، إنه يعرف يمناه ويسراه كأنه ملاكم .

---

(١) الخطم : أنف الحيوان .

ـ لا! أحقاً ؟

ـ لاحظي .

ـ إنه يركض في سرعة بالغة .

ـ مهلاً ، سوف يأتي ثور أخر ، بعد دقيقة .

وجرّ قفص آخر حتى قارب باب المدخل . ومن ركن قصي لوّح رجل بيده ـ وكان بمأمن خلف الحاجز الخشبي ـ للثور ، وبينما كان الثور ينظر اليه سحب الباب ، ودخل ثور ثانٍ الحظيرة (الكورال) ، وهجم دون ريث ، على البقرتين . وخرج رجلان من خلف الحاجز الخشبي ، وجعلا يصرخان ليحملاه على الإلتفات ، بيد أنه لم يغيّر اتجاهه . وتابع الرجلان الصياح « هاه! هاه! تورو » ملوّحين له بيديهما . وانتحت البقرتان الى جانب ، لتتفاديا ضربة القرنين ، بيد أنّ الثور إدرك إحدى البقرتين فنطحها . وقلت لـ« بريت » :

ـ لا تنظري .

وكانت تنظر ، مأخوذة ، وقلت :

ـ ياللروعة! لعله أن يؤثّر فيك .

وقالت :

ـ لقد رأيته وهو يراوح بين قرنيه ، الأيمن فالأيسر .

ـ إنه لمثير .

وانطرحت البقرة على الأرض وعنقها ممدود ورأسها متشنّج ، وظلّت حيث وقعت . وتخلّى عنها الثور فجأة ، ليكرّ على البقرة الثانية التي كانت قد انتبذت ركناً بعيداً ، وهي تهزّ رأسها وتشاهد ماجرى أمامها . فلمّا رأته مقبلاً ، ركضت مرتبكة . ونطحها في خصرها نطحة خفيفة ثمّ استدار ، متوتّر العضل ، وجعل ينظر الى الناس فوق الجدران . واقتربت منه البقرة وتودّدت اليه بخطمها ، فحرّك الثور قرنيه متظاهراً بالنطاح ، ثمّ تودّد اليها بخطمه ، وخبّ الاثنان جنباً الى جنب ، نحو الثور الأوّل .

ولمّا خرج الثور الثالث ، كان الثلاثة : الثوران والبقرة ، قد وقف الواحد

منها الى جانب الآخر ، ورؤوسها متدانية ، وقرونها مسدّدة الى القادم الجديد . وبعد بضع دقائق ، سمعت البقرة الى الثور الجديد فهدّأته وساقته لتضمّه الى القطيع . ولمّا أخرج الثوران الباقيان ، فزعا الى القطيع فضمّهما اليه .

أمّا البقرة الجريح ، فقد نهضت على قوائمها . ووقفت الى جانب الجدار الحجري ، دون أن يدنو منها أي ثور ، فلم تسع الى أن تنضم الى القطيع .

ونزلنا من الجدار ، مع الناس ، وألقينا من كوى جدار (الكورال) نظرة أخيرة على الثيران . وكانت قد ثابت جميعها الى الهدوء ، وبدت مدلية رؤوسها .

وامتطينا سيارة لنعود الى المقهى . ووصل « مايك » و« بيل » بعد نصف ساعة ، فقد توقّفا مرّات عديدة في الطريق ، ليحسوا بعض الكؤوس . وكنّا جالسين في المقهى ، حين أقبلا . وقالت « بريت » :

ـ إنه في الحقيقة لشيء خارق .

وسأل « روبرت كون » :

ـ هل يقاتل الثوران قتالاً جيّداً كالثور الأوّل ؟ يبدو لي أنهما فاءا الى الهدوء في سرعة .

وقلت :

ـ إنها كلّها ، يعرف بعضها بعضاً ، وهي ليست بخطرة إلا حين تكون منفردة أو حين تكوّن اثنين أو ثلاثة معاً .

وقال « بيل » :

ـ ماذا تعني بقولك خطرة ؟ تتراءى لي كلّها خطرة .

ـ إنها لا ترغب في القتل إلا حين تكون منفردة ، فإذا دخلت هناك ، فإن واحداً منها ينفصل ، على الأرجح ، عن القطيع ويضحي خطراً .

وقال « بيل » :

ـ إن هذا لمعقّد جداً ، فلا تفصلني عن القطيع يا « مايك » .

وقال « مايك » :

ـ لعمري إنها ثيران رائعة ، أليس كذلك . أرأيت الى قرونها ؟

وقالت « بريت » :

ـ طبعاً ، لم يكن لدي ، من قبل ، أي فكرة عمّا يمكن أن تكون قرون الثيران .

وسأل « مايك » :

ـ هل رأيت الثور الذي نطح البقرة ؟ إنه لعجيب خارق .

وقال « روبرت كون » :

ـ إنها ليست بحياة ، أن يكون الإنسان بقرة .

وقال « مايك » :

ـ هل ترى ذلك ؟ يخيّل اليّ أنّك تؤثر أن تكون بقرة .

ـ ماذا تعني بذلك يا « مايك » :

ـ إنها تسيم حياة هادئة فلا تقول شيئاً ، وترضى بأن تنساق هكذا ، عمرها كلّه .

وشعرنا بالحرج ، واستغرق « بيل » في الضحك . وبدا « روبرت كون » مغضباً ، وتابع « مايك » كلامه :

ـ يخيّل اليّ أنّك تؤثر ذلك . إنّك لاتفوه بكلمة ، هلاّ قلت شيئاً يا « روبرت » ، لا تبق هكذا .

ـ لقد ذكرت شيئاً بصدد البقرات ، أفلا تذكر ذلك يا « مايك » ؟ أوه . هلاّ تكلّمت أيضاً ، اذكر شيئاً طريفاً ، أليس في مقدورك أن ترى أننا قدمنا الى هنا لنتمتّع بوقت طيّب ؟

وقالت « بريت » :

ـ كفى يا « ميشيل » ، إنك ثمل .

ـ لست بثمل ، إنني صاح تماماً ، ترى أيعمد « روبرت » الى اللحاق بـ« بريت » طوال الوقت ، كأنه بقرة .

ـ صه يا « ميشيل »! حاول أن تلتزم بعض الأدب .

ـ ليأخذ الشيطان الأدب . وبعد ، فمن الذي يملك الأدب . باستثناء الثيران ؟ إن الثيران رائعة أليس كذلك ؟ ألا تحبّها يا « بيل » ؟ لمَ لاتقول شيئاً يا« روبرت » ؟ لا تجلس هكذا ، مصطنعاً سحنة من يشيع جنازة كئيبة ، وماذا بعد ؟ وهب أن « بريت » كانت قد ضاجعتك ؟ لقد ضاجعت كثيراً من الناس ، هم خير منك .

وقال « كون » وهو ينهض :

ـ اخرس ، اخرس يا « مايك » .

ـ إيه ، لا جدوى من قيامك ، كأنّك تبغي قتالي ، الأمر عندي سواء ، قل لي يا « روبرت » لماذا تلاحق « بريت » أنّى مضت كأنّك بقرة مسكينة ، ألم تشعر بأنّ أحداً لايرغب في حضورك ؟ إنني أشعر أنا ، حين أصبح غير مرغوب فيه ، فلم لا تشعر أنت ؟ لقد جئت (سان سيباستيان) ولم يكن ثمة أحد يرغب في مقدمك . وأخذت تلاحق « بريت » أنّى سعت كأنّك بقرة مسكينة ، أتحسب أن هذا حسن ؟

ـ اخرس إنّك سكران .

ـ لعلّي أن أكون سكران ، ولكن لم لا تكون أنت سكران ؟ لم لم تصبح سكران من قبل يا « روبرت » ؟ أنت تعلم جيداً بأنّك لم تستطب ما جرى لك في (سان سيباستيان) . لأن أحداً من أصدقائنا لم يشأ أن يدعوك الى حفل ، ولقد طلبت أنا اليهم دعوتك فأبّوا ، ليس بوسعك أن تلومهم على ذلك الآن هه ؟ هلا أجبت ، هل تستطيع أن تلومهم ؟

ـ اذهب الى الجحيم يا « مايك » .

ـ ليس في مكنتي أن ألومهم ، وأنت : هل تقدر على لومهم ؟ لماذا تلاحق « بريت » الى أي مكان ؟ أليس لديك شيء من الخلق والأدب ؟

أتعتقد بأن هذا يروقني ؟

وقالت « بريت » :

ـ إنه ليلائمك حقاً ، أن تتحدّث عن الخلق والأدب ، إنّك لعلى خلق كريم .

وقال « بيل » :

ـ هيّا بنا يا « روبرت » .

ـ لماذا تلاحقها الى كل مكان ؟

ونهض « بيل » وامسك بـ« كون » . وقال « مايك » :

ـ لا تذهبا ، سوف يطلب لنا « روبرت كون » مشروباً .

ومضى « بيل » مع « كون » . وكان وجه « كون » شاحباً ، وكان « مايك » مافتئ يتكلّم ، ومكثت فترة أصغي إليه ، وبدت « بريت » مشمئزّة ، وقالت :

ـ ميشيل . كنت أفضّل ألا تأخذ بمدرجة الحمار الغبي .

وأمسكت ، ثمّ التفتت نحوي وأردفت تقول :

ـ أتدري ، أنا لا أزعم أنه مخطئ .

وزايل الاضطراب صوت « مايك » وعاود جوّ الألفة صفاءه وقال :

ـ لم أكن سكران بالقدر الذي كنت أبدو فيه .

وقالت « بريت » :

ـ أعلم بأنّك لم تكنه .

وقلت :

ـ ليس بيننا من هو صاحٍ دوماً من الخمر ، زاهد فيها .

ـ إنّ كل ما قلته كنت أعنيه .

وقالت « بريت » وهي تضحك :

ـ بلى ، ولكنّك رويته بطريقة سيئة جداً .

ـ إنه حمار ، على أي حال ، فقد جاء (سان سيباستيان) ، وهو يعلم جيّداً بأنه لم يكن ثمّة أحد يطيقه . وجعل يدور حول « بريت » ليظفر بمتعة رؤيتها ، وقد أضناني ذلك ، وضقت به ذرعاً ، على نحوٍ لعين .

وقالت « بريت » :

ـ في الحقيقة ، كان تصرّفه سيئاً جداً .

ـ مهما يكن من أمر ، لقد عرفت قبله رجالاً ـ إنها تروي لي دوماً كل شيء ـ وقد أعطتني رسائل « كون » اليها ، لأقرأها ، فرفضت الاطّلاع عليها .

ـ إنه لشيء كريم يصدر عنك .

ـ لا ، اسمع يا « جاك » . لقد صاحبت « بريت » أكثر من رجل ، ولكنّهم لم يكونوا ، على أي حال « يهوداً » ولم يكونوا يتشبّثون على هذا النحو .

وقالت « بريت » :

ـ إنهم رجال ممتازون ، وبعد ، فأي جدوى من التحدّث بهذا ؟ إننا ، أنا و « ميشيل » ، متفاهمان أحسن التفاهم .

ـ لقد أعطتني رسائل « كون » اليها ، فلم أشأ أن أقرأها .

ـ لعلّك لاتحب أن تقرأ أي رسالة ، ياعزيزي ، حتّى ولا رسائلي .

وقال « مايك » :

ـ إنني لاأقوى على قراءة الرسائل ، إن هذا لمضحك ، أليس كذلك ؟

ـ إنّك لاتقوى على قراءة أي شيء .

ـ لا ، إنّك لمخطئة ، إنني أقرأ قليلاً ، وأقرأ حين أكون في بيتي .

وقالت « بريت » :

ـ وعمّا قريب سوف تكتب . إيه « ميشيل » ، ينبغي أن تتحمّله مادام هو هنا ، عليك ببعض الجلد والصبر . لا تكدّر علينا صفو العيد (الفييستا) .

ـ إذن عليه أن يصطنع مسلكاً حسناً .

ـ سوف يفعل ذلك ، وسوف أتحدّث اليه بذلك .

ـ تحدّث اليه يا « جاك » أنت أيضاً ، أوصه بأن ينهج المسلك الحسن ، أو فليذهب .

وقلت :

ـ أجل ، ينبغي أن أكلّمه بذلك .

ـ اسمعي يا « بريت » . اروي له الاسم الذي دعاك ، « روبرت » ،

أتدرين ؟... إنه غاية الكمال .

ـ أوه ، لا ، لا أستطيع .

ـ هيّا ، اذكري له ذلك ، نحن أصدقاء فيما بيننا ، ألسنا بأصدقاء يا « جاك » ؟

ـ ليس في وسعي أن أذكره ، إنه جد مضحك .

ـ سأقوله إذن .

ـ لا ، لا يا « ميشيل » لا تكن حماراً .

وقال « مايك » :

ـ لقد دعاها (سيرسه) ، زاعماً أنها تقلب الرجال كلهم الى خنازير ، وهو اسم موافق جداً ، على نحوٍ لعين . إنني أتمنّى أن أصبح أديباً مثل هؤلاء الأدباء ،

وقالت « بريت » :

ـ إنّ في ميسور « مايك » أن يكتب جيّداً ، ألا تعلم أنه يدبج رسائل رائعة ؟

وقلت :

ـ أعلم ذلك ، فقد كتب إليّ من (سان سيباستيان) .

وقالت « بريت » :

ـ ليس هذا بشيء ذي شأن ، إنّ في مكنته أن يكتب رسائل غاية في الظرف .

ـ لقد حملتني على كتابة تلك الرسالة ، مفترضة بأنها كانت مريضة .

ـ كنت مريضة حقاً .

وقلت :

ـ هيّا بنا ، لقد أزف وقت طعام العشاء .

وقال « مايك » :

ـ أي مسلك ، يتعيّن علي أن أنهجه مع « كون » ؟

ـ افعل . كما لو أنّ شيئاً ما لم يحدث بينكما .

وقال « مايك» :

ـ أطمح الى أكثر من ذلك ، فلا أشعر بالحرج البته .

ـ إذا أشار الى شيء ما ، فأجب بأنّك كنت ثملاً .

ـ حسناً ، وأطرف مافي الأمر ، أنني أعتقد كل الإعتقاد بأنني كنت ثملاً حقّاً .

وقالت « بريت » :

ـ هيّا بنا ، هل سدّد ثمن هذا السم من الشراب ؟ ينبغي أن أستحم قبل أن أتعشّى . وجزنا الساحة ، وكان الظلام مخيّماً ، والأضواء تشعّ حول الساحة ، في المقاهي وتحت القناطر . وسرنا في فيء الأشجار فوق الحصباء قاصدين الفندق . وصعدا الى حجرتهما ، وتوقّفت لأتحدّث الى « مونتويا » فسألني :

ـ وبعد ؟ فهل أعجبتك الثيران ؟

ـ كل الإعجاب ، إنها ثيران رائعة .

ـ لا بأس بها (وهزّ « مونتويا » رأسه») ولكنها ليست جيّدة جداً .

ـ ما الذي لم يعجبك فيها ؟

ـ لا أدري سوى أنها خلّفت لديّ شعوراً بأنها ليست جيّدة جداً .

ـ أعلم ماذا تعني .

ـ إنها ليست برديئة .

ـ أجل ليست برديئة .

ـ وهل أعجبت رفاقك ؟

ـ كثيراً .

وقال « مونتويا » :

ـ حسناً .

وصعدت الى علٍّ ، وكان « بيل» في غرفته ينظر من الشرفة الى

الساحة . واقتربت منه وقلت :

ـ أين « كون » ؟

ـ في غرفته فوق .

ـ كيف حاله ؟

ـ إنه في ضيق جهنّمي طبعاً ، لقد كان مايك مخيفاً . إنه رهيب حين يكون سكران .

ـ لم يكن سكران بالقدر الذي تراءى فيه .

ـ كان الجحيم بعينه ، أنا أعلم مقدار ماحسوناه قبل أن نأتي الى المقهى .

ـ لقد صحا بعد ذلك .

ـ حسناً ، لقد كان رهيباً . الله يعلم أنني لا أحب « كون » ، وأرى أنه من الغباوة أن يذهب الى (سان سيباستيان) ، ولكن ليس لإنسان أن يتفوّه بمثل ماتفوّه به « مايك » .

ـ والثيران ؟ هل أعجبتك ؟

ـ رائعة ، ورائعة الطريقة التي نقلت بها الثيران .

ـ إن ثيران (ميورا) قادمة غداً .

ـ متى سيبدأ العيد ؟

ـ بعد غد .

ـ ينبغي أن نمنع « مايك » من أن يستبد به السكر ، إن هذا النمط من الحوادث لممجوج كريه .

ـ علينا أن نغسل أيدينا استعداداً للعشاء .

ـ بلى ، سوف يكون عشاءً ممتعاً .

ـ ولمَ لا ؟

ـ عليّ أن أقول إن العشاء كان في الواقع ممتعاً ، فقد ارتدت « بريت » ثوباً للسهرة ، أسود ، بلا كمّين وبدت وضيئة الحسن . وتظاهر « مايك »

بسمت طبيعي كأنّ شيئاً ما لم يحدث قط . وصعدت بحثاً عن « كون » وعدت معه وألفيته يصطنع التحفّظ والمجاملة . وكان وجهه لايزال شاحباً منكفيء اللون لكنّ أسارير وجهه على الجملة تطلّقت . ولم يكن يني من مخالسة النظر الى « بريت » وكأن رؤيتها كانت تشيع في عطفيه الهناءة وكان يستعذب على الأرجح ، أن يجدها فاتنة ، وأن يفكّر في أنه قد أمضى معها وقتاً شهيّاً ، وأن الجميع على علم بذلك . ولم يكن في مكنة أحد حرمانه من هذه المتعة . وكان « بيل » ظريفاً ، وكذلك كان « مايك» . إنهما يبدوان ظريفين حين يجتمعان .

وقد أذكرني هذا العشاء بعض الأماسي التي تناولت فيها طعام العشاء أثناء الحرب : كثير من الخمر ، توتّر عصبي مبهم ، وشعور بأنّ ثمة أشياء قادمة ، ليس في ميسورك أن تتجنّبها . وكانت سيماء الجميع ظاهرة اللطف والظرف .

الفَصلُ الرابع عَشَر

لا أدري في أي ساعة فزعت الى السرير . أذكر أنني نضوت ثيابي وارتديت مبذلي ودلفت الى الشرفة . وأذكر أنني كنت ثملاً ، وأنني أنرت ، حين دخلت الغرفة ، المصباح القريب من رأس السرير ، وجعلت أقرأ كتاباً لـ(تورغينيف) : وقد أعدت على الأرجح قراءة الصفحتين نفسيهما مرّات عديدة ، وكان الكتاب قصّة من قصص (مذكّرات صيّاد) ، سبق أن قرأته من قبل ، لكنه بدا لي جديداً ، وأضحى وصف الريف فيه مشرقاً ، وزايلني الاحساس بالضغط على رأسي . كنت ثملاً جداً ، ولم أكن أود أن أغمض عينيّ ، لأن الغرفة كانت تدور وأنا مسبل الجفن ، فإذا تابعت القراءة ، فإن هذا الاحساس قد يزول .

وسمعت «بريت» و«روبرت كون» يصعدان الدرج ، وتمنّى «كون» لها مساءً طيّباً ، قبالة الباب ، ثمّ عاد لغرفته . وسمعت «بريت» تدخل الغرفة المجاورة : وكان «مايك» قد سبق ومضى الى فراشه ، فقد كان صعد معي قبل ساعة . واستيقظ حين دخلت «بريت» وجعلا يتحدّثان . وسمعتهما يضحكان . وأطفأت النور محاولاً أن أغفو ، فلم أعد أشعر بحاجة الى مزيد من القراءة ، أو أنه في مكنتي أن أغمض عينيّ ، دون أن يلم بي شعور بالدوار . ولكنّ النوم لم يسلس لعيني . ولم يكن ثمة سبب يجعلني أرى الأشياء في الظلام مختلفة عن رؤيتي لها في النور... أوه . يا له من جحيم!

وقد خامرني هذا الشعور ذات مرّة ، وظللت طوال أشهر ستّة ، لاأعمد الى إطفاء النور حين الرقاد . إنّها لفكرة برّاقة أخرى! ليأخذ الجحيم النساء كلّهن ، ليأخذك الجحيم أنت يا لادي «اشلي» .

إنّ في ميسور المرأة أن توثق عرى الصداقة الطيبة ، الطيبة على نحو هائل . عليك ، في البدء أن تشغف بالمرأة حقاً ، ليقوم لك معها أساس من الصداقة . وقد اتخذت من «بريت» صديقة لي ، ولم أكن أفكّر في ذلك من وجهة نظرها هي . وقد حصلت على شيء مقابل لاشيء ، ولم يؤد ذلك إلا الى تأخير ابراز قائمة الحساب ، بيد أن قائمة الحساب تأتي دوماًفي حينها ، إنها أحد الأشياء السائغة التي يتأتّى لك أن تعتمد عليها .

وقد اعتقدت بأنني سددت ثمن كل شيء ، لا كالمرأة التي تدفع وتدفع ثمّ تدفع ، دون أن يكون هناك فكرة في ثواب أو جزاء ، بل محض تبادل ، فإنّك تتخلّى عن شيء بدلاً منه . وإنّك تعمل من أجل شيء ما ، فتدفع دوماً ، وعلى أي حال ، ثمن كل شيء جيد . وقد دفعت ، بما فيه الكفاية ، ثمن أشياء جمّة أحببتها . فتمتّعت بوقت هني سائغ . بلى ، إنّك تدفع ثمن كل هذه الأشياء ، سواء أكان الثمن ، سماعك التحدّث بها أم تجربتك لها أم تعرّضك لحظوظ الفشل فيها ، أو بذلك المال من أجلها .

إنّ التمتّع بالحياة هو أن تعرف قيمة مالك وتعرف متى تحصل عليه ، وإنه لفي مقدورك أن تعرف قيمة مالك ، فالعالم مكان صالح لبذل المال . إن هذه الفلسفة تتراءى لي حلوة! وجاذبني خاطر بأنها سوف تتراءى لي بعد خمس سنوات فلسفة حمقاء ككل الفلسفات الحلوة التي أخذت بها ، ومع ذلك فلعلّها أن تكون غير صحيحة ، ولعلّك تعلم على مرّ الزمان شيئاً ما . إنني لم أجهد في أن استجلي كل ذلك ، فإنّ كل ماكنت أريده هو أن أعرف كيف أعيش . فلعلك إن عرفت كيف تعيش ، استطعت أن تستجلي حقيقة ذلك كلّه .

كنت أؤثر ألا يعمد «مايك» الى معاملة «كون» تلك المعاملة الفظة . إنّ أثر

الخمرفي « مايك » سيء رديء . ولكن أثره في « بريت » وفي « بيل » حسن .

أمّا « كون » فلم يشمل عمره كله . إنّ « مايك » يبدو مقيتاً بعد أن يجاوز حدّاً ما من الشرب . وقد كنت أحب أن أرى اليه ينال من « كون » ويؤذيه بيد أنني آثرت ، مع ذلك ، أن يكف عنه . لأنني كنت أستشعر إثر ذلك ، تقزّزاً من نفسي . هكذا أضحت الأخلاق : إنها الأشياء تحملك على التقزّز من نفسك . لا ، لا ، ينبغي أن تكون هذه هي المنافية للأخلاق . إنها وجهه نظر وسيعة الجوانب ، كم من الأوهام يمكن أن تخامرني في الليل! يا للأحمق! What rot حين تتاح لك صحبة إنكليزي ما ، فإنّك تألف استعمال التعبيرات الانكليزية ، وأنت تفكّر . إن اللغة الانكليزية المستعملة في المخاطبة (مفردات الطبقة العالية بخاصة) هي أفقر بألفاظها من لغة (الأسكيمو) . طبعاً أنا لا أعرف كلمة واحدة من لغة (الأسكيمو) فلعلّ لغة الأسكيمو جميلة . خذ مثلاً (شيروكي) ، أنا لاأعرف شيئاً عن الشيروكي . إنّ الانكليز يتكلّمون جملاً منغّمة ملخّصة ، فجملة واحدة تعني كل شيء . ومع ذلك ، فإنني أكلف بطريقتهم في الكلام . خذ مثلاً « هاريس » ، على أن « هاريس » ليس من الطبقة العالية...

وأضأت النور من جديد وأخذت أقرأ . فقرأت « تورغنيف » . وكنت أعلم الآن أنّي ـ وأنا أقرأ في هذا الحال من التوتّر العصبي الناجم عن الاسراف في شرب البراندي ـ سوف أتذكّر ماقرأت يوماً ما ، وكأنه قد حدث لي حقيقة . بل سيعاد في ذلك الشعور دوماً . هذا أحد الأشياء الجيدة التي تدفع ثمنها ثمّ تحتفظ بها .

وبعد مضي فترة من الزمن ، أخلدت الى النوم عند منبلج الفجر . وكان اليومان التاليان في (بابيلونه) هادئين ، فلم يحدث أي خلاف . كانت المدينة تستعد للعيد (الفييستا) ، وكان العمّال ينصبون البوابات ليغلقوا الشوارع الجانبية ، حين تجتازها الثيران بعد خروجها من الحظائر (الكورال) راكضة الى ميدان المصارعة ، صباح يوم الحفلة .

وكان العمّال يحفرون ثقوباً في ألواح من خشب السنديان ، يثبتونها وكل لوح يحمل رقماً يدل على الأمكنة .

وخارج المدينة ، كان بعض عمّال الميدان يروّضون ، على الهضبة ، جياد فرسان (البيكادور) لتخب بقوائمها المتوتّرة فوق الأرض الصلبة الحامية ، خلف ميدان المصارعة .

كانت بوّابة ميدان مصارعة الثيران مفتوحة ، وفي داخل المدرّج (الامفيتياتر) تمّ تنظيف كل شيء . وكانت الساحة قد دخلت ورشّت بالماء ، وكان النجّارون يغيّرون القطع الخشبية الضعيفة أو المكسورة من مصطبة صفوف (الباريرا) .

وكان في ميسورك إن وقفت على عذار الميدان ذي الرمل الدقيق المدحول أن ترى الى الأدراج الخالية . والى العجائز اللائي كنّ يكنّسن المقصورات .

وفي الخارج كان السور الممتد من آخر شارع في المدينة حتّى مدخل ميدان مصارعة الثيران قد ثبت في مكانه ، مشكلاً رواقاً طويلاً لتسعى فيه جمهرة الناس مسرعة وخلفها الثيران ، في صباح اليوم الأوّل من حفلة مصارعة الثيران .

وفي السهل ، بعيداً حيث ينبغي أن تقام سوق الجياد والحيوانات ، ضرب أفراد من الغجر خيامهم في فيء الشجر .

وكان بائعو الخمر و(الاغواردیانتي) ينصبون أكواخهم الخشبية . وكان أحد هذه الأكواخ ، ينوّه بخمر (الانيس ديل تورد) على قماش إعلان منصوب فوق الألواح الخشبية ، تحت أشعة الشمس المتلظّية . أمّا في الساحة الكبرى التي تشكل مركز المدينة فلم يحدث أي تغيير .

وجلسنا على الكراسي البيضاء الخيزرانية فوق سطحية المقهى ، وأخذنا نرقب سيّارات الأوتوبيس تمتلىء ثمّ تدرج محمّلة بالفلاحين الجالسين على خروجهم الملأى بمختلف الأشياء التي اشتروها من المدينة . وكانت

الأوتوبوسات الكبيرة الرمادية ، تهبّ ، مع طيور الحمام والرجل الذي كان يرش بخرطوم لديه حصباء الساحة والشوارع ـ كانت تهب الساحة بعض الحياة .

وفي المساء أقيمت حفلة الـ (Paseo)[١] وخلال ساعة كاملة ، عقب طعام العشاء ، جعل الناس جميعاً : الفتيات الحسان وضبّاط الحامية ، والشخصيّات المرموقة في المدينة ، يخطرون في الشارع على أحد جوانب الساحة ، فيما كانت طاولات المقاهي تغصّ بزبائنها المعتادين إثر العشاء .

وكنت أجلس عادة ، في كل صباح ، في المقهى أطالع صحف (مدريد) ، ثمّ أقوم بجولة في المدينة أو في الضاحية . وكان «بيل» يرافقني حيناً ، أو يبقى في غرفته ليكتب حيناً آخر . وكان «روبرت كون» يمضي الصباح في تعلّم اللغة الاسبانية أو يغدو الى صالون الحلاقة . أمّا «بريت» و «مايك» فلم يكونا يستيقظان الا قبيل الظهر ، وكنّا نذهب جميعاً الى المقهى لنشرب أقداحاً من الفيرموت .

كنّا نسيم حياة هادئة ، ولم يكن أحد منّا يسرف في الشرب ، وقد ذهبت مرّتين الى الكنيسة ، كانت إحداها مع «بريت» ، وقد أفضت اليّ بأنها تود أن تسمعني وأنا أعترف . ولكنني قلت لها أنّ هذا ليس بمستحيل وحسب ، ولكنه ليس بهام كما يخيّل اليها ، أضف الى ذلك أن الإعتراف يتمّ باللغة الاسبانية التي لاتفهمها . وقد وجدنا «كون» بينا كنّا نخرج من الكنيسة . ورغم أنه كان ، على الأرجح ، قد تعقّبنا ، فقد ظلّ لطيفاً محبّباً . ومضينا نحن الثلاثة الى مخيّم الغجر حيث كشف لـ«بريت» عن طالعها .

كان الصباح ماتعاً ، وكانت غمامات بيض توشّي قمم الجبال ، وقد انهمر المطر قليلاً في الليل . وكان الجو فوق الهضبة نديّاً رطباً . وانفسح

---

(١) أي النزهة ، في الاسبانية . (المعرّب)

المنظر ساحراً ، وشعرنا كلّنا بالجذل ، وأحسسنا بالعافية تتدفّق في أعطافنا ، وجاذبني شعور ودّي نحو « كون » فليس في ميسورك أن تكون مغتمّاً في يوم كهذا .

وكان هذا اليوم الأخير قبل بدء العيد (الفييستا) .

الفَصلُ الخَامِس عَشَر

كان اليوم الأحد في ٦ تمّوز (يوليو) ، ظهراً ، حين بدأ العيد (الفييستا) وكأنه ينفجر إنفجاراً ، فليس ثمة وصف آخر يفي بالتعبير أكثر من هذا اللفظ . كان الناس يقدمون من الضواحي طوال النهار ، ولكنّ المدينة قد تمثّلتهم كلّهم فلم يعد في ميسورك أن تتميّزهم . وكانت الساحة تتراءى تحت أشعة الشمس المتّقدة في مثل هدوئها في الأيّام الأخرى .

كان الفلاحون قد فزعوا الى الحانات الصغيرة القابعة في الأزقّة المحيطة ، وكانوا عاكفين على الشرب استعداداً للعيد (الفييستا) . وكانوا قد قدموا ، منذ أمد قريب من السهول والربى ، فكان عليهم أن يألفوا تغيير القيم والأثمان ، بصورة متدرّجة . فلم يكونوا يطيقون في البدء ، دفع ثمن المشروب في المقاهي ، بل يدّخرون مالهم لبذله في الحانات الصغيرة . إذ كان للنقد ، آنذاك ، قيمته المحدّدة بساعات العمل وبمحصول الحبوب المبيعة .

وفيما بعد ، خلال أيّام العيد (الفييستا) ، فإنه لن يكرِثهم مقدار ما يبذلون من مال ولن تكّرثهم الأمكنة التي ينفقون فيها . أمّا الآن ، في هذا اليوم الذي يستهل به عيد(سان فيرمان) ، فإنهم يفزعون منذ الصباح الباكر الى حانات الأزقّة الصغيرة في المدينة .

وتناهى الى سمعي ، فيما كنت ذاهباً لحضور قدّاس الكنيسة ، غناؤهم

يتعالى من الأبواب المشرعة من الحانات متدفقاً دافئاً .

كانت الكنيسة حافلة بالناس في قدّاس الساعة الحادية عشرة ، فإنّ عيد (سان فيرمان) هو عيد ديني أيضاً .

وانحدرت من الأكمة إثر خروجي من الكنيسة ، ثمّ صعدت في شارع آخر متّجهاً الى المقهى في الساحة . كان الوقت قبيل الظهر ، وكان « روبرت كون » و« بيل » جالسين الى إحدى الطاولات ، وكانت الطاولات المرمرية والكراسي البيضاء قد اختفت ، فقد استبدلوا بها طاولات معدنية وكراسي قاسية ، قابلة للطي . وكان المقهى أشبه بباخرة حربية تستعد للمعركة . ففي هذا اليوم لم يكن الندل ليدعوك وحدك تقرأ طوال الصباح دون أن يسألوك عمّا إذا كنت تطلب شيئاً ، فما كدت أتّخذ مجلسي حتّى اقترب منّي نادل ، وسألت « بيل » و« روبرت » :

ـ ماذا تشربان ؟

وقال « كون » :

ـ قدح شيري

وقلت للنادل :

ـ Xeres أي شيري .

ولم يكد النادل يجلب لنا أقداح الشيري ، حتّى انطلق صاروخ الألعاب النارية في الساحة معلناً بدء العيد (الفييستا) ثمّ انفجر . وتراءت كرة دخّانية رمادية في العلاء فوق مسرح (غايار) من جانب الساحة . ورفّت كرة الدخّان في الفضاء ثمّ انفجرت انفجار (الشرانييل) . وفيما كنت أتطلّع اليها ، انطلق صاروخ آخر نافثاً الدخّان في أشعّة الشمس المتألّقة . فلمّا انفجر تـوامض منه بريق خاطف ، وانعقدت سحابة صغيرة أخرى من الدخّان . وفي الوقت الذي انفجر الصاروخ الثاني ، كان قد التأم جمع غفير من الناس تحت القناطر التي كانت قبل دقيقة واحدة مقفرة ، ولم يتيسّر للنادل الذي كان يحمل بيده زجاجة ، رافعاً إيّاها فوق رأسه ، أن يشق طريقه ليصل الى طاولتنا إلا بجهد كبير .

كانت جموع الناس تقبل الى الساحة من جميع الجهات . وسمعنا في منخفض الشارع صوت النايات والمزامير والطبول تقترب . . كانوا يعزفون موسيقى (الريو ، الريو) على نفخ المزامير الرفيع ودرداب الطبول . وكان يتبعهم الرجال والفتيان وهم يرقصون . وعندما يتوقف أصحاب المزامير عن النفخ فإنّ الراقصين كانوا يجثون على الأرض حتّى إذا انبثق صوت النايات والمزامير ، حاداً مشفوعاً بدرداب الطبول الهادر المدوي الضخم ، قفزوا ، وتابعوا رقصهم . ولم يكن في ميسورك أن تلمح في الجموع المكتظّة سوى رؤوس الراقصين وهي ترتفع وتهبط .

وكان في الساحة رجل محدودب الظهر ينفخ في مزمار ، يسعى خلفه شرذمة من الأطفال ، وهم يصرخون ويشدّون سترته . وغادر الرجل الساحة ووراءه الأطفال ، يتبعونه وينطّون على نغم المزمار ، ومرّ أمام المقهى ثمّ توارى في شارع جانبي . وقد رأينا وجهه المكدّر المجدور ، حين مرّ نافخاً في مزماره والأطفال خلفه يشدّونه متصايحين .

وقال « بيل » :

ـ إنه أبله القرية ولا ريب ، يا إلهي انظروا الى هذا...

كان الراقصون يفدون من أسفل الشارع حتّي امتلأ بالراقصين من الرجال ليس غير . وكانوا يرقصون جميعاً رقصاً موزوناً خلف مزاميرهم وطبولهم ، يؤلّفون زمرة من ندوة . وكان كل واحد منهم يرتدي سترة عامل زرقاء ، واضعاً حول عنقه منديلاً أحمر . وكانوا يحملون راية كبيرة مرتكزة على عصوين طويلين ، ترقص معهم مرتفعة متطامنة وهم منحدرون قادمين وحولهم الجموع الغفيرة ، وكان مخطوطاً على الراية هذه الكلمات : لتحيَ الخمر! ليحيَ الغرباء!

وسأل « كون » :

ـ وأين الغرباء ؟

فأجاب « بيل » :

ـ نحن الغرباء .

كانت الصواريخ تتصاعد طوال الوقت ، وكانت طاولات المقاهي كلّها قد امتلأت ،وأخذت الساحة تقفر شيئاً فشيئاً من الناس الذين مضوا إلى المقاهي فملأوها . وسأل « بيل » :

ـ أين « بريت » و« مايك » ؟

وقال « كون » :

ـ سأذهب للبحث عنهما .

ـ عد بهما إلى هنا .

كان العيد « الفييستا » قد بدأ لاحقاً . ودام ، ليل نهار ، سبعة أيام متصلة ، استمر فيها الرقص ، واستمر العكوف على الشرب ، واستمر الصخب . وكانت الأشياء التي حدثت ، لايمكن أن تحدث إلا خلال العيد ، وأضحى كل شيء فيما بعد خيالياً ، ومع ذلك فقد كان يبدو أنه ليس ثمة شيء يمكن أن تكون له نتيجة ما . كان يبدو أن التفكير في أي نتيجة ، أثناء العيد ، هو في غير موضعه . وكان يجاذب المرء خلال العيد شعور بأن عليه أن يلهج عالياً ـ حتى في أويقات الهدوء ـ بأي ملاحظة له ليحمل الناس على سماعها . وكان يخالج المرء الشعور نفسه حيال أيما عمل يقوم به .

ذلكم هو العيد الذي استمر سبعة أيام...

وبعد ظهر هذا اليوم ، قام الموكب الديني الكبير بالطواف ، وتنقل الاحتفال بعيد « سان فيرمان » من كنيسة إلى أخرى ، وقد اشترك في الموكب كل الشخصيات المدنية والدينية غير أنه لم يكن في وسعنا رؤيتها بسبب الزحام .

كان الراقصون يقومون ، في مقدمة الموكب ومؤخرته ، برقصة « ريو ، ريو » فلم يكن يرى ثمة ، سوى كتلة من القمصان الصفراء تنط إلى أعلى ثم تهوي ، راقصة في قلب الزحام .

ولم يكن في استطاعتنا أن نرى من خلال جمهور الناس المتراص الذي

كان يملأ الشوارع والأرصفة ، سوى مردة الأصنام تمثل هنوداً في دكاكين التبغ تشارف قاماتهم ثلاثين قدماً . كما تمثل ملك وملكة يدوران ويرقصان في استعلاء ، رقصة الفالس على نغم « ريو ، ريو » .

كان الجميع يقفون خارج الكنيسة التي أقيم فيها احتفال عيد (سان فيرمان) ، ودخلت الشخصيات البارزة تاركة في الرصيف مردة الأصنام ، ومفرزة من الحراس والجنود . وكان الرجال الذين قبعوا في أجواف الأصنام ، والذين كانوا يجعلونها ترقص ، قد انتحوا جانب هياكلهم الثابته ، بينما كان الأقزام يثبون هنا وهناك بقربهم الموسيقية الضخمة .

ووقفنا في العتبة ، وكانت رائحة البخور عابقة . وكان ثم أناس قد اصطفوا داخل الكنيسة ، غير أن « بريت » توقفت بإزاء الباب تماماً ، لأنها لم تكن ترتدي قبعة . وعندئذ عدنا على أعقابنا إلى الخارج ، واتخذنا أدراجنا في الشارع الذي يمتد من خلف الكنيسة إلى المدينة ، وكان الناس قد اصطفوا على جانبي الطريق محتفظين بأمكنتهم ريثما يعود الموكب .

وشكل بعض الراقصين حلقة حول « بريت » وأخذوا يرقصون ، وكانوا يحملون حول أعناقهم أطواقاً من الثوم الأبيض ، ثم أمسكوا بذراعي وذراعي « بيل » وأدخلونا في الحلقة . وشرع « بيل » يرقص أيضاً بينا أنشأوا يغنون جميعاً . وكانت « بريت » تود أن ترقص ولكنهم لم يدعوها تفعل . إذ كانوا يريدون أن يجعلوا منها صورة يرقصون حولها . ولما انطلق نغم « ريو ، ريو » الذي ينتهي به الغناء ، اندفعوا بنا إلى حانة صغيرة .

ووقفنا أمام المشرب ، فأجلسوا « بريت » على برميل . وكانت الحانة معتمة ملأى بالرجال الذين يلهجون بالغناء ، بصوت ضخم جاس ، وكانت الخمر تتدفق خلف المشرب ، من البراميل .

ووضعت ثمن الخمر على الخوان ، ولكن أحد الرجال التقط النقود وأعادها إلى جيبي .

وقال « بيل » :

ـ أريد زقاً من الخمر .

وقلت :

ـ ثمة دكان في الشارع ، سأعدو اليها لأجلب زقين .

ولم يشأ الراقصون أن يفسحوا لي الطريق لأخرج ، إذ جلس ثلاثة منهم على برميل ضخم إلى جانب «بريت» ، وهم يعلمونها أن تشرب من زق جلدي .

وكانوا قد أحاطوا عنقها بطوق من الثوم ، وألح أحدهم عليها بأن تشرب قدحاً ، وجعل آخر يلقن «بيل» أغنية وهو ينشدها في أذن بيل مساوقاً نغمها بقرع على ظهره .

وفسرت لهم بأنني سأعود ، ولما خلصت إلى الخارج ، انحدرت إلى الشارع باحثاً عن الدكان التي تبيع زقاق الخمر .

كان الجمهور اللجب قد ملأ الأرصفة ، وألفيت أن معظم الدكاكين قد أغلقت ، فلم يتح لي أن أعثر على الزقين واتخذت سمتي بعيداً نحو الكنيسة ، وأنا أجيل بصري في جانبي الشارع ، وأخيراً استفهمت من رجل عن دكان الزقاق ، فأمسك بساعدي وقادني اليها ، وكانت مصاريع نوافذها مغلقة ولكن بابها كان مفتوحاً .

وفي الداخل ، كانت تنعقد رائحة جلد مدبوغ منذ أمد قريب ، كما سطعت رائحة قطران حام . وكان هناك رجل يخط على الزقاق الجلدية التي تم دبغها ، التي كانت تتدلى من السقف كالعناقيد ، وأمسك بواحد منها وأنزله ونفخه وسد عنقه ثم وقف فوقه وقال :

ـ أرأيت أنه متين ، لايتسرب منه شيء .

ـ أريد زقاً آخر ، زقاً كبيراً .

وانتزع من السقف زقاً كبيراً يسع ، ولاريب ، غالون خمر أو أكثر . ونفخه وبدت وجنتاه منتفختين أكثر من الزق ، ثم جلس إلى طاولة مستنداً إلى كرسي وقال :

ـ ماذا ستفعل بهما ؟ هل ستبيعهما في « بابون » ؟

ـ لا ، إنني بحاجة إليهما ، للشرب .

وقرع ظهري براحته .

ـ يالك من رجل طيب ، ثمان « بيزيته » ثمن الاثنين ، إنه أرخص سعر .

وتوقف الرجل الذي كان يخط على الزقاق الجديدة ويرمي بها إلى ركن .

ـ حقاً ؟ ثمان « بيزيته » ، إنهما رخيصان .

ودفعت ثمنها وخرجت وعدت إلى الحانة التي كانت الظلمة غلبت فيها أكثر من ذي قبل ، كما اجتمع فيها عدد كبير من الزبائن . ولم أر « بريت » ولا « بيل » . وقال لي أحدهم إنهما قد عاذا بحجرة خلفية .

وملأت فتاة المشرب ، زقي خمراً فوسع أحدهما ليترين ووسع الثاني خمسة ليترات ، وبلغ ثمن الخمر لملئهما ثلاث بيزيتات وستين سنتيماً ، وحاول شخص لم أره من قبل ، أن يدفع الثمن ، فتمنعت ، وانتهى الأمر بأن أدفع أنا الثمن ، وقدم لي الرجل الذي أراد الدفع قدحاً ، ولم يرض أن يتيح لي تقديم قدح إليه ، ولكنه قال لي إنه يؤثر أن يمضمض شيئاً من خمر زقي الجديد في فمه ، وشال الزق ذا الليترات الخمسة ثم هصره هصرة دفعت الخمر حتى مست نهاية حلقه .

ـ حسناً .

قالها ، معيداً إليَ الزق الجلدي .

وفي الحجرة الخلفية ، كانت « بريت » و « بيل » جالسين على برميلين وقد أحاط بهما الراقصون ، وكان كل واحد منهم قد أراح ذراعيه على كتفي الآخرين ، وهم يغنون جميعاً ، أما « مايك » فكان جالساً إلى طاولة مع عدد من الرجال يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام ، ويأكلون من صحن كبير مليء بسمك « الطون » يتخلله البصل المفروم والخل ، كما يشربون الخمر ويغمسون الخبز في الزيت والخل .

وصاح مايك :

هالو «جاك» هالو ، تعال إلى هنا ، أود أن أعرفك بأصدقائي إننا نأكل جميعاً المقبلات .

وقُدمت لجميع الجالسين الى الطاولة وذكروا أسمائهم لـ «مايك» وطلبوا إلى أحدهم أن يجلب لي شوكة .

وهتفت «بريت» من أعلى البرميل :

ـ كف عن التهام طعامهم يا «ميشيل» .

وقلت بعد أن قدم لي أحدهم شوكته :

ـ لا أريد أن آتي على طعامكم .

فقال :

ـ هلاّ أكلت! لأي شيء تحسب أنه موجود هنا ؟

ونزعت سدّادة الزق الكبير وادرته على الحلقة ، وشرب كل واحد منهم نهلة وهو يزق بساعده الى عل .

وكان في ميسورنا أن نسمع موسيقى الموكب العابر في الخارج ، وقد غلبت أنغامها على الأناشيد .

وسأل «مايك» :

ـ أترى هو الموكب ؟

وقال أحدهم .

ـ adan ، لا شيء ، اشرب من عل واترك الزجاجة .

وسألت «مايك» :

ـ وأين عثروا عليك ؟

وقال «ميشيل» :

ـ أتى بي أحدهم . لقد قيل لي أنكم هنا .

ـ أين «كون» ؟

وقالت «بريت» بصوت مرتفع :

ـ لقد أخذوه من هنا ووضعوه في مكان ما .

ـ وأين هو ؟

وقال « بيل » :

ـ كيف تريد أن نعرف ؟ أحسب أنه ميّت .

وقال « مايك » :

ـ ليس ميّتاً ، اعلم أنه ليس ميّتاً ، لقد أسرف في شرب (أنيس ديل مونو) ليس غير .

وما كاد يتفوّه بكلمة (انيس ديل مونو) ، حتّى رفع أحد الجالسين عينيه ، وسل الزجاجة من تحت سترته وسلمنيها ، فقلت :

ـ لا ، لا ، شكراً .

ـ yes, yes , Arriba ، بلى ، بلى ، الى فوق .

وشربت جرعة ، إن له مذاق عرق السوس ، ولكنه يشيع الدفء حيث انسرب ، وكان في مكنتي أن استشعر حتّى في معدتي ، وقلت :

ـ أين « كون » بحق الجحيم ؟

وقال « مايك » :

ـ لا أدري ، سأستوضح لك (وسأله بالاسبانية) أين رفيقنا الثمل ؟

ـ هل تودّ رؤيته ؟

وقلت :

ـ نعم .

وقال « مايك » :

ـ أنا ؟ كلا ، بل هذا السيّد .

ومسح صاحب (الانيس ديل مونو) فمه ونهض .

ـ تعال .

وفي حجرة خلفية ، كان « روبرت كون » مستغرقاً في نوم قرير فوق أحد البراميل . وكانت الظلمة هناك من الشدّة بحيث تحول دون رؤية وجهه . وكانوا قد غطّوه بمعطفه ، ووضعوا تحت رأسه معطفاً آخر مطوياً . وكان يلتف

حول عنقه طوق كبير مضفور بالثوم ومراح على صدره .

وهمس الرجل :

ـ دعه ينم ، إنه على أحسن حال .

وبعد مضي ساعتين ، أطلّ « كون ودخل الحجرة ، وطوق الثوم يتدلّى من عنقه . وهلّل له الاسبان حين دخل وفرك « كون » عينيه وتكلّف ابتسامة وقال :

ـ أعتقد بأنني قد نمت .

وقالت « بريت » :

ـ اوه ، لا ، مطلقاً

وقال « بيل » :

ـ كنت ميّتاً فحسب .

وسأل « كون » :

ـ هلاّ ذهبنا ، عمّا قريب ، لنتعشّى .

ـ هل تريد أن تأكل ؟

ـ أجل ، لم لا ، أنا جائع .

وقال « مايك » :

ـ هل لك أن تأكل هذه الفصاص من الثوم ، هلاّ أكلت هذه الفصاص من الثوم ؟

وظلّ « كون » منتصباً ، لقد جعلته غفوته ، في أحسن حال من النشاط .

وقالت « بريت » :

ـ فلنذهب لنأكل ، ينبغي أن أستحم .

وقال « بيل » :

ـ هيّا بنا ، لنأخذ « بريت » الى الفندق .

والقينا تحيّة الانصراف على أكثر الحاضرين ، وشددنا مصافحين ، على أكثر الأيدي ، ثمّ خرجنا . وكان الظلام داجياً في الخارج . وسأل « كون » :

ـ ماهو الوقت ، الآن ، فيما تظن ؟

وقال « مايك » :

ـ نحن . في الغد ، لقد نمت يومين .

وقال « كَون » :

ـ لا . كنت أعني الساعة .

ـ إنها العاشرة .

ـ يالكثرة ما شربنا!

ـ تعني أننا نحن الذين شربنا وأنت الذي نام .

وفيما كنّا عائدين الى الفندق ، سالكين شوارع مظلمة ، شاهدنا صواريخ تتعالى فوق الساحة . وكان في مقدورنا أن نرى من أطراف الشوارع المفضية الى الساحة ، الجموع الزاخرة في الساحة ، حيث قام الرقص في بهرتها .

وقدّم الينا في الفندق عشاء فاخر ، وكان أوّل عشاء مضاعف الثمن لمناسبة العيد (الفييستا) وكان ثمة ألوان جديدة من الطعام .

ويمّمنا بعد العشاء شطر المدينة وأذكر أنني عوّلت على السهر طوال الليل ليتسنّى لي أن أشاهد الثيران وهي تجوز شوارع المدينة في الساعة السادسة صباحاً . ولكنني كنت من الإعياء وغلبة النعاس بحيث أويت الى فراشي حوالي الساعة الرابعة صباحاً ، وظلّ الباقون ساهرين .

وكانت غرفتي مغلقة ، وإذ لم أستطع العثور على المفتاح فقد صعدت لأنام على أحد السريرين في غرفة « كون » . وكانت احتفالات العيد مستمرّة في الخارج ليلاً ، ولكنني كنت من النعاس بحيث لم أستطع أن أغالب النوم وأسهر .

واستيقظت ، على صوت صاروخ ، يعلن انطلاق الثيران من الحظائر (الكورال) في طرف المدينة . وكانت الثيران تتهيأ لأن تركض نحو الملعب ، عبر الشوارع . وكنت مستغرقاً في نوم عميق فأفقت يخامرني شعور بأنني

استيقظت متأخراً ، وارتديت سترة لـ « كون » ودلفت الى الشرفة .

وبدا الشارع الضيّق ، وأنا أحدّر اليه نظري مقفراً ، وكانت الشرفات جميعها غاصّة بالمتفرجين وعلى حين غرّة ، انثال جمهور غفير الى الشارع وهم يركضون جميعاً في صفوف متراصة ، متّجهين الى الملعب . وخفّ وراءهم رجال بسرعة أكثر ، كما تراءى في أعقابهم بعض المتخلّفين . وكان هؤلاء يركضون حقّاً . وانحسرت خلفهم مسافة قصيرة خالية ، ظهرت بعدها الثيران وهي تخب مسرعة ، هازة رؤوسها الى أعلى وأسفل . ثمّ توارى كل ذلك عن النظر في منعطف الشارع... تعثّر رجل ووقع على الأرض ، ثمّ تدهدى نحو مجرى النهر ، ولكنّه لزم الهدوء وهو مستلق ، فيما كانت الثيران تمر دون أن تلمحه . كانت تعدو ، مجتمعة ،فلمّا اختفت عن النظر ، تعالت ضجّة كبيرة في ملعب مصارعة الثيران ، واستمرّت فترة مديدة . وأخيراً ، أعلن انطلاق صاروخ بأن الثيران التي شقّت طريقها بين الناس قد وصلت الى حظيرة الملعب .

ودخلت الفرقة ،واضطجعت على السرير . وكنت حافي القدمين ، حين وقفت في الشرفة الحجرية ، كما كنت أعلم أن رفاقي قد مضوا الى حلبة مصارعة الثيران . وماكدت أستلقي على السرير حتّى أخذ النوم بمعاقد جفني .

وأيقظني « كون » وهو يدخل ،وأخذ ينتزع ثيابه وأغلق النافذة لأن أشخاصاً كانوا ينظرون اليه ، عبر الشارع ، من شرفة البيت المقابل وسألته :

ـ هل رأيت المشهد ؟

ـ أجل . كنّا هناك جميعاً .

ـ ألم يجرح أحد ؟

ـ لقد هجم أحد الثيران على الجمهور في وسط الملعب وطرح ستة أشخاص أو ثمانية .

ـ وهل سرت« بريت » بمشاهدة ذلك ؟

ـ لقد توالى كل شيء في سرعة خاطفة ، بحيث لم يتسنّ وقت يضجر فيه أي شخص .
ـ وددتّ لو أنني كنت حاضراً .
ـ لم نكن نعلم أين كنت ، لقد جئنا غرفتك ولكنها كانت مغلقة .
ـ وأين أمضيتم السهرة ؟
ـ لقد رقصنا في أحد النوادي .
وقال « كون » :
ـ يا إلهي إنني الآن وسنان ، أفلا ينتهي هذا العيد ؟
ـ لن ينتهي قبل اسبوع .
وفتح « بيل » الباب وأمرّ رأسه وقال :
ـ أين كنت يا « جاك » ؟!
ـ كنت أشاهد الثيران تمرّ ، وأنا في الشرفة .
ـ وكيف رأيتها ؟
ـ إنها لرائعة .
ـ الى أين أنت ذاهب ؟
ـ الى النوم .

ولم ينهض أحد من النوم قبل الظهر ، وتناولنا الطعام تحت القناطر . كانت المدينة حافلة بالناس ، وكان علينا أن ننتظر فترة طويلة حتّى فرغت لنا طاولة . مضينا بعد طعام الغداء الى مقهى (ايرونا) . كان غاصاً بالناس ، كما جعل يمتليء بمزيد من الزبائن كلّما اقترب وقد بدء حفلة مصارعة الثيران ، فكان على الطاولات أن تتدانى متراصة .

وقد أضحى من المألوف أن يعلو لغط الزبائن كل يوم ،قبل بدء حفلة مصارعة الثيران . ولم يكن ليعلو أيّما صوت ، في أي وقت آخر في هذا المقهى مهما يكن مزدحماً . ولم ينقطع هذا اللغط عن الدويّ ، وكنّا في قلبه ، بل كنّا نشارك فيه .

وكنت قد حجزت ستة محلاّت لكل حفلات المصارعة ، ثلاثة محلاّت من صف (الباريرا Barreras) أي (الصف الأوّل من المصاطب) وثلاثة محلاّت من صف (Sobrepnertas) أي (الصف القائم في منتصف الإرتفاع من المدرّج ، ومحلاته ذات مساند خشبية) . ورأى «مايك» أنه من الأنسب أن تجلس «بريت» لأوّل مرة ، في المكان المرتفع ، وشاء «كون» أن يجلس معهما .

وجلست مع «بيل» في صف (الباريرا) وأعطيت البطاقة الباقية لنادل المقهى ليبيعها . وذكر «بيل» لـ«كون» شيئاً عمّا ينبغي أن يفعل وكيف يتعيّن عليه أن يشاهد ، لئلا يؤثّر فيه منظر الجياد ، فقد كان «بيل» قد شاهد من قبل موسماً من حفلات مصارعة الثيران . وقال «كون» :

ـ لا يشغلني وقع المشهد وأثره ، إنّ ما أخشاه هو أن يستبدّ بي الضجر .

ـ هل تفكّر في ذلك حقّاً ؟

وقلت لـ«بريت» :

ـ لاتنظري الى الجياد بعد أن ينطحها الثور ، انظري الى هجومه وكرة وانظري الى الفارس (البيكادور) وهو يحاول أن يتحاشى نطاح الثور ولكن إن جرح الجواد فلا تلقي ببصرك إليه حتّى ينفق .

وقالت «بريت» :

ـ أشعر بأنّ أعصابي قد هاجت بعض الشيء ، وإنني لأتساءل قلقة ، عمّا إذا كان في وسعي أن أصبر على ذلك حتّى النهاية .

ـ بلى ، سيكون في وسعك أن تتحمّلي ، إذ لايوجد سوى مشهد مصرع الجياد الذي قد يؤثّر فيك ، لن يطول هذا أكثر من دقائق معدودة لكل ثور ، ولاتنظري آنئذ ، حين تستشعرين ضيقاً في مشاهدة ذلك .

وقال «مايك» :

ـ ستقوى على ذلك ، على نحو جيّد ، سأهتم بها .

وقال «بيل» :

ـ سأذهب معك .

وابتسمت « بريت » لنا ، ودرنا تحت القناطر لنتجنّب حر الساحة .

وقال « بيل » :

ـ إن « كون » هذا يخرجني عن طوري . إن شعوره اليهودي المتعالي هذا ، هو من القوة ، بحيث يحسب أن الملل هو الأثر الوحيد الذي يخلص له من مشاهدة حفلة مصارعة الثيران .

وقلت :

ـ سوف ننظر اليه بالمنظار المكبّر .

ـ أوه ، ليذهب الى الجحيم .

ـ إنه ينفق ، بحياته التي يعيشها ، جزءاً كبيراً من الوقت في الجحيم .

ـ وددت لو يبقى هناك .

وصادفنا « مونتويا » ، على درج الفندق ، فقال لنا :

ـ تعالا ، هل تودّان التعرّف على « بيدرو روميرو » ؟

وقال « بيل » حسناً ، دعنا نره .

وتبعنا « مونتويا » الى الدور الأوّل ، ودلفنا الى الرواق ، وشرح لنا « مونتويا » :

ـ إنه يقيم في الغرفة رقم ٨ ، وهو يرتدي ثيابه استعداداً للعب . ونقر « مونتويا » على الباب وفتحه ، كانت الغرفة معتّمة ، وكان نور نحيل يتسرّب من نافذة مشرفة على زقاق ضيّق ، وكان ثمة سريران يفصل بينهما آثار كنيسة . وأضاء نور كهربائي فبدا الشاب واقفاً ، منتصباً ، زمّيتاً ، في ثياب مصارع الثيران . وكانت سترته معلّقة على ظهر كرسي ، وكان قد أعين على التمنطق بحزامه منذ هنيهة . وتألّق شعره الأسود في النور الكهربائي ، وكان يرتدي قميصاً أبيض من الكتّان ، فما كاد مساعده ينتهي من وضع الحزام حول خصره ، حتّى نهض وتراجع .

وهزّ « بيدرو روميرو » رأسه تحية لنا ، وصافحنا في اعتداد وترفّع كبيرين . وقال له « مونتويا » شيئاً ، فذكر بأننا من الولوعين (Aficionados)

بمصارعة الثيران ، وأننا نتمنّى له حظاً طيّباً .

وكان « روميرو » يصغي إليه إصغاء موصولاً جدّياً ، ثمّ التفت اليّ ، إنني لم أرَ من قبل فتى منظرانياً[1] جميلاً مثله ، وقال لي بالانكليزية :

ـ أذاهب الى حفلة مصارعة الثيران ؟

وقلت وأنا أشعر بأنني كالأبله :

ـ أتعرف الانكليزية ؟

فأجاب :

ـ لا .

وابتسم...

وكان ثلاثة رجال جالسين على السرير ، وتقدّم منّا أحدهم فسألنا عمّا إذا كنّا نتكلّم الفرنسية وأردف يقول :

ـ هل تودّان أن أقوم بمهمة الترجمان ؟ هل تريدان توجيه بعض الأسئلة الى « بيدرو روميرو » ؟

وشكرناه فأي شيء كان في ميسورناأن نسأله ؟ : كان له من العمر تسعة عشر ربيعاً ، وكان وحيداً ، فيما عدا مساعده والفضوليين الثلاثة ، وكانت الحفلة توشك أن تبدأ بعد عشرين دقيقة وتمنّينا له Mucha Suerte[2] وصافحناه وخرجنا ، وبدا لنا ، فيما كنّا نغلق الباب ، منتصباً جميلاً منفرداً بنفسه ، وحيداً في تلك الغرفة مع الفضوليين الثلاثة .

وقال « مونتويا » :

ـ إنه فتى لطيف . أليس كذلك ؟

وقال « مونتويا » :

ـ إنه يبدو مصارع ثيران (توريرو) حقّاً . إنه نموذج صادق له .

---

(١) الحسن المنظر .

(٢) الحظ السعيد . في الاسبانية .

ـ إنه فتى لطيف .

وقال « مونتويا » :

ـ سوف نرى في الملعب الى مدى مقدرته .

ووجدنا الزق الكبير مسنوداً الى جدار غرفتي فأخذته . كما أخذنا المنظار المكبّر ، وأوصدت غرفتي بالمفتاح ونزلنا .

وكانت حفلة ثيران موفّقة ، وقد تحمّست أنا و« بيل » لـ« بيدرو روميرو » أشد التحمّس . وكان « مونتويا » جالساً ، يفصلنا عنه عشرة محلاّت . فلمّا صرع « روميرو » ثوره الأوّل ، رشقني « مونتويا » بنظره ، وهزّ رأسه مستحسناً . لقد كان « روميرو » مصارعاً حقيقيّاً . وقد مرّ اسم طويل لم ينبه فيه اسم مصارع ثيران حقيقي . وأمّا المصارعان Matadors[1] الآخران ، فقد كان أحدهما حسناً جداً ، وكان الآخر مقبولاً . ولكن لم يكن ثمة مجال لمقارنتهما بـ« بيدرو روميرو » رغم أنه لم يكن ثور واحد من ثيرانه جيداً جداً .

وأجلت بصري ، أثناء اللعب ، بالمنظار المكبّر ، عدة مرّات ، ملتمساً رؤية « مايك » و« بريت » و« مون » فتراءوا لي على أحسن حال ، ولم يبد على « بريت » الانفعال . وكان الثلاثة جميعهم متوكّئين على مسند اسمنتي قبالتهم .

وقال لي « بيل » :

ـ أعرني المنظار المكبّر .

وسألته :

ـ هل يبدو على « كون » سيماء الضجر ؟

ـ يا لليهودي القذر!

ولمّا انتهت الحفلة ، لم يكن في ميسورك أن تتحرّك في الزحام ، عند الخروج من الملعب . ولمّا ألفينا صعوبة في شق طريق بين الجموع ، تركنا أنفسنا نساق مع حشد الناس الى المدينة على مهل ، كأننا فوق مجمدة[2]

---

(١) الميتادور : المصارع الذي يلاعب الثور ثمّ يقتله في النهاية . (المعرب)

(١) المجمدة : glacer

تسعى . وكان يخامرنا شعور بالإنفعال الملتاث الذي يجاذب دوماً من يشاهد حفلة مصارعة ثيران ، وشعور بالفرحة المزهوّة التي تعقب الحفلة الناجحة .

وكان العيد (الفييستا) مستمراً ، وكان درداب الطبول لا يني يدوّي ، والمزامير لاتفتأ تصفر ، وكانت أمواج الجموع المتدفّقة ، تتقدم من جميع الجهات لتتكسّر أمام زمر الراقصين ، حتّى إذا ضمّت الجموع زمر الراقصين ، لم يعد في ميسورك أن ترى الى حركات أرجلهم المعقّدة الرشيقة ، وكل ما كنت تستطيع أن تراه هو الرؤوس والأكتاف التي كانت لاتأتلي ترتفع وتتطامن .

وتمكّنّا أخيراً من أن نخرج من الجموع ، فاتخذنا سمتنا نحو المقهى . وحجز النادل كراسي لرفاقنا ، وطلبنا قدحين من الابسنت ، ونحن نرامق حشر الناس والراقصين في الساحة . وسأل «بيل» :

ـ ما هذه الرقصة فيما تظن ؟

ـ إنها نمط من رقصة (الجوتا) .

وقال «بيل» :

ـ ليست هي نفس الرقصة ، دوماً . إنهم يرقصون في كل مرة رقصة مختلفة ، كلّما تغيّر النغم .

ـ إنها رقصة عذبة .

وفي منفسح عريض منير من الشارع أمامنا ، جعل جمع من الفتيان يرقصون . وكانت خطاهم معقّدة جداً ، ووجوههم تشي بتعبير حاد مركّز . وكانوا يغضّون أبصارهم ، جميعاً ، وهم يرقصون . وكانت نعالهم المحبوكة تضرب الأرض وتنقر عليها ، وأصابع أقدامهم تتلامس وأعقابها تتلامس وأخامصها تتلامس . ولمّا أضحى نغم الموسيقى وحشيّاً تراخت الرقصة الى نهايتها ، ومضى الراقصون كلّهم صعداً في الشارع وهم يرقصون .

وقال «بيل» :

ـ هاهم رفاقنا الأعيان .

ه كانوا يجتازون الشارع ، وقلت :
ـ مرحباً بالأصدقاء .
وقالت « بريت » :
ـ مرحباً بالرفاق ، لقد حجزتم لنا محلاّت ، إنه لطف منكم .
وقال « مايك » :
ـ يا له من فتى « روميرو » هذا ، إنه لفذ ، أمخطىء أنا ؟
وقالت « بريت » :
ـ إنه لفاتن ، أليس كذلك ؟ وهذا السروال الأخضر .
ـ إن « بريت » لم تحوّل بصرها عنه .
ـ اعلم ذلك ، ينبغي أن تعيرني منظارك المكبّر غداً .
ـ هل تمّت الحفلة بنجاح ؟
ـ كانت على جانب كبير من الروعة والكمال ، يالهذا المشهد!
ـ وما رأيك في الجياد ؟
ـ لم يكن في وسعي الإمتناع عن مشاهدتها .
وقال « مايك » :
ـ لم تكن نظرات « بريت » تنحرف عنها . إن « بريت » امرأة صغيرة خارقة .
وقالت « بريت » :
ـ إنّ ما أصابها لشيء رهيب ، ولكنني لم أقدر على الامتناع من رؤيتها .
ـ ألم يسبّب لك ذلك ضيقاً ؟
ـ لم أشعر بشيء يضايقني قط .
وقال « مايك » مبدياً ملاحظته :
ـ لم تكن مثل « روبرت كون » ، لقد انتُسِف لون وجهك يا « كون » .
وقال « كون » :
ـ لقد أثّر في نفسي مرأى الجواد الأوّل .

وسأل «بيل» :

ـ أحسب أنك لم تضجر ، أليس كذلك ؟

وقهقه «كون» :

ـ لا لم أضجر ، آمل أن تصفحوا لي ما قلت بهذا الصدد .

ـ إنّ هذا لحسن ، مادمت لم تضجر .

وقال «مايك» :

ـ لم يكن يلوح عليك الضجر ، حسبت أن ذلك سيسبّب له إزعاجاً .

ـ لم أشعر بالانزعاج ، فيما عدا دقيقة واحدة ليس غير .

ـ كنت أظن أن ذلك سيؤدّي الى انزعاجه ، ولكنه لم يشعر بالضجر يا «روبرت» أليس كذلك ؟

ـ لا تلحّ على ذلك يا «مايك» ، لقد أفصحت بأنني آسف على قولي ذاك .

ـ لقد كان ممتقع اللون ، كما قلت لكم ، كان في الحق ممتقع اللون .

ـ إيه ، ميشيل ، كفى .

وقالت «مايك» :

ـ لاينبغي أن يضجر الانسان حين يشاهد حفلة مصارعة الثيران لأوّل مرة ، فإن ضجره سيؤدّي الى مأزق حرج .

وقال «بريت» :

ـ إيه ميشيل ، كفى .

لقد قال إن بريت سادية الطبع ، ليست «بريت» بسادية ، إنها امرأة صغيرة مفعَمة سحراً وعافية .

وسألت :

ـ أأنت سادية يا «بريت» ؟

ـ أرجو ألا أكون كذلك .

ـ لقد ادّعى أن «بريت» سادية لسبب واحد هو أنّ لها معدة جيدة قوية .

ـ لن تكون قوية أمداً طويلاً .

واتجه « بيل » بـ« مايك » في الحديث الى موضوع لا يتعلّق بـ« كون » ، وأحضر النادل شراب الأبسنت .

وقال « بيل » لـ« كون » ، مستفهماً :

ـ هل راقتك الحفلة حقّاً ؟

ـ لا . لا أستطيع القول إنها راقتني ولكنّي أجد أنها مشهد رائع .

وقالت « بريت » :

ـ يا إلهي! أجل ، ياله من مشهد!

وقال « كون » :

ـ كنت أؤثر الا تشترك الجياد في الملعب .

وقال « بيل » :

ـ ليس هذا مهمّاً ، فبعد مضي فترة وجيزة لا يجد المرء ما يثير اشمئزازه .

وقالت « بريت » :

ـ في البدء يبدو المشهد عنيفاً بعض الشيء . إن ما وجدته مرعباً هو تلك اللحظة التي يهجم فيها الثورعلى الحصان .

وقال « كون » :

ـ كانت الثيران رائعة .

وقال « مايك » :

ـ كانت جيدة جداً .

وقالت « بريت » وهي ترتشف الابسنت :

ـ أود أن أتّخذ مجلسي ، في المرة القادمة ، في الصفوف الأولى السفلى .

وقال « مايك » :

ـ إنها تريد أن ترامق مصارعي الثيران عن كثب .

ـ إنهم لشيء يسير . فهذا الصغير « روميرو » ليس سوى طفل .

وقلت :

ـ إنه فتى وسيم . وقد وجدت ، حين كان في غرفته ، أنني لم أرَ عمري فتى في مثل وسامته .

ـ كم له من العمر فيما تظن ؟

ـ تسع عشرة سنة أو عشرون سنة .

ـ تصوّر ذلك .

وفي اليوم التالي . كانت حفلة مصارعة الثيران أحسن من حفلة اليوم السابق ، وجلست « بريت » في صف (الباريرا) ، بيني وبين « مايك » ، وجلس « بيل » و« كون » في الصف المرتفع .

وكان « روميرو » المصارع البارع المثير ، غير مدافع ولامنازع . وأحسب أن « بريت » لم تتطلّع الى أي مصارع آخر . وفي الواقع ، لم يلعب أحد مثله فيما عدا المدرّبين الأشدّاء . وكان ثمّ فارسان (ماتادور) ، ولكنهما لم يكونا ليحسبا لاعبين حقيقيّين . وإذ كنت جالساً الى جانب « بريت » فقد أخذت اشرح لها مايجري . وطلبت اليها أن تنظر الى الثور لا الى الجواد ، حين يكر الثور هاجماً على الفارس ، وعلمتها أن تلاحظ كيف يسدّد الفارس سنان رمحه حتّى تعرف أنه يقصد الى هدف معيّن ولايقصد أن يثير مشهداً مرعباً لايسوغ له . وأبنت لها كيف كان « روميرو » يبعد الثور بشاله ، عن الجواد الصريع ، وكيف يدعه ، بشاله ، واقفاً لايريم ، ثمّ يحمله الى أن يدور حوله في لين وانسياب دون أن يرهقه . وقد رأت كيف كان « روميرو » يتجنّب أي حركة مفاجئة ، ويحفظ ثيرانه حتّى النهاية ، حتّى الوقت الذي يريد فيه أن تكون ثيرانه لامبهورة الأنفاس مستسلمة بل متعبة على نحو تدريجي .

ورأت « بريت » كيف كان « روميرو » يجعل الثور يدور قريباً منه .وذكرت لها أنّ الحيل التي يلجأ إليها مصارعو الثيران الآخرون ليوحوا بأن الثور يدور قريباً منهم ، وادركت « بريت » لمَ شُغفتْ بلعب « روميرو » بالشال ولمَ لم تحب لعب الآخرين .

ولم يكن « روميرو » يؤدّي حركات ملتوية ، كان اسلوبه في اللعب نقيّاً ، مستقيماً ، طبيعيّاً في خطوطه كلّها . أمّا الآخرون فقد كان الواحد منهم يتلوّى كالمبرام[١] ومرفقاه مرفوعان ، ثمّ ينحني أمام خصر الثور بعد أن يكون قرناه قد مرّا ، ليثير الشعور بالخطر .

وكانت هذه الحركات المتكلّفة تتراخى الى القبح وتخلّف شعوراً غير مستحب . أمّا طريقة مصارعة « روميرو » فقد كانت تهيج في النفس انفعالاً حقيقيّاً ، لأنه كان يحتفظ بنقاء صرف في خطوط حركاته ، وكان يدع دوماً قرني الثور يمرّان في هدوء وطمأنينة ، قريباً منه ، في كلّ مرّه ، دون أن يبالغ في الاقتراب منهما .

ورأت « بريت » كيف أن مايقوم به المصارع رائعاً عن كثب ، ينقلب هزأة حين يقوم به عن بعد . وذكرت لها أنه منذ وفاة « جوزيلتو » فإن جميع مصارعي الثيران قد نهجوا طريقة تتظاهر بالخطر ، لخلق شعور مزيّف بالإنفعال ، بينما يكون مصارع الثيران ، في الواقع ، آمناً . لقد كان « روميرو » يتمسّك بالاسلوب القديم الذي يحتفظ فيه بنقاء خطوط حركاته مع إظهارها ، بأقصى مايمكنه ، بينما يكون في الوقت نفسه ، متسلّطاً على ثوره بإيحائه اليه أنه لايمكن أن يناله ، ومعدّاً إيّاه ليلقى مصرعه .

وقالت « بريت » :

ـ إنني لم ألحظ عليه بأنه قام بحركة خرقاء واحدة .

وقلت :

ـ لن تلحظي ذلك ، إلا إذا ألم به الجزع .

وقال « مايك » :

ـ إنه لن يجزع البتّة ، فهو متمكّن من فنّه .

ـ إنّ ما يعرفه الآن ، كان يعرفه في مستهل بدايته ، وليس في ميسور

---

(١) المبرام : أداه فتح الزجاجة .

الآخرين أن يتعلّموا ماكان يعرفه هو منذ ولادته .

وقالت « بريت » :

ـ وهذا المحيا ، يا إلهي!

وقال « مايك » :

ـ أتدري ؟ لقد بدأت أعتقد بأنها بدأت تميل الى هذا المصارع .

ـ ليس في هذا ما يثير عجبي .

ـ كن لطيفاً يا « جاك » ولاتتحدّث اليها بشيء عنه ، قل لها كيف يضرب هؤلاء أمّهاتهم العجائز .

ـ قل لي كيف يتعتعهم السكر .

وقال « مايك » :

ـ اوه إنهم لمخيفون ، إنهم يسكرون طوال النهار ، ويزجون الوقت بضرب أمّهاتهم العجائز المسكينات ،

وقالت « بريت » :

ـ إنه يبدو كذلك .

ـ أحقّاً ؟

كانوا قد ربطوا الثورالصريع بالبغال . وقرقعت السياط ، وركض الرجال ودفعت البغال قوائمها ، متوتّرة العصب ، وخبّت راكضة وجرّت الثور وحده الى الأرض ، وأخذ قرنيه منتصب . فكنس جسمه الرمل في لين وانسحب في خط دائري ، ثمّ تخطّى الباب الأحمر .

ـ الثور القادم هو الأخير .

وقالت « بريت » :

ـ لا ، حقّاً ؟

وانحنت على صف (الباريرا) .

ولوّح « روميرو » بيده الى الفرسان (البيكادور) فستقروا في أمكنتهم ، ثمّ انتصب واقفاً ، وشاله على صدره ، وشخص بصره الى المكان الذي سيخرج

منه الثور في الملعب .

ولمّا انتهت الحفلة خرجنا وألفينا أنفسنا في الزحام .

وقالت « بريت » :

ـ إنّ حفلات مصارعة الثيران هذه أشبه بالجحيم ، أشعر باسترخاء كأنني خرقة . .

وقال « مايك » :

ـ اوه ، ستشربين شيئاً ما .

وفي ثاني يوم ، لم يلعب « بيدرو روميرو » . كان الدور لثيران « ميورا » وكان اللعب رديئاً . وفي اليوم التالي ، لم يكن ثمّ حفلة مصارعة ثيران في البرنامج ولكن العيد (الفييستا) استمر ، ليل نهار .

الفَصلُ السَّادس عَشَر

في صباح اليوم التالي ، هطل المطر ، ولفّع الجبال ضباب قادم من البحر فلم يكن في ميسورك أن ترى ذرى الجبال . كانت الهضبة معتّمة وحزينة وتغيّر منظر البيوت والأشجار . ومشيت في الخارج ، لأبلو الطقس وكان الطقس السيء قد أتى من البحر ، ماراً فوق الجبال .

وفي الساحة ، كانت الأعلام المبتلّة ، معلّقة بسارياتها البيض . وكانت الرايات مخضّلة ومعلّقة بجبهات البيوت ، وكان الرذاذ ينقلب بين الفينة والفينة الى مطر ، ليلجىء الناس الى القناطر ، مخلّفاً بركاً من الماء في الساحة . وأضحت الشوارع مبتلّة سوداء مقفرة ، ومع ذلك فقد ظلّ العيد قائماً دون إنقطاع ، واستمرّ مظلّلاً من المطر . وملأ الجمهور المحلاّت المسقوفة من الملعب ليكونوا بمنجى من المطر ، ويتابعوا مشاهدة مباريات المنشدين والراقصين الباسكيّين الفافاريين ، وقام راقصو (فال كارلوس) بالرقص في الشارع تحت وابل المطر على درداب الطبول الأجوف الندي ، مرتدين ثيابهم المحلّية . وكان قوّاد الإيقاع يتقدّمونهم وهم على صهوات جيادهم الغليظة ذات القوائم الثقيلة . لذا كانت ثيابهم مبتلّة وجِلال جيادهم مبتلة أيضاً تحت صيّب المطر .

كان جمهور الناس قد زحم المقاهي ، وكان الراقصون يدخلونها أيضاً ، ثمّ يجلسون وأرجلهم البيضاء الملتفّة بالعصائب تلتئم تحت الطاولات ، وهم

ينفضون الماء من قبّعاتهم ذات الجلاجل ، وينشرون ستراتهم الحمر والبنفسجية على الكراسي لتنشف . وكان المطر يسح في الخارج ، سخيّاً .

وتركت الجمع في المقهى ومضيت الى الفندق ، لأحلق قبل العشاء . وقُرع عليّ باب غرفتي فيما كنت أحلق ، وقلت :

ـ ادخل .

ودخل « مونتويا » وقال :

ـ كيف حالك . ؟

قلت :

ـ حسنة .

ـ اليوم ليس ثمّة ثيران .

قلت :

ـ لا . بل مطر ليس غير .

ـ أين رفاقك ؟

ـ في مقهى (ايرونا)

وابتسم « مونتويا » ابتسامته المرتبكة وقال :

ـ قل لي ، لعلّك تعرف سفير الولايات المتّحدة ؟

قلت :

ـ نعم . كل الناس يعرفون سفير الولايات المتّحدة .

ـ إنه اليوم في المدينة .

ـ لقد رآه الجميع .

وقال « مونتويا » :

ـ لقد رأيته أنا أيضاً .

وأمسك عن الكلام . واستأنفت الحلق ، وقلت :

ـ اجلس ، دعني أطلب لك مشروباً ما .

ـ لا ، ينبغي أن أذهب .

وانتهيت من الحلاقة وغطّست رأسي في طست وغسلته بالماء البارد ، وكان « مونتويا » لايزال واقفاً وقد بدا على وجهه مزيد من الإرتباك :

ـ اصغ إليّ ، لقد أنهى اليّ الآن من (الفندق الكبير) رغبته في أن يشرب القهوة مع « بيدرو روميرو » و« مارسيال لالاندا » ، مساء ، بعد العشاء .

وقلت :

ـ حسناً ، ليس في ذلك ضرر على « مارسيال » .

ـ لقد ذهب « مارسيال » الى « سان سيباستيان » ليبقى فيها طوال النهار . وقد استقلّ السيّارة صباحاً ، مع « ماركيز » ، وأحسب أنهما لن يعودا ، الليلة .

وظلّ « مونتويا » واقفاً ، مرتبكاً . . كان يتوقع أن أقول شيئاً ما . وقلت :

ـ لاتنقل هذه الرغبة الى « روميرو » .

ـ هل ترى ذلك ؟

ـ بكل تأكيد .

ـ كنت أودّ أن أعرف رأيك لكونك أميركيّاً .

ـ هذا ماأفعله .

وقال « مونتويا » :

ـ أنت تعلم أنّ الناس ينظرون هكذا ، الى أيّما فتى ، إنهم لايعرفون قيمته ولا شأنه ، إن في ميسور أي أجنبي أن يطريه . وكذلك تبدأ القصص كلّها في (الفندق الكبير) ، وبعد مضي عام يصبح صفراً لا جدوى منه .

ـ مثل (الغابينو) .

ـ بلى ، مثل « الغابينو » .

وقلت :

ـ إنه وسط جميل... ثمّة امرأة امريكية تستصفي حاليّاً نماذج من مصارعي الثيران .

ـ اعلم أنّهن يؤثرن الفتيان الأغرار .

قلت :

ـ أجل فإنّ الشيوخ يصبحون مترهّلين .

ـ أو مجانين مثل « غالو » .

قلت :

ـ حسناً ، إنه لشيء يسير . كل مايتعيّن عليك أن تفعله هو أن تنقل إعلامه بالدعوة .

قال « مونتويا » :

ـ إنه شاب لطيف ، ينبغي أن يلزم محيطه وألا يختلط بغير وسطه .

ـ أحقّاً أنّك لا تريد أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال « مونتويا » :

ـ لا ، عليّ أن أمضي .

وخرج ، ونزلت ، وتخطّيت الباب ، ودرت حول الساحة أتدرّأ بالقناطر . فقد كان المطر لايني يسحّ . وبحثت عن جماعتي في مقهى (الايرونا) فلم أعثر عليهم ثمّة ، وجعلت أدور حول الساحة ثمّ انقلبت عائداً الى الفندق ، فإذا بهم يتعشّون في حجرة الطعام من الدور الأرضي .

كانوا قد سبقوني باحتساء أقداح عديدة ، وكان من العبث أن أداني ما أصابوه من شراب ، وكان « بيل » مهمّاً بأن يمسح حذاء « مايك » فكان ينادي كل ماسح أحذية يدخل الباب المفضي الى الشارع ويحمله على مسح حذاء « مايك » . وقال « مايك » :

ـ هذه هي المرة الخامسة ، يمسح فيها حذائي . ان« بيل » لحمار . ولا شك ان ماسحي الاحذية قد اخذوا علماً بذلك ، فقد وفد ماسح احذية جديد ، وقال لـ« بيل » :

ـ Limpia Botad ماسح أحذية .

وقال له « بيل » :

ـ لا ، لهذا السنيور .

وقبع ماسح الاحذية الى جانب زميل له ، وتناول فردة حذاء « مايك » وكان الحذاء يلمع في النور الكهربائي ، وقال « مايك » :

ـ إنّ « بيل » لمضحك .

وشربت شيئاً من النبيذ الأحمر ، بيد أنني كنت متخلّفاً الى حد أشعرني بأنني قد ضقت بمسح الأحذية . وأجلت طرفي في حجرة الطعام ، فإذا بي ألمح « بيدرو روميرو » جالساً الى الطاولة المجاورة . ونهض حين حنيت له رأسي ، وطلب اليّ أن أقدم لأتعرّف على أحد أصدقائه ، وكانت طاولته تكاد تلامس طاولتنا . وعرّفني الى صديقه وهو ناقد فنّي لمصارعة الثيران ، من (مدريد) وكان رجلاً قميئاً هضيم الوجه ، وأفضيت الى « روميرو » اعجابي بفنّه . فشاع السرور في محياه . وكنّا نتكلّم الاسبانية ، وكان الناقد يعرف الفرنسية بعض الشيء ، وانحنيت نحو طاولتنا لأتناول منها زجاجة الخمر . بيد أنّ الناقد أمسك بذراعي... وضحك « روميرو » وقال بانكليزية :

ـ اشرب من هنا .

وكان يتحرّج كثيراً من التحدّث بالانكليزية ، ولكنه كان مغتبطاً بذلك في قرارة نفسه . وتلفظ ، خلال الحديث ، بكلمات لم يكن يعرف معناها ، على نحوٍ مؤكّد صحيح ، ثمّ طلب اليّ تفسيرها ، وكان يرغب في معرفة الترجمة الصحيحة لتعبير (Corrida de Loros) في الانكليزية . وكان يرتاب من التعبير (bull Fight) وفسّرت له أنّ (bull fight) تعني حرفيّاً في الاسبانية : (Lidia of a tiro) وأن لفظة (corrida) الاسبانية تعني في الانكليزية : The rumming of bull وأنّ الترجمة الفرنسية هي : (Course de taureaux) فلا يوجد إذن لفظة اسبانية معروفة لما يقابل في الانكليزية : (bull fight) .

وقال « بيدرو روميرو » أنه ألمّ بشيء من الانكليزية في (جبل طارق) ، فقد ولد في (رواندا) التي تقع بالقرب من شمالي (جبل طارق) وقد بدأ يتعلّم مصارعة الثيران في (ملقه) ، حيث توجد مدرسة لتعليم مصارعة الثيران . ولم يدرس هنا سوى ثلاث سنوات . وعاتبه الناقد على لفظ (Malagueno ملقه)

الذي كان يلهج به .

وقال « روميرو » إن لـه تسعة عشر عاماً من العمر وإنّ أخاه الأكبر يرافقه ويشتغل له (حامل لواء Banderillero) ، ولكنه لايقيم معه في هذا الفندق ، بل في فندق أصغر ، مع بقية أعضاء الفريق الذين يعملون معه .

وسألني عن عدد المرّات التي شاهدته فيها في حلبة مصارعة الثيران ، وقلت له ثلاث مرّات فحسب . وفي الواقع أنني لم أره سوى مرّتين ، وقد فهت بهذا الخطأ ولم أشأ أن ألجأ الى التفسير .

ـ أين رأيتني في المرّات السابقة ؟ في مدريد ؟

ـ أجل (كنت أكذب . فقد قرأت وصف هاتين الحفلتين في (مدريد) في جرائد مصارعة الثيران . كنت أدخّن في منجى من العثار) .

ـ أفي المرّة الأولى أم في الثانية ؟

ـ في الأولى .

قال :

ـ لقد كنت فيها رديئاً جداً ، أمّا في المرة الثانية فكنت أفضّل ، أفلا تتذكّر ذلك ؟ (والتفت الى الناقد) .

ولم يكن ليأخذه الارتباك قط ، كان يتكلّم عن مهنته وكأنه يتحدّث عن شيء منفصل ، ولم يكن يلابسه غرور أو صلف . وقال :

ـ إنني لجد سعيد أن أرى اليك تحبّ فنّي ، ولكنّك لم تشاهد شيئاً ذا شأن حتّى الآن . غداً ، إن حظيت بثور جيّد ، فلأرينك مافي وسعي أن أقوم به .

كان يبتسم . بينما هو يقول ذلك ، مستطلعاً ، في قلق ، عمّا إذا كنّا نفكّر ، أنا والناقد ، في أنه ينفخ نفسه ويتمدحها .

وقال الناقد :

ـ إنني أتوق الى مشاهدة حفلة الغد ، فأنا أؤثر أن أقنع نفسي بذلك .

والتفت « روميرو » اليّ في رصانة وجد وقال :

ـ إنه لا يحب كثيراً طريقتي في اللعب .

وأجاب الناقد أنه يحب طريقته كثيراً ولكنه يجد أنها ، على قوّتها ، لم تتكامل بعد .

ـ انتظر الى غد لترى إن كان لديّ طريقة حسنة .

وسألني الناقد :

ـ هل رأيت الثيران التي ستظهر في حفلة العيد ؟

ـ أجل رأيتها وهي تنقل .

وانحنى « روميرو » وسأل :

ـ ما رأيك فيها ؟

قلت :

ـ قلت إنها رائعة . يزن الواحد منها حوالي ستة وعشرين (اروبا ar-robas) . إن قرونها صغيرة ، هل رأيتها ؟

وقال « روميرو » :

ـ أوه . أجل .

وقال الناقد :

ـ ولكن الواحد لا يزن ستة وعشرين (اروبا) .

وقال « روميرو » :

ـ لا .

وقال الناقد :

ـ أمّا القرون... فأحسب أنها تحمل موزاً لا قروناً .

وسأل « روميرو » :

ـ إنّك تسمّي هذه القرون موزاً ؟ (والتفت إليّ مبتسماً) لست أنت الذي يدعوها موزاً ؟

قلت :

ـ لا . إنها قرون حقيقية .

وقال « بيدرو روميرو » :

ـ إنها قصيرة ، قصيرة جداً ، ولكنها ، مع ذلك ليست كالموز .
وهتف « بريت » من الطاولة المجاورة :
ـ إيه « جاك » ، لقد فررت منّا ؟
قلت :
ـ مؤقّتاً ليس غير ، إننا نتحدّث عن الثيران .
ـ يا لك من متعالٍ!
وصاح مايك قائلاً (وكان ثملاً) :
ـ قل له إنّ الثيران ليس لها قرون .
ورشقني « روميرو » بنظرة استفهام . وقلت :
ـ borracho, muy borracho أي أنه سكران . سكران جدّاً .
وقالت « بريت » :
ـ كان في مقدورك أن تعرّفنا على أصدقائك .
وكانت ترامق « بيدرو روميرو » على نحو موصول . وسألتهم إن كانوا يودّون أن يشربوا القهوة معنا ، فنهضوا جميعاً . وبدا وجه « روميرو » شديد السمرة ، وكان جمّ الأدب .
وقدّمهم لحلقة جماعتنا ، وتهيّأوا للجلوس ، لولا أنه لم يكن ثمّ منفسح كافٍ من المكان ، فانتقلنا جميعاً الى الطاولة الكبرى القائمة الى جانب الباب ، لنشرب القهوة . وكان الحديث ، حديث أشخاص سكارى إذ قال « بيل » :
ـ قل له إنّ مهنة الكاتب هي مهنة مقيتة قذرة ، هيّا قل له هذا ، قل له إنني أخجل من كوني كاتباً .
وكان « بيدرو » جالساً الى جانب « بريت » يصغي اليها .
وقال « بيل » :
ـ إيه هلاّ قلت له ذلك .
وصعد « روميرو » بعده مبتسماً وقلت :

ـ إن هذا السيد كاتب .

وخلفت هذه الكلمات تأثيراً في وجه « روميرو » .

وقلت وأنا أشير الى « كون » :

ـ والآخر كاتب أيضاً .

ـ إنه يشابه « فيلاتا » ، أفلا تجد يا « رفائيل » أنه يشابه « فيلاتا » ؟

وقال الناقد :

ـ لا ، لا أرى ذلك .

وقال « روميرو » بالاسبانية :

ـ حقّاً إنه يشابه « فيلاتا » . وهذا السكران ماذا يعمل ؟

ـ لاشيء .

ـ ولهذا السبب فإنه يسكر .

ـ لا ، إنه ينتظر الوقت الذي يتزوّج فيه السيدة .

ـ وهدر « مايك » صائحاً من طرف الطاولة وقد استبدّ به السكر :

ـ قل له إن الثيران عاطلة من القرون .

ـ ماذا يقول ؟

ـ إنه سكران .

وصرخ مايك :

ـ « جاك » ، قل له أن الثيران ليس لها قرون .

وقلت :

ـ أفهمت ؟

ـ أجل .

كنت متأكّداً من أنه لم يفهم . فلم يكن اذن أي محذور .

ـ قل له إن « بريت » تود أن تراه وهو يرتدي سرواله الأخضر .

ـ صه يا « مايك » .

ـ قل له إن « بريت » تتحرّق شوقاً الى رؤيته وهو يلبس سرواله هذا

الأخضر .

ـ اخرس .

وكان « روميرو أثناء ذلك ، يجسّ كأسه ، ويتحدّث الى « بريت » ، التي كانت تتكلّم الفرنسية ، بينما هو يتكلّم الاسبانية وينطق كلمات يسيرة من الانكليزية . وكان يضحك .

وكان « بيل » يملأ الكؤوس .

ـ قل له إن « بريت » تود أن تدخل . .

ـ إيه « مايك » بحق المسيح ، أغلق فمك .

وأخذ « روميرو » ينظر ، مبتسماً وقال :

ـ (اغلق فمك) ؟ إنني أعرف ماذا تعني هذه الجملة . .

وفي تلك اللحظة ، دخل « مونتويا » الغرفة ، وجعل يبتسم لي حين رأى الى « بيدرو روميرو » حاملاً قدحاً كبيراً من الكونياك ، ضاحكاً ، جالساً بيني وبين امرأة ذات كتفين عاريين ، حول طاولة حافلة بالسكارى . ولم يهزّ رأسه محيّياً ، ثمّ خرج من الغرفة .

ووقف « مايك » مقترحاً بأن نشرب الخمر أنخاباً . وبدأ :

ـ لنشرب على نخب...

وأتممت :

ـ على نخب « بيدرو روميرو » .

ونهض الجميع ، وتلقّى « روميرو » ذلك ، بجد ظاهر . وقرعنا كؤوسنا ثمّ أفرغناها . وقد جددت في إنهاء ذلك ، لأنّ « مايك » كان يحاول أن يوضّح أنه لم يكن هذا هو النخب الذي قصد اليه . وانتهى كل شيء بسلام . وبعد أن صافح « بيدرو روميرو » الجميع ، خرج هو والناقد .

وقالت « بريت » :

ـ ياالهي ، ياله من فتى وسيم! أود رؤيته وهو يرتدي ثياب اللعب . ينبغي أن يستعمل ملبس الحذاء .

وبادر «مايك» الى القول :

ـ هذا ماكنت أتهيّأ أن أقوله له ، وفي كل مرّة كان «جاك» يقاطعني . لماذا تقاطعني ؟ أتظن أنّك تتكلّم الاسبانية أحسن مما أتكلّمها!! ؟

ـ اوه ، كفى يا« مايك» ، لم يقاطعك أحد .

ـ كلا ، أودّ أن أحسم هذا الأمر (وأشاح بوجهه عنّي) هل تظن أن لك أهمّية تذكر يا « كون » ، هل تظن أن مكانك هو بيننا ؟ بين جماعة قدمت الى هنا لتزجي وقتاً طيباً . بالله عليك ، لاتثر إذن صخباً كبيراً يا « كون » .

وقال « كون » :

ـ إيه ، كفى ، يا « مايك» .

ـ أتظن أن « بريت » حريصة على مشاهدتك هنا ؟ أم تظن أنّك تضيف بوجودك شيئاً ما الى جمعنا ؟ لم لاتقول شيئاً ؟

ـ لقد قلت كل ماأريد قوله ، في ذلك المساء يا« مايك» .

ـ لست رجلاً من رجال الفكر . (ونهض « مايك» وهو يترنّح ، ثمّ توكّأ على الطاولة) ولست ذكياً ولكنني أعرف امرءاً غير مرغوب فيه . لم لا تعرف حين تكون أنت غير مرغوب فيك يا « كون » ؟ اذهب اذهب ، بحق الاله ، دعنا من سحنتك اليهودية الكئيبة ، ألا تظنّون أنني على حق ؟

وكان يحدّجنا بنظره . وقلت :

ـ طبعاً ، هيّا بنا نذهب الى مقهى (ايروما) .

ـ لا ، ألا تجدون أنني على حق ؟ إنني أعشق هذه المرأة .

وقالت « بريت» :

ـ أوه . لا تعاود ذلك كرّة أخرى ، كفى يا« ميشيل » .

ـ ألا تجد أنني على حق يا « جاك» ؟

كان « كون » لايزال جالساً الى الطاولة ، وأضحى وجهه شاحباً مصفراً كما يبدو في كل مرة توجه اليه الإهانة ، غير أنه في قسمات وجهه ، كانت تتراءى سيماء الاستمتاع والرضى . فكأنه كان يلذ ما كان يمليه السكر

والبطولة الصبيانية . فقد كانت مغامراته تلك مع امرأة تحمل لقباً نبيلاً .

وقال « مايك » وكأنه مشفٍ على البكاء :

ـ « جاك » ، إنّك تعلم أنني على حق ، إصغ اليّ (والتفت الى « كون ») اذهب ، اذهب في الحال .

وقال « كون » :

ـ ولكنني لست راغباً في الذهاب يا « مايك » .

ـ إذن سأقسرك على ذلك .

وتهيّأ « مايك » لأن يدور حول الطاولة ، ونهض « كون » ونزع نظّارته . وكان ينتظر ، واقفاً ، شاحب الوجه ، ويداه منخفضتان قليلاً ، مستعداً لتلقي الهجوم ، في عزم وإباء ، متهيّأ للقتال من أجل حب أميرة قلبه .

وأمسكت ب« مايك » وقلت :

ـ تعال الى المقهى ، إنّك لا تقدر أن تقابله هنا في الفندق .

وقال « مايك » :

ـ حسناً إنها لفكرة جيدة .

وسرنا . والتفتّ الى « مايك » الذي كان يسعى مترنّحاً بين الكراسي ، فلمحت « كون » يضع نظّارته على عينيه . ولمّا جلس « بيل » الى الطاولة ، سكب في قدحه شيئاً من (الفوندادور) ، أمّا « بريت » فقد شخص بصرها ، وهي جالسة ، الى المدى البعيد أمامها . ولمّا خلصنا الى الساحة الفينا المطر قد انقطع .

كان القمر يحاول أن يشق ركام الغيوم ، وكانت تهبّ الريح ، وكانت الموسيقى العسكرية تعزف . .

وتجمع الناس في طرف قصي من الساحة ، حيث وقف رجل خبير بالألعاب النارية مع ابنه وهما يحاولان إرسال كرات ورقية مضاءة ، الى الفضاء .

وارتفعت فجأة كرة ، وهي ترتج ثمّ جنحت الى جانب . لعلّها تمزّقت

بالريح فتهاوت فوق بيوت الساحة . وكان بعض هذه الكرات يتساقط فوق الناس ، وكان المنغنزيوم يشتعل والألعاب النارية تنفجر وتتواثب بين الناس ، ولم يعد ثمة أحد يرقص في الساحة فقد أصبحت حصباء الأرض مبتلّة جداً .

وأقبلت « بريت » مع « بيل » فانضمّا الينا ، وجعلنا ننظر الى (دون مانويل اوركيتو) ملك الألعاب النارية ، بين جمهور الناس ، وهو منتصب فوق منصّة صغيرة يقذف كراته في عناية واهتمام . وكان قائماً مشرفاً على الجمهور ، مرسلاً كراته في الفضاء ليطوّح بها الهواء كلّها على الأرض .

وكان وجه « دون اوركيتو » يتراءى منتضحاً بالعرق ، في ضوء الألعاب النارية المعقّدة التي كانت تسقط وسط الجمهور ، متدفّقة ، متفجّرة باصقة بين الأقدام .

وكان الجمهور يهدر كلّما تعالت كرة مضاءة ، واشتعلت ثمّ تهاوت .

وقال « بيل » :

ـ نعم إنهم يغنّون « دون مانويل » :

وسألت « بريت » :

ـ وكيف عرفت أنه يدعى « دون مانويل » ؟

ـ إنّ اسمه مذكور في البرنامج « دون مانويل اوركيتو » صانع الألعاب النارية البلدي .

وقال « مايك » :

ـ الكرات المضاءة globos Iluminados « مجموعة من الكرات المضاءة » هذا هو المذكور في البرنامج .

وكانت الريح تسفي الموسيقى العسكرية .

وقالت « بريت »

ـ أود أن أرى واحدة من الكرات تصعد ، إنّ « دون مانويل » لمغضب .

وقال « بيل » :

ـ لقد جهد على الأرجح طوال أسابيع ليتسنّى له أن يؤلّف هذه الكلمات :

ليحيَ (سان فرمان) .

وقال « مايك » :

ـ الكرات المضاءة globos Iluminados ، باقة من الكرات المضاءة الدامية .

وقالت « بريت » :

ـ لنذهب لن نبقى هنا .

وقال « مايك » :

ـ إنّ سيادتها تريد أن تشرب كأساً .

وقال « بريت » :

ـ لكم تعرف أشياء جمة!

ـ وفي الداخل كان المقهى مزدحماً كثير الجلبة فلم يلمح أحد مجيئنا ، واستحال العثور على طاولة خالية ، وكانت تتعالى ضوضاء صاخبة .

وقال « بيل » :

ـ « تعالوا ، دعنا نخرج من هنا » .

وأخذنا نتنزّه في هذا اليوم تحت القناطر ، وكان هناك بعض الانكليز والامريكيين من (بياريتز) وقد ارتدوا ملابس رياضية وتوزّعوا على الطاولات ، وكان بعض النساء يحدّجن المارة بنظّارة يدوية . والتقينا مصادفة بصديقه « بيل » من « بياريتز » وكانت قد نزلت في (الفندق الكبير) مع فتاة أخرى . وكانت هذه قد ألمّ بها صداع فلاذت بغرفتها .

وقال « مايك » :

ـ هاهي ذي حانة .

وكانت هذه حانة (ميلانو) ، وهي حانة صغيرة خليعة ، في ميسور زبائنها تناول الطعام فيها والرقص في حجرة خلفية .

وجلسنا الى طاولة ، وطلبنا زجاجة (فوندارو) ، ولم يكن ثمّة كثير من الناس ، فلم يكن يحدث آنذاك أي شيء .

وقال « بيل » :

ـ إنه لمكان جهنّمي .

ـ لقد أتينا مبكّرين .

وقال « بيل » :

ـ لنأخذ الزجاجة ، ولنعد فيما بعد . لاأودّ أن أبقى هنا في ليلة مثل هذه .

وقال « مايك » :

ـ دعنا نشاهد الانكليز ، إنني أعبد النظر الى الانكليز .

وقال « بيل » :

ـ إنهم لكريهون ، من أين أتوا كلّهم ؟

وقال « مايك » :

ـ لقد أتوا من (بياريتز) ، إنهم يقدمون ليروا احتفالات اليوم الأخير من العيد (الفييستا) الاسباني الصغير المشوّق .

وقال « بيل » :

ـ سوف أحشوهم أنا بالفييستا .

وقال « مايك » لصديقة « بيل » :

ـ إنّك لرائعة! بصورة خارقة ، متى قدمت الى هنا ؟

كفى يا « ميشيل » .

ـ أنا لا أمزح ، إنها فاتنة ، أين كنت من قبل ؟ وأين كانت عيناي في هذا الوقت كلّه ؟ إنّك لفاتنة! هل تمّ تعارفنا ؟ تعالي معي و« بيل » . سوف نحشو الانكليز بالفييستا .

وقال « بيل » :

ـ سوف أحشوهم بالعيد (الفييستا) ، أي جحيم قذف بهم ليفعلوا في هذا العيد ؟

وقال « مايك » :

ـ هيّا بنا نحن الثلاثة وحسب ، سوف نحشو هؤلاء الانكليز القذرين

بالفييستا . أتمنّى ألا تكوني انكليزية ، أنا اسكتلندي ، وإنني لأكره الانكليز ولسوف أحشوهم بالفييستا ، هيّا بنا يا «بيل» .

ورأينا من النافذة الى هؤلاء الثلاثة ، يد كل منهم في يد الآخر . وكانت تصعد صواريخ في الساحة . وقالت «بريت» :

ـ سأبقى أنا هنا .

وقال «كون» :

ـ سأبقى معك .

ـ أوه لا ، بحق الإله ، إذهب أنّى شئت ، ألم ترَ أننا ، أنا وجاك ، نرغب في التحدّث سوية!

وقال «كون» :

ـ لم أكن أعلم ذلك ، كنت أفكّر في البقاء هنا لأنني ثمل قليلاً .

ـ أي سبب هذا يتعلّل به للبقاء مع الناس! إن كنت ثملاً قليلاًفاذهب الى النوم ، هيّا اذهب الى النوم .

وسألتني «بريت» :

ـ هل كنت قاسية معه ؟ (وكان كون قد مضى) ، ربّاه ، أنا أشعر معه بضيق يذويني .

ـ إنه لايضيف شيئاً كثيراً الى الجذل والحبور .

ـ إنه يضنيني .

ـ لقد كان مسلكه سيئاً جدّاً .

ـ كان سيئاً ، على نحو لعين ، وكان في ميسوره أن يجعل مسلكه ملائماً .

ـ إنه على الأرجح ينتظر خلف الباب .

ـ بلى ، إنّ هذا يتلائم مع خلقه . أتعلم أنني أدري جيّداً ماذا يشعر ، ولكن ليس في مكنته أن يعتقد أن كل مايفعل ليس بمجدٍ في شيء .

ـ أعلم ذلك .

ـ لايوجد أحد غيره يمكن أن يكون له مثل ذلك المسلك الزري ، اوه ، لقد اضنتني كل هذه الأشياء . و« ميشيل » ؟ لقد كان « ميشيل » رائعاً هو الآخر .

ـ ولكن ذلك ضايق « ميشيل » على نحو لعين .

ـ بلى ، ولكن ، ليس هذا مسوّغاً يحمله على أن ينهج مسلك الخنزير .

وقلت :

ـ إنّ الناس ينهجون المسلك السيء وينبغي أن تعطى لهم الفرصة المناسبة .

ـ وأنت لا تنهج مسلكاً سيّئاً (ورنت اليّ « بريت ») .

وقلت :

ـ إنني قد أكون حماراً مثل « كون » .

ـ عزيزي . لاتقل مثل هذه الحماقات .

ـ حسناً . قولي ما تودّين أن تقوليه .

ـ لا تكن صعباً ، إنّك الشخص الوحيد الذي آثرته ، أشعر بصداع مؤلم . هذا المساء .

ـ لقد آثرت « مايك » .

ـ أجل « مايك » أرأيت كيف كان رائعاً ؟

وقلت :

ـ لقد ضايقه كثيراً وجود « كون » هنا . ورأيته يدور حولك طول الوقت .

ـ لعلّك تحسب أنني لا أعرف ذلك ياعزيزي ، أرجوألا تسبّب لي مزيداً من الضيق .

ولم أرَ « بريت » ، من قبل ، ثائرة الأعصاب كاليوم . كانت تتحاشى النظر اليّ ، وكانت تحدّق الى الحائط أمامها .

ـ هل لك أن تتمشّى قليلاً ؟

ـ أجل ، هيّا بنا .

وسددت زجاجة (الفوندادور) وأعدناها الى ساقي المشرب .

ـ لنشرب قدحاً آخر من براندي (الأمونتيلادو) .

ـ هيا بنا .

وفيما كنّا نخرج بصرت بـ « كون » يبتعد ، تحت القناطر . وقالت « بريت » :

ـ لقد كان هنا .

ـ إنه لايطيق الإبتعاد عنك .

ـ ياللشيطان المسكين!

ـ لست بمتألّم له . إنني أكرهه .

ـ إنني أكرهه أيضاً (وارتجفت) وأكره ألمه اللعين .

ودلفنا الى الشارع الضيّق وذراعي في ذراعها ، لنتحاشى الناس وأضواء الساحة . كان الشارع معتّماً ومبللاً . وتابعنا السير في مدى الشارع حتّى شارفنا السور القائم في أقصى المدينة ، ومررنا بحانات كانت أنوارها المنثالة من الأبواب المشرعة تضيء الى حلك الليل فتنساب على أرض الشارع المخضلة ، وتعانق نفحات الموسيقى المفاجئة .

ـ هل تودّين الدخول ؟

ـ لا .

وتمشّينا فوق العشب حتّى دانينا جدار السور الحجري . وبسطت جريدة على الحجر ، وجلست « بريت » فوقها . وكانت الظلمة تسربل السهل ، غير أننا كنّا نستطيع رؤية الجبال . وكانت الريح تهيم في العلاء وتسوق الغيوم أمام القمر ، وكانت أمامنا ظلمة هذا السور ، وكانت خلفنا الأشجار وظلّ الكنيسة وطيف المدينة في ضوء القمر .

وقلت :

ـ لايأخذك الغم .

ـ أشعر بضيق جهنّمي ، دعنا من الكلام .

كنّا نتأمّل في السهل ، وكانت صفوف الأشجار الطويلة معتمة في ضوء القمر . وشعّت ، على الطريق التي تتسلّق الجبل أنوار سيّارة كما رأينا فوق قمّة الجبل أضواء القلعة . وفي الأسفل الى اليسار ، كان ينساب النهر طامياً بسبب الأمطار ، ويبدو أسود أملس بينما الأشجار تنتصب قائمة على عدوتي الوادي . ومكثنا ثمة جالسين نتأمّل ، وبريت ترسل الطرف في المدى المنبسط أمامها . وارتعشت فجأة .

ـ الجو قد برد .

ـ هل تريدين أن نعود ؟

ـ عبر المنتزه .

وانحدرنا بينما أخذت الغيوم تتراكم وتحجب السماء وفي المنتزه كانت الظلمة داجية تحت الأشجار .

ـ « جاك » ، ألا تزال تحبّني ؟

ـ قلت :

ـ أجل .

وقالت « بريت » :

ـ أنا امرأة ضائعة .

ـ كيف ؟

ـ أنا امرأة ضائعة ، لأنني مجنونة بهذا الفتى الصغير « روميرو » ، أحسب أنني أحبه .

ـ لو كنت بدلاً منك ، لحاذرت ذلك .

ـ لا أستطيع أن أتجنّبه ، إنني ضائعة ، أشعر بشيء يمزّقني في الداخل .

ـ إيّاك أن تفعلي شيئاً .

ـ لا أستطيع أن أتجنّبه . لم أكن قادرة ، عمري كله ، على تجنّب أي شيء .

ـ ينبغي أن توقفي ذلك .

ـ وكيف أستطيع أن أوقفه ؟ ليس في مكنتي أن أوقف وقوع أي شيء .
ـ إيه... ألا ترى الى يدي ؟
كانت يدها ترتعش ، واستطردت تقول :
ـ إنّ كياني كلّه يرتعش مثلها .
ـ يجب ألا تفعلي ذلك .
ـ لاأملك تجنّب ذلك ، إنني ضائعة الآن على أي حال ، أتجد أنت فرقاً ؟
ـ لا .
ـ يجب أن أفعل شيئاً ما ، يجب أن أفعل شيئاً ما ، حقّاً أريد أن أفعل شيئاً ما ، لقد أضعت كل احترامي لذاتي .
ـ ليس هذا بمسوّغ لك أن تفعليه .
ـ اوه ياعزيزي ، لاتكن صعباً . أتحسب إنه شيء مستحب أن أرى الى هذا اليهودي اللعين يدور حولي والى « مايك » يقوم بتصرّفاته .
ـ أدري ذلك .
ـ استطيع مع هذا ، أن أبقى سكرى ، دوماً .
ـ لا .
ـ اوه يا عزيزي الزم جانبي ، لا تتركني ، أعنّي على التخلّص من هذا كلّه .
ـ بكل سرور .
ـ لاأقول إن هذا جيّد ، ولو أنني أجد أنه جيّد لي . الله يعلم بأنني لم أشعر من قبل بمثل هذه الصبابة .
ـ ماذا تريدين أن أفعل ؟
وقالت « بريت » :
ـ تعال ، لنحاول أن نجده .
واجتزنا معاً الممر المحصّب في عتمة المنتزة تحت الأشجار ، ثمّ خرجنا منها وتخطّينا باباً كبيراً مضينا بعده في الشارع المفضي الى المدينة .

وكان « بيدرو روميرو » في المقهى ، جالساً الى طاولة ، مع نفر من مصارعي ثيران آخرين ، ونقاد مصارعة الثيران . وكان الجميع يدخّنون السيجار ، ولمّا دخلنا شخصت أبصارهم إلينا ، وابتسم « روميرو » منحنياً ، وجلسنا الى طاولة قريبة من وسط الغرفة .

ـ قل له أن يأتي الى هنا ، ليشرب شيئاً ما .

ـ ليس الآن ، سيأتي بنفسه .

ـ لا أستطيع أن أنظر اليه .

وقلت :

ـ إنه لمن الممتع أن ينظر المرء اليه .

ـ إنني أفعل دوماً كل ماأريد .

ـ أدري ذلك .

ـ أشعر بأنني متيّمة به .

قلت :

ـ حسناً .

وقالت « بريت » :

ـ يا إلهي ، أشعر بكل ما يتعيّن على المرأة أن تبلوه .

ـ حقّاً ؟

ـ أوه أشعر بأنني مولّهة به .

وانسابت نظراتي عبر الطاولة ، فرأيت « بيدرو روميرو » يبتسم ، ثمّ أفضى بشيء الى بقية الجالسين الى طاولته ، ونهض واقترب من طاولتنا ، ونهضت فتصافحنا .

ـ هل تود أن تشرب شيئاً ما ؟

وقال :

ـ ينبغي أن تشربا أنتما معي .

وجلس مستأذناً من « بريت » دون أن ينبس ببنت شفة ، كان مهذّباً جمّ

الأدب ، ولكنه كان يدخّن سيجاره ، وكان هذا لائقاً بمحياه . وسألته :

ـ أتحب السيكار ؟

ـ اوه إنني أدخّن دوماً السيجار .

كان هذا يؤلّف جزءً من سلطته ، ويجعله يبدو أكبر من عمره . وأنعمت النظر في بشرته . . كانت وضيئة مليسة ظاهرة السمرة ، وكان على وجنتيه ندبة جرح مثلّثة الشكل . ورأيته يخالس النظر الى «بريت» ، كان يشعر بأن ثمة شيئاً مابينهما ، لابدّ أنه شعر به حين صافحته «بريت» بيد أنه كان حذراً . وأحسب أنه كان واثقاً بنفسه ، ولكنه لم يكن يريد أن يتعثّر بخطأ ما . وقلت له :

ـ هل ستشترك في حفلة الغد ؟

وقال :

ـ أجل لقد جرح اليوم «الغابينو» في (مدريد) ألا تعلم ذلك ؟

وقلت :

ـ لا ، أتكون حالته سيئة ؟

وهزّ رأسه بالإيجاب .

ـ لاشيء هنا .

وبسط راحته ، فأمسكت بها «بريت» وباعدت مابين الأصابع . وقال بالانكليزية :

ـ أوه ، أنّك تقولين الطالع ؟

ـ أحياناً ، هل ثمّة مانع ؟

ـ كلا ، إنني أود ذلك (وبسط راحته على الطاولة) . قولي لي إنني سأعيش دوماً وإنني سأصبح مليونيراً .

وكان مايزال مهذّباً جداً . ولكنه شعر بأنه واثق بنفسه أكثر من ذي قبل ، وأردف :

ـ انظري ، هل تجدين ثيراناً في راحتي ؟

واغرب في الضحك ، وكانت يده جميلة وقبضته رقيقة . وقالت «بريت» :

ـ يوجد ألوف الثيران .

وتبدّد توفز أعصابها ، آنذاك وبدت فاتنة .

وقال «روميرو» ضاحكاً :

ـ حسناً (واستطرد يقول لي بالاسبانية : ثمن كل واحد منها ألف «دوروس»[1]) .

ـ قولي لي شيئاً آخر .

ـ إنها يد جيّدة ، أعتقد بأنه سوف يعيش طويلاً .

وقال «روميرو» :

ـ قولي هذا لي ، لا لصديقك .

ـ قلت سوف تعيش طويلاً .

وقال «روميرو» :

ـ اعرف ذلك ، إنني لن أموت البتة .

ونقرت على خشب الطاولة بأصابعي ، ولمح «روميرو» ذلك وهزّ رأسه وقال :

ـ لا ، لا تفعل هذه ، إنّ الثيران هي خير صديق لي .

وترجمت ذلك لي «بريت» فسألته :

ـ أتقتل أصدقاءك ؟

ـ وقال بالانكليزية :

ـ دوماً (وجعل يضحك) لئلا تقتلني .

وخالسها النظر عبر الطاولة وقالت :

ـ إنّك تعرف الانكليزية جيداً .

---

(١) عملة اسبانية .

وقال :

ـ بلى ، أتكلّمها بطلاقة أحياناً ، ولكن ينبغي ألا يعرف أحد ذلك ، فإنه قد يضر كثيراً مصارع ثيران أن يعرف عنه بأنه يتكلّم الانكليزية .

وسألت « بريت » :

ـ لماذا ؟

ـ إنه شيء غير مستحب ، لايرضى الناس عن ذلك ، الآن .

ـ ولماذا ؟

ـ إنهم لايحبّون ذلك ، إذ يفترض أنّ مصارعي الثيران لايعرفون ذلك .

وضحك ، وجذب طرف قبّعته الى عينيه ، وغيّر من زاوية سيجاره ، وانقلب تعبير ملامح وجهه ، وقال :

ـ مثل أولئك الجالسين الى الطاولة .

ونظرت اليه ، وكان يقلّد سحنة (ناسيونال) ، ثمّ ابتسم فوشّى وجهه بتعبيره الطبيعي المألوف .

ـ كلا . يتعيّن أن أنسى الإنكليزية .

وقالت « بريت » :

ـ لا تنسها ، لما يحن ذلك بعد ؟

ـ لما يحن ؟

ـ لا .

ـ حسناً .

وأنشأ يضحك ، وقالت « بريت » :

ـ كم أحب أن يكون لي قبّعة مثل هذه!

ـ حسناً سوف أجلب لك واحدة .

ـ حسناً ، لاتنس .

ـ سأفعل . ونهض « روميرو » فقلت :

ـ اجلس . سوف أذهب لأبحث عن أصدقائي لآتي بهم الى هنا .

ورشقتني بنظرة ، كانت نظرة تستوضحني عمّا إذا كان ذلك متفقاً عليه ، بل كان كل شيء متّفقاً عليه تماماً .

وقالت له «بريت» :

ـ اجلس ، وعلّمني الاسبانية .

وجلس ، ورامقها عبر الطاولة . وخرجت ، وحدّق اليّ الجالسون الى طاولة مصارعي الثيران بعيونهم القاسية : لم يكن ذلك ممتعاً . وحين عدت بعد عشرين دقيقة الى الملهى كان «بيدرو روميرو» و«بريت» قد ذهبا ، وكانت فناجين القهوة والأقداح الفارغة لاتزال على الطاولة ، وقدم نادل وفي يده خرقة فأخذ الأقداح ونظّف الطاولة .

الفَصلُ السَابع عَشَر

وأمام حانـة (ميلانو) وجدت «بـيل» و«مايك» و«ادنا» ، وكـان هذا هو اسم الفتاة ، وقالت« ادنا» :

ـ لقد ألقوا بنا على الباب .

وقال «مايك» :

ـ بواسطة الشرطة ، ثمة أشخاص في الداخل لايحبّونني .

وقالت «ادنا» :

ـ لقد حلّت دون تعاركهم أربع مرّات ، ينبغي أن تساعدني .

وكان «بيل» محمرّ الوجه وقال :

ـ عودي يا «ادنا» لترقصي مع «مايك» .

وقالت «ادنا» :

ـ إنها حماقة ، سوف يؤدّي ذلك الى عراك جديد .

وقال «مايك» :

ـ تعال ، إنـها على أي حال حانة ، وليس في مقدورهم أن يحتلّوا الحانة كلّها .

وقال «بيل» :

ـ هذا الصديق الطيّب «مايك» . إنّ هذه الخنازير اللعينة ، هؤلاء الانكليز يقدمون الى هنا ، ليهينوا «مايك» ويحاولوا أن يفسدوا العيد (الفييستا) .

وقال « مايك » :

ـ إنهم قذرون . أنا أبغض الانكليز .

وقال « بيل » :

ـ ليس في مكنتهم أن يهينوا « مايك » . إن « مايك » إنسان طيب النفس ، ليس في مقدورهم أن يهينوه ، لن أسمح بذلك ، وماذا يهم إذا كان مفلساً لعيناً .

وتهدّج صوته .

وقال « مايك » :

ـ ماذا يهم ؟ هذا لايهمّني . ولايهمّ « جاك » وأنت هل يهمّك ذلك ؟

وقالت « ادنا » :

ـ أنا ؟ لا ، أأنت مفلس ؟

ـ طبعاً أنا مفلس . لايهمّك ذلك يا « بيل » أليس كذلك ؟

ووضع « بيل » ذراعه حول كتف « مايك » :

ـ أود أن أكون مفلساً أيضاً ، وحق الجحيم . سوف أريهم اولاء أولاد السفاح .

ـ إنهم ليسوا سوى انكليز . أنا لاأهتم بكل مايقوله أي انكليزي .

وقال « بيل » :

ـ يا لهم من خنازير قذرة! سأذهب لأقذف بهم من الباب .

وقالت « ادنا » :

ـ « بيل »! (ونظرت اليّ) أرجوك يا « بيل » ، لاتعد الى هناك ، إنهم كلّهم بُله جداً .

ـ وقال « مايك » :

ـ إنهم لكذلك . بلى إنهم بُله ، كنت أعلم إنهم كذلك .

وقال « بيل » :

ـ ليس في مكنتهم أن يقولوا شيئاً مماثلاً عن « مايك » .

وسألت « مايك » :

ـ هل تعرفهم ؟

لا . إنني لم أرهم من قبل ، يقولون إنهم يعرفونني .

وقال « بيل » :

ـ لاأستطيع أن أتحمّل ذلك .

وقلت :

ـ تعالوا . هيّا بنا الى مقهى (سويزو) .

وقال « بيل » :

ـ إنهم نفر من أصدقاء « ادنا » في « بياريتز » .

وقالت « ادنا » :

ـ إنهم بلهٌ وحسب .

وقال « بيل » :

ـ إن واحداً منهم هو « شارلي بلاكمان » من (شيكاغو) .

وقال « مايك » :

ـ أنا لم أذهب الى (شيكاغو) قط .

واغربت « ادنا » في ضحك موصول ، وقالت :

ـ خذوني من هنا أيها المفلسون!

واستفهمت من « ادنا » :

ـ أي نمط من النزاع قد جرى ثمّة ؟

الآن ، كنّا نجتاز الساحة متّخذين سمتنا نحو مقهى « سويزو » وكان « بيل » قد مضى ، وأجابت :

ـ لست أدري ماذا جرى ، غير أن أحدهم استقدم الشرطة لإخراج « مايك » من الحجرة الخلفية ، وكان هناك أشخاص يعرفون « مايك » في مدينة (كان) . ترى ، ماشأن « مايك » معهم ؟

ـ على الأرجح أنه مدين لهم بمال ، وهذا مايحمل الناس على أن يكونوا

شرسين دوماً .

وأمام الكشك الذي تحجز فيه بطاقات حفلات مصارعة الثيران ، امتدّ صفّان من الناس في الساحة ، وكان بعضهم ينتظر وهو جالس على الكراسي ، وبعضهم جالس القرفصاء ، بين أغطية وصحف ، والجميع ينتظرون فتح شبابيك البطاقات صباحاً ، لحجز أمكنتهم في حفلات مصارعة الثيران .

كان الليل منيراً والقمر متلألئاً ، وكان بعض الأشخاص من الصفّين قد أخلد الى النوم .

وماكدنا نتّخذ مجلسنا في مقهى (سويزو) حتّى أقبل « روبرت كون » ، وكنّا قد طلبنا آنذاك ، شيئاً من خمر (الفوندارو) .

وسألني « كون » :

ـ أين « بريت » ؟

ـ لاأدري .

ـ لقد كانت معك .

ـ لابدّ أنها مضت الى سريرها لتنام .

ـ لا .

ـ لاأدري أين هي .

كانت سحنته شاحبة ، وكان هو واقفاً . وقال :

ـ قل لي أين ؟

ـ قلت :

ـ اجلس ، لاأدري أين هي .

ـ ليأخذك الجحيم ، إنّك لتدري .

ـ تستطيع أن تغلق فمك .

ـ قل لي أين « بريت » ؟

ـ لن أقول لك كلمة واحدة ولو عرفت .

ـ إنّك تعرف أين هي .

وصرخ « مايك » من طرف الطاولة :

ـ اذهب الى الجحيم يا « كون » . لقد هربت « بريت » مع مصارع الثيران عني . لقد سافرا في رحلة شهر العسل .

ـ اخرس .

وقال « مايك » في إهمال :

ـ أوه... اذهب الى الجحيم .

ـ إذن : فهذا صحيح ؟ (والتفت « كون » إليّ) :

ـ اذهب الى الجحيم .

ـ لقد كانت معك ، أهي هنا ؟

ـ اذهب الى الجحيم .

ـ أستطيع أن أجعلك تتكلّم (وتقدّم خطوة) أيها القوّاد القذر .

وهجمت عليه ، فتجنّبني ، ورأيت وجهه وقد غمر جزء منه في النور ، ولكمني ووقعت قاعداً على الرصيف . وفيما كنت أحاول أن أنهض لكمني مرتين فانطرحت على ظهري تحت الطاولة ، وجهدت في أن أقف ولكن ساقيّ لم تقويا على القيام ، كنت أعلم أنه كان عليّ أن أنهض وأضربه .

وأعانني « مايك » ، وأراق أحدهم إبريق ماء فوق رأسي ، وأحاطني « مايك » بذراعه وألفيت نفسي جالساً على كرسي ، وكان « مايك » يشدّني من أذني : وقال :

ـ هذا ما أسمّيه انطراحاً بلا وعي (نوك آوت) .

ـ وأين كنت أنت ؟

ـ أوه ، في مكان ما ، هنا .

ـ ألم تكن تريد أن تتدخّل في الأمر ؟

وقالت « ادنا » :

ـ لقد طرح « مايك » أيضاً .

وقال « مايك » :

ـ ولكنه لم يطرحني كـ(نوك آوت) فقد انبطحت على الأرض فحسب .

وسألت « ادنا » :

ـ هل تجري هذه الأشياء ، في كل مساء من عيدكم (الفييستا) ؟ أهذا هو السيّد « كون » ؟

وقلت :

ـ أشعر بتحسّن ولكنّ رأسي لايزال يهوّم .

وتحلّقنا كثير من خدم المقهى وجمهرة من الناس .

وقال « مايك » لهم :

ـ Vaga ، اذهبوا ، هيّا ، اذهبوا .

وفرّق الخدم جمعاً من الناس .

وقالت « ادنا » :

ـ لقد كان ما حدث حقيقاً بأن يشاهد ، لابد أنه ملاكم .

ـ أجل ، إنه ملاكم .

وقالت « أدنا » :

ـ كنت أتمنّى أن يكون « بيل » ، كنت أتمنّى أن أراه وهو يطرح « بيل » على الأرض . كنت أتشوّق دوماً الى رؤية « بيل » مطروحاً بلكمة من أحدهم . فإنه ضخم جداً .

وقال « مايك » :

ـ كنت أتمنّى أن يكون قد طرح نادلاً ما على الأرض ، ليؤدّي ذلك الى القبض عليه . لكم أرجو أن أرى « روبرت كون » وقد زجّ به في السجن .

وقلت :

ـ لا .

وقالت « أدنا » :

ـ اوه ، لا ، إنّك لاتفكّر في ذلك .

وقال « مايك » :

ـ بلى . لست أنا من الأشخاص الذين يودّون أن يطرحوا على الأرض ، ولهذا فإنني لا أحاول أيّما رياضة (وشرب « مايك» قدحاً) . أنا لم أتعلّق بطراد الصيد أبداً ، كما تعلم . إن المرء يتعرّض فيه دوماً الى وقوع الجواد فوقه ، كيف حالك يا « جاك » ؟

ـ حسنة .

وقالت « ادنا » لـ« مايك» . :

ـ إنك لطيف ، أحقّاً أنّك مفلس ؟

وقال « مايك» :

ـ إنني مفلس هائل ، فأنا مدين للجميع ، ألست مدينة لأحد ؟

ـ بما يزن أطناناً .

وقال « مايك» :

ـ إنني مدين للجميع ، لقد استدنت مئة (بيزيته) من (مونتويا) ، هذا المساء .

وقلت :

ـ يا لسوء ما فعلت .

وقال « مايك» :

ـ سوف أعيدها إليه ، إنني أعيد دوماً كل ما أستدينه .

وقالت « ادنا » :

ـ ولهذا إذن أنت مفلس ، أليس كذلك ؟

ونهضت ، ومثل في وهمي أنهما يتحدّثان من مكان بعيد ، وكأن كل ماحدث لم يكن سوى مسرحية رديئة ، قلت :

ـ أنا عائد الى الفندق .

وسمعتهما يتكلّمان عني ، وكانت « ادنا » تسأله :

ـ تراه في حال حسنة ؟

ـ من الأفضل أن نرافقه .

وقلت :

ـ إنني في حال جيدة ، لاتذهبا معي ، سأراكما بعد أمد قصير .

وابتعدت عن المقهى ، وكانا جالسين الى الطاولة . وتلفّت لأنظر اليهما والى الطاولات الخالية ، فرأيت نادلاً وقد جلس الى احدى الطاولات واضعاً رأسه في راحتيه .

وفيما كنت عائداً الى الفندق ، عبر الساحة ، بدا لي كل شيء وكأنه قد أضحى جديداً متغيّراً . . كأنني كنت أرى الى الأشجار ، الى ساريات الأعلام ، الى واجهة مسرح التمثيل ، لأوّل مرة . كل شيء بدا لي مختلفاً متبدّلاً . وأحسست بنفس الشعور الذي ألمّ بي ، ذات يوم ، كنت فيه بسبيل العودة الى بيتي بعد أن كنت قد غادرته الى إحدى البلاد للاشتراك في مباراة كرة القدم . كنت آنذاك أحمل حقيبة ثيابي الخاصة بلعبة الكرة ، فلمّا اتخذت سمتي من المحطّة وسلكت الشارع المفضي الى المدينة التي عشت فيها عمري كله ، تراءى لي كل شيء هناك جديداً متبدّلاً . كان هناك من يكدّس الأعشاب ويحرق الأوراق على الطريق ، وظللت ، فترة طويلة ، وأنا أجيل بصري ، كأن كل شيء يتبدّى لي غريباً . وتابعت سيري ، وكأن قدميّ بعيدتان عنّي . وكان في ميسوري أن أسمع قدميّ تسيران من مسافة قصيّة . وقد ألمّ بي ذلك كله ، لأنني عند بدء المباراة كنت قد تلقّيت ضربة على رأسي .

مثل هذا شعرت ، فيما كنت أصعد درج الفندق . ودام صعودي الدرج فترة مديدة جاذبني فيها شعور بأنني لاأزال أحمل حقيبتي . ووجدت الغرفة مضيئة ، وخرج منها «بيل» والتقى بي في الرواق وقال لي :

ـ اسمع ، اصعد لترى « كون » ، لقد وقع في مأزق ، إنه يريد أن يراك .

ـ ليذهب الى الجحيم .

ـ تعال ، هلاّ صعدت لتراه .

ولم أكن أريد أن أصعد دوراً آخر ، وقلت :

ـ لماذا تنظر اليّ هكذا ؟

ـ إنني لاأنظر اليك ، هل لك أن تصعد لترى « كون » إنه في حالة سيئة .

وقلت :

ـ لقد كنت أنت سكران منذ هنيهة .

وقال « بيل » :

إنني سكران دوماً ، ولكن تعال «لترى» كون . إنه يريد أن يراك .

وقلت :

ـ حسناً .

وكانت المشقّة بالنسبة اليّ لاتعدو صعود مزيد من الدرجات ليس غير . وصعدت وأنا أحمل شبح الحقيبة في يدي ، ودلفت في الرواق حتّى وصلت الى غرفة « كون » . كان الباب مغلقاً... وقرعت عليه .

ـ من أنت ؟

ـ « بارنس » .

ـ ادخل يا « جاك » .

وفتحت الباب ودخلت ، ووضعت شبح حقيبتي . لم تكن الغرفة مضيئة ، وكان « كون » منبطحاً على السرير ، في الظلمة .

ـ هالو « جاك » .

ـ لا تدعني « جاك » .

وكنت واقفاً الى جانب الباب ، ـ وعلى هذا النحو تماماً ، عدت الى بيتي من المباراة . إن ماأحتاج اليه في هذه اللحظة هو حمّام ساخن ، حمّام ساخن عميق . لأستلقي في مائه .

وسألت :

ـ أين حجرة الحمّام ؟

كان « كون » يبكي . كان هناك منبطحاً في فراشه ينشج . وكان مرتدياً قميصاً أبيض من نوع (بولو) شبيهاً بتلك القمصان التي كان يلبسها في جامعة

(برنستون) .

ـ آسف . يا «جاك» أرجوك ، اعف عنّي .

ـ أعفو عنك ؟ ياللجحيم!

ـ أرجوك ، أعف عنّي يا «جاك» .

ولم أنبس بكلمة ، وظللت واقفاً الى جانب الباب . وقال «كون» :

ـ لقد كنت مجنوناً ، لابدّ أنّك ألممت بما كانت عليه حالي .

ـ اوه ، لابأس .

ـ لم يكن في استطاعتي أن أتحمّل ذلك من «بريت» .

ـ ولكنّك وصمتني بأنني قوّاد .

وشعرت بأن الأمر عندي سواء ، كنت أريد حماماً ساخناً ، كنت أريد حمّاماً ساخناً ذا ماء عميق ، وقال «كون» :

ـ ادري ذلك ، ارجوك ، لاتذكّرني به ، كنت مجنوناً .

ـ لابأس .

وأنشأ ينتحب ، وكان نحيبه مضحكاً . كان ممدّداً هناك على السرير في العتمة بقميصه الأبيض (البولو) .

ـ سأرحل صباح الغد .

وأخذ يبكي دون صوت .

ـ لم يكن في استطاعتي أن أتحمّل ذلك من «بريت» ، هذا كل شيء ، لقد بلوت عذاباً جهنّميّاً يا «جاك» . كان ذلك الجحيم بعينه حين التقيت بـ «بريت» هنا في الدور الأرضي . وقد عاملتني كما لو كنت غريباً ، فلم أقو على ذلك . . لقد عشنا سويّة في (سان سيباستيان)! أحسب أنّك تعرف ذلك ، لم أستطع أن أتحمّل أكثر من ذلك .

وكان ممدّداً هناك على السرير ، وقلت :

ـ حسناً ، أنا ذاهب لأستحم .

ـ لم يكن لديّ سواك كصديق ، وكنت مولّهاً بـ«بريت» .

وقلت :

ـ حسناً ، الى اللقاء .

وقال :

ـ أعتقد بأنّ ذلك عقيم لانفع فيه ، أعتقد بأن ذلك غير مجد البتّة .

ـ أي شيء ؟

ـ كل شيء ، أرجوك ، قل لي إنّك صفحت عنّي يا « جاك » .

وقلت :

ـ بلى ، أنا بخير .

ـ لقد بلوت شعوراً رهيباً فكأنني كنت أجوز جحيماً من العذاب ، والآن لقد انتهى كل شيء ، كل شيء .

وقلت :

ـ حسناً ، الى اللقاء ، يجب أن أذهب .

وتلوّى ثمّ قعد على حافة سريره ، ونهض .

ـ الى اللقاء ، يا « جاك » أتريد أن تصافحني ؟ أليس كذلك ؟

ـ بلى ، ولم لا ؟

وتصافحنا . ولم يكن في ميسوري أن أستجلي وجهه في الظلمة . وقلت :

ـ حسناً ، سأراك صباح الغد .

ـ أنا راحل ، صباح الغد .

وقلت :

ـ أوه ، أجل .

وخرجت ، وكان « كون » واقفاً الى جانب باب غرفته ، وسألني :

ـ أأنت بخير يا « جاك » ؟

ـ اوه . إنني بخير .

ولم يتأت لي أن أعثر على حجرة الحمّام لكنّي وجدتها بعد هنيهة ، وكان فيها (بانيو) مغطس حجري عميق . وأدرت الصنبور ولكنّ الماء لم ينصبّ

منه . وجلست على عرف البيانو ، ونهضت أبتغي الذهاب ، فألفيت أنني نزعت حذائي . وأخذت ابحث عنهما ، ووجدتهما ، وانتعلتهما ، ووجدت غرفتي ودخلتها ونضوت ثيابي واضطجعت على السرير .

واستيقظت وأنا أشعر بصداع ، وصك سمعي صوت الفرق الموسيقية التي كانت تجوز الشارع ، وتذكّرت أنّي وعدت (ادنا) صديقة «بيل» بأن اصطحبها معي لترى الى الثيران وهي تجوز المدينة في طريقها الى الملعب ، فارتديت ثيابي وانحدرت في الدرج وخرجت لأستقبل منبلج الفجر الرطيب .

وكان ثمة أشخاص يجوزون الساحة مغذّين في السير نحو الملعب ، كما امتد عبر الساحة صفّان من الناس أمام شبّاك بيع البطاقات . وكانوا بسبيل انتظار بدء بيع البطاقات في الساعة السابعة . وحثثت خطاي لأعبر الشارع متّجهاً الى المقهى . وهناك قال لي النادل أن أصدقائي قد قدّموا الى هنا ثمّ ذهبوا .

ـ كم كان عددهم ؟

ـ كانوا رجلين وسيّدة .

كان كل شيء على أحسن حال . فقد كان «بيل» و«مايك» مع «ادنا» وكانت تخشى ، مساء البارحة ، أن يتعتعها السكر ، ولهذ فقد اتّفقت معها على أن أغدو لأصطحبها .

وشربت فنجان القهوة . ومضيت الى الملعب مغذاً في السير ، مثل بقية الناس .

وألفيت أنني لست كالمترنّح الثمل . كنت أشعر بالصداع فحسب . كان كل شيء يتراءى لي منيراً باهراً ، وكانت المدينة فاغمة بأريج الصباح الباكر . أمّا المسافة التي تفصل طرف المدينة عن الملعب فكانت وحلة ، كما وكان الناس مزدحمين على طول الحاجز المفضي الى الملعب ، والشرفات الخارجية في أعلى الملعب غاصة بالناس .

وسمعت صوت الصاروخ ، وألفيت أنه قد لايتّسق لي وقت أصل فيه الى

الملعب لأشاهد دخول الثيران ، فاندسست بين الناس حتّى وصلت الى الحاجز . وشعرت بضغط الزحام يهصرني على خشب الحاجز ، كان رجال الشرطة يشقّون ممراً بين الحاجزين ، وكان من الناس من يمشي ومنهم من يهرول بخطى موزونة الى الملعب . وأقبل بعضهم راكضاً ، وتزحلق سكران ووقع ، فأمسك به شرطيّان ووضعاه في مأمن خلف الحاجز . ثم أضحى ركض الناس سريعاً ، وتعالى صياح شديد من جمهور الناس . وأدخلت رأسي بين قصبتي الحاجز فرأيت في تلك اللحظة الثيران قادمة من الشارع في الممر الطويل وهي تخب مسرعة وتكتسح بعض الجمهور المحتشد . وانفصل من الحاجز ، آنذاك ، سكران آخر وقد أمسك بسترة ، وكان يريد أن يأخذ بمدرجة مصارع الثيران ، حين يحمل الثور على الهجوم بشاله الذي يحرّكه . وبادره الشرطيّان فأمسكا بخناقه وضربه أحدهما بعصاه ثمّ سحباه الى الحاجز ، وظلاّ واقفين ثمة حتّى مضى الناس والثيران . وكان ثمة جمهرة كبيرة من الناس تركض في المقدّمة أمام الثيران ، مما اضطر الجموع التي كان عددها لا يني يتزايد الى التمهّل ، فيما كانت تجتاز الباب لتدخل الملعب .

وبينما كانت الثيران تدخل وتهزّ قرونها وتخبّ جميعها ، ثقيلة ، وحلة الأطراف ، قفز أحدها الى أمام ، فضرب أحد الراكضين من الناس في ظهره . ورفعه بقرنه الى علّ ، فارتدّ رأس الرجل الى خلف ، ويداه منبسطتان الى جانبه ، وقرن الثور منغرز بظهره .

وتركه الثور يتردّى على الأرض بعد أن شاله بقرنه ، وبصر برجل آخر كان يعدو أمامه ، فخفّ اليه . ولكن الرجل توارى بين جموع الناس الذين اجتازوا الباب ، آنئذ ، وأضحوا في حلبة الملعب ، والثيران في أعقابهم .

وأغلق الباب الأحمر المفضي الى الملعب ، وخفّ الناس الواقفون في الشرفات الخارجية الى الداخل ، ودوى صياح شديد أعقبه صياح آخر .

كان الرجل الجريح منبطحاً على بطنه فوق الوحل الموطوء ، وقفز بعض

الأشخاص فوق الحاجز . ولم أستطع أن أرى الجريح لأن جموع الناس الملتفّة حوله كانت متراصّة .

وكانت تتصاعد من داخل الملعب صيحات ، تعني كل صيحة منها أنّ ثوراً قد كرّ على الجمهور ، وهكذا كان في ميسورك أن تحكم من حدة الصراع على مدى خطر الحادث .

وارتفع الصاروخ مؤذناً بأن الأبقار قد حملت الثيران على الخروج من الملعب وقادتها الى الحظائر (الكورال) .

وغادرت الحاجز ، ومضيت الى طريق المدينة .

وذهبت ، وأنا في طريق العودة ، الى المقهى لأشرب فنجاناً من القهوة ، فشربت القهوة وطعمت خبزاً محمّساً مدهوناً بالزبدة ، وكان خدم المقهى يكنسون وينظّفون الطاولات ، وتقدّم أحدهم ليلبّي طلبي وسألني :

- هل حدث شيء ما في Em ci erro[١] ؟

- لم أشاهد كل شيء ، لقد جرح أحد جرحاً خطراً Cogido[٢]

- أين ؟

- هنا .

ووضعت يداً على ظهري ، ويدي الأخرى على صدري ، كما لو أن قرن الثور قد انغرز من جانب الى جانب ، وهزّ النادل رأسه ولحس كسرات الخبز على الطاولة بممسحة ، وقال :

- جرح جرحاً خطيراً Cogido ، كل هذا في سبيل الرياضة ، كل هذا من أجل التسلية!

وابتعد ثمّ عاد بإبريق قهوة ذي مقبضين وابريق حليب ، وسكب الحليب والقهوة ، وانصبّ من فمي الابريقين ، دفقتان الى الفنجان الكبير ، وهزّ النادل

---

(١) الحاجز ، في الاسبانية .

(٢) المجروح بقرون الثور وردت بالاسبانية في نص الأصل .

رأسه وقال :

- جرح جرحاً خطيراً Cogido في الظهر (ووضع الابريقين على الطاولة وجلس على الكرسي) ضربة قرن شديدة ، كل هذا في سبيل التسلية ، في سبيل التسلية ليس غير ، مارأيك في هذا ؟

- لاأدري .

- بلى ، من أجل التسلية ، أتدري معنى ذلك ؟

- ألست من الولوعين Aficionado بمصارعة الثيران ؟

- أنا ؟ ماهي هذه الثيران ؟ إنها حيوانات ، حيوانات ضارية (ونهض ووضع يده على ظهره) ، بلى في الظهر . قرن "Cornada" في الظهر ، من أجل التسلية ، أتدري معنى ذلك ؟

وهزّ رأسه وابتعد ، ومرّ رجلان في الشارع ، فناداهما النادل ، وبدت في معارف وجهيهما سيما التجهّم ، وحرّك أحدهما رأسه وصاح :

- muerto ، لقد مات .

وهزّ النادل رأسه وابتعد الرجلان ، في مهمة لهما ، واقترب النادل من طاولتي وقال :

- أسمعت ؟ muerto مات ، لقد مات ، طعنة القرن ، كل هذا من أجل التمتّع بقليل من التسلية صباحاً ، إنه لشيء مشرق جداً es muy Plamenco .

- إنه محزن .

وقال النادل :

- ليس هذا بمطلبي ، لا ، لاأجد تسلية في هذه الأشياء .

وعرفنا فيما بعد ، في ذلك اليوم ، أن الرجل الذي قتله الثور ، يدعى « فيسينني جيرونس » وأنه قد جاء من ضواحي (تافالا) ، وقرأنا في الجريدة في اليوم التالي أن عمره ثمانية وعشرون عاماً ، وأن له مزرعة ، وزوجة وولدين . وإنه كان يأتي ، منذ زواجه ، بصورة منتظمة ، في كل عام ، لحضور العيد (الفييستا) وفي ثاني يوم قدمت زوجته من (تافالا) لتنظل الى جانب

جثمانه ، وفي اليوم الذي تلاه ، أقيم له قدّاس في كنيسة (سان فيرمان) ونقل نعشه الى المحطة أعضاء جمعية الرقص والشرب في (تافالا) ، وكانت الطبول تسير في المقدمة ووراءها تتعالى أنغام المزامير ، وكانت الزوجة والطفلان يسيرون خلف الرجال الذين كانوا يحملون النعش . وسعى وراءهم كل أعضاء جمعيّات الرقص والشرب في (بامبيلونه) و(استيلا) و(تافالا) و (سانغويزا) الذين تمكّنوا من البقاء لحضور الجنازة ، ووضع النعش في عربة البضائع من القطار واتخذت الأرملة وطفلاها مجلسهم في غرفة مفتوحة من الدرجة الثالثة . وارتجّ القطار ، ثمّ ابتعد في هدوء وتمهّل ، حتى غاب في حقول القمح التي كانت تموّجها الريح في السهل ، في طريقه الى (تافالا) .

وكان الثور الذي صرع (فيسينني جيرونس) يدعى (بوكانيفرا) وكان يحمل الرقم ١١٨ من مزرعة (سانشير تابيرنو) . وهو الثور الثالث الذي قتله « بيدرو روميرو » في عصر ذلك اليوم . وقد صلمت أذنه فيما كان هتاف الجماهير يتعالى وأعطيت الى « بيدرو روميرو » الذي سلّمها بدوره الى « بريت » فلفّتها بمنديل يخصّني ، وقد تركت الاذن والمنديل مع عدد من أعقاب سجاير (موراتي) ، داخل درج الطاولة المجاورة لسريرها في فندق (مونتويا) في (بامبيلونه) .

* * *

حين عدت الى الفندق ، ألفيت الحارس الليلي ، جالساً على مقعد خلف الباب . كان قد سلخ الليل ثمة ، وكان يهوم من النعاس . وإذ رآني نهض قائماً . ودخلت ثلاث خادمات في الوقت نفسه ، فقد كنّ يشاهدن نقل الثيران الى الملعب في الصباح . وصعدن ضاحكات وتبعتهن الى الدور العلوي . ودخلت غرفتي ونزعت حذائي واستلقيت على سريري .

كانت النافذة مفتوحة على الشرفة وأشعة الشمس تغمر الغرفة ، ولم أكن أشعر بالنعاس ،وكانت الساعة تشارف ، ولابدّ ، الثالثة والنصف حين أويت الى فراشي .

وأيقظتني أنغام الموسيقى في الساعة السادسة ، وكان حنكي يؤلمني من جانبيه ، وجسسته بإبهامي وأصابعي . يالهذا اللعين « كون » . كأنما كان عليه أن يضرب شخصاً ما ، لأوّل إهانة يتلقّاها ، ثمّ يتوارى . لقد كان واثقاً بأنّ « بريت » تحبّه فاعتزم البقاء ، معتقداً بأن الحب الحقيقي سوف ينتصر على كل شيء ، وصكّ سمعي قرع الباب .

ـ ادخل .

ودخل « بيل » و« مايك » وجلسا على سريري ، وقال « بيل »

ـ ياله من حاجز encierro! يا له من حاجز encierro!

وسأل « مايك » :

وبعد ألم تكن هناك ؟ هلاّ كبست زر الجرس يا « بيل » لنشرب شيئاً من البيرة .

وقال « بيل » :

ـ ياله من صباح! (ومسح وجهه) ربّاه! ياله من صباح! ها هو ذا العزيز « جاك » ها هو ذا عزيزي « جاك » .

ـ ماذا جرى هناك ؟

وقال « بيل » :

ـ ربّاه ماذا جرى يا « مايك » ؟

وقال « مايك » :

ـ كانت الثيران تخب مسرعة الى الملعب ، وأمامها جمهرة من الناس وإذا بشخص يسقط ويتعثّر به الجميع .

وقال « بيل » :

ـ ومرّت الثيران فوقهم .

ـ لقد سمعت صراخهم .

وقال « بيل » :

ـ كان ذلك صراخ «ادنا» .

ـ وكان هناك أشخاص لم يكونوا ليفعلوا شيئاً سوى التلويح بقمصانهم .

ـ وقد قفز ثور فوق صف (الباريرا) وجعل يقذف بالناس ، بضربات قرنيه ، الى الجانب الثاني .

وقال «مايك» :

ـ وقد حمل الى المستشفى عشرون شخصاً تقريباً .

وقال «بيل» :

ـ يا له من صباح! إن رجال الشرطة اللعينة ، كانوا يوقفون ، في كلّ لحظة ، أشخاصاً كانوا يقصدون الثيران كمن يبتغي الانتحار .

وقال «مايك» :

ـ وأخيراً فإن الأبقار قد أعادت الثيران .

ـ واقتضى هذا ساعة من الوقت .

وقال «مايك» معترضاً :

ـ في الواقع ، دام ذلك ربع ساعة .

ـ اوه اذهب الى الجحيم ، كنت أنت في الحرب ، لقد دام ذلك بالنسبة اليّ ساعتين ونصف الساعة .

وسأل «مايك» :

ـ أين البيرة ؟

ـ ماذا فعلتما بـ «ادنا» الفاتنة ؟

ـ لقد رافقناها الى بيتها ، منذ هنيهة ، وقد أوت الى فراشها .

ـ وهل راقها ذلك ؟

ـ كثيراً ، وقد ذكرنا لها أن هذا مايجري ، صباح كل يوم .

وقال «مايك» :

ـ لقد أثّر ذلك في نفسها .

وقال «بيل» :

ـ كانت ترغب الينا أن نهبط نحن أيضاً الى الملعب ، إنها تعشق الصيال .

وقال « مايك » :

ـ قلت لها أن هذا قد لايسرّ دائني .

وقال « بيل » :

ـ ياله من صباح! يالها من ليلة!

وسأل « مايك » :

ـ كيف حال حنكك ؟

وقلت :

ـ إنه يؤلمني .

وضحك « بيل » وقال :

ـ لمَ لمْ تضربه بكرسي ؟

وقال « مايك » :

ـ إن في ميسورك أن تتكلّم ، ولكن ، لو كنت أنت ، آنئذ ، لطوّح بك أيضاً (كنوك آوت) . أمّا أنا فلم أره يلكمني ، وبالأحرى أحسب أنني رأيته عقب تسديده اللكمة اليّ ، والفيتني ، على حين غرّة ، قاعداً على أرض الشارع و« جاك » مطروحاً تحت الطاولة .

وسألت :

ـ الى أين ذهب . بعد ذلك ؟

وقال « مايك » :

ـ هاهي ذي فتاة البيرة الجميلة .

ووضعت الفتاة الطبق والزجاجات والأقداح على الطاولة ، وقال :

ـ والآن ، احضري لنا ثلاث زجاجات أخر .

وسألت « بيل » :

ـ الى أين ذهب « كون » بعد أن ضربني ؟

ـ كيف ؟ ألا تدري ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لا...

وفتح «مايك» الزجاجة وصبّ البيرة في أحد الأقداح مدانياً مابين الزجاجة والقدح . وقال «بيل» :

ـ حقاً ؟

ـ لقد مضى فألفى «بريت» ومصارع الثيران الفتي ، في غرفة المصارع ، وحينئذ افترس المصارع المسكين .

ـ لا ؟

ـ نعم .

وقال «مايك» : ـ يالها من ليلة!

ـ لقد أوشك أن يقتل المصارع المسكين . وأخيراً ، حاول «كون» أن يعود بـ«بريت» ، كان يريد أن يجعل منها امرأة شريفة ، فيما أتخيّل . كان مشهداً لعيناً مؤثّراً .

وشربت جرعة كبيرة من البيرة .

ـ إنه حمار .

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ لقد أوسعته «بريت» لوماً ، وطلبت اليه أن يذهب ، وحسناً مافعلت ، فيما أحسب .

وقال «بيل» :

ـ هذا ما لاأشكّ فيه .

وانهارعندئذ «كون» وانخرط في البكاء . كان يريد أن يصافح مصارع الثيران وكان يريد أن يصافح «بريت» .

ـ اعلم ذلك ، لقد جاء ليصافحني أيضاً .

ـ أجاء ؟ حسناً ، بيد أنه لم يوفّق الى شيء معهما . كان مصارع الثيران جيّداً ، لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينهض عقب كل لكمة ، وكانت لكمة

تطوّح به على الأرض . لابدّ أن ذلك كان باعثاً على الضحك .

ـ ومن الذي روى لك كل هذا ؟

ـ « بريت » . لقد رأيتها هذا الصباح .

ـ وماذا تمّ أخيراً ؟

ـ يبدو أن صاحبنا مصارع الثيران كان قاعداً على سريره فقد طوّح به أكثر من خمس عشرة مرة على الأرض ، ولكنه لايفتأ يريد العراك ، وكانت « بريت » تشدّه وتمنعه من النهوض ، فقد تزايلت قواه . بيد أنه لم يكن في ميسور « بريت » أن تثنيه وتثبّته ، فتمكّن من الوقوف . ولكن « كون » قال له إنه لن يضربه بعد ذلك ، وإنّ ذلك مستحيل عليه ، وقال إنه يعدّ ذلك إثماً وشراً . وعندئذ مشى اليه المصارع الفتى ، مترنّحاً بعض الشيء ، فتراجع « كون » الى الحائط .

ـ إنّك لا تريد أن تضربني إذن...

ـ لا . إنني أخجل من ذلك .

وحينئذ وجه اليه مصارع الثيران ، بكل ماتبقّى لديه من قوى ، لكمة في وجهه ثمّ وقع قاعداً على الأرض .ولم يستطع أن ينهض ـ كما ذكرت « بريت » . وأراد « كون » أن يساعده على القيام ويقوده الى السرير ، ولكنه قال لـ« كون » إنه سيقتله إن مسه ، وإنه سيقتله ، على أي حال ، هذا الصباح ، إن لم يغادر « كون » المدينة . وكان « كون » يبكي ، وطلبت اليه بريت أن ينصرف وكان يريد أن يشدّ على الأيدي مصافحاً ، كما رويت ذلك ، من قبل .

وقال « بيل » :

ـ ارو له ماحدث بعد ذلك .

ـ كان مصارع الثيران ، فيما يبدو ، قاعداً على الأرض ، وكان ينتظر أن تسعفه قواه لينهض ويهجم على « كون » . إن بريت لاتطيق أن تسمع بقصة مصافحة الأيدي ، وكان « كون » يبكي وقال لها كم هو متيّم بها ، فقالت له :

إن عليه ألا يصطنع دور الحمار . وعندئذ انحنى ليصافح صاحبنا مصارع الثيران ، دون شعور بالضغينة ، كما تعلم ـ وعفواً عن الاهانات كلّها ، وإذ بالمصارع الفتي يسدّد اليه لكمة على وجهه ، كرة أخرى .

وقال « بيل » :

ـ إنه لايزال غلاماً .

وقال « مايك » :

ـ لقد خذل « كون » مع ذلك ، وأحسب أن « كون » قد برىء تماماً من رغبته في ملاكمة الناس .

ـ ومتى رأيت « بريت » ؟

ـ هذا الصباح ، لقد آبت لتأخذ بعض الأشياء . إنها تعنى بالفتى « روميرو » . وفتح زجاجة أخرى من البيرة ، ثمّ أردف يقول :

ـ إن « بريت » ، على الأرجح ، متعبة ، ولكنها تحب أن تعنى بالمرضى ، هكذا تعارفنا ، كانت تسهر على معالجتي .

وقلت :

ـ اعلم ذلك .

ـ إنني ثمل واحسب أنني سأظل ثملاً ، إنها قصة مسلية على نحو مخيف ،ولكنها ليست مستحبة كثيراً ، ليست مستحبة لي .

وجرع قدح البيرة واستطرد :

ـ لقد حذرت « بريت » كما تعلم . وقلت لها : إنها إن ظلّت تستمرىء صحبة اليهود ومصارعي الثيران واشخاصاً على هذه الشاكلة ، فإن عليها أن تتوقع كثيراً من المضايقات ، (وانحنى) ، قل لي يا « جاك » هل يضايقك إن شربت زجاجتك ، سوف تأتي لك الفتاة بزجاجة أخرى . وقلت :

ـ أرجوك . إنني لن أشربها على أي حال .

وشرع مايك يفتح الزجاجة .

ـ هل يزعجك أن تفتحها لي .

وكبست على سلك الربط المعدني وفتحتها ثمّ ملأت قدحه . وأردف «مايك» يقول :

ـ أتدري لقد أجابت «بريت» جواباً رائعاً ، إن لها أجوبة رائعة ، فقد أخذت أقذف اليهود ومصارعي الثيران واضرابهم قذفاً شنيعاً ، أتدري ماذا ردت عليّ ؟ قالت : لقد بلوت مثل هذا الجحيم من الحياة الهنيئة مع الأرستوقراطيّين الانكليز .

وشرب جرعة ،وتابع :

ـ لابأس به من جواب ، إن «اشلي» الشخص الذي وهبها لقبه النبيل كان في البحرية ، كان البارون التاسع في اسرته وحين كان يعود الى البيت كان يرفض أن ينام في سرير ، وكان يحمل «بريت» على أن تنام معه على الأرض ، وحين أضحى خطراً حقّاً ، جعل يهددها بالقتل . وكان يفي دوماً الى النوم ومسدّسه محشو . وكانت «بريت» تنزع منه رصاصاته حين يستبد به النوم . إنها لم تعرف ، في الحق ، الحياة الهنيئة ، ولهذا فإنها تتمتّع ، ياللأسف اللعين ، بكل شيء ، في عنف .

ـ سأذهب الى غرفتي . حاول أن تنام قليلاً .

وابتسم...

ـ إننا نظل أمداً طويلاً بلا نوم في هذه الأعياد ، سوف أستعيض الآن ما فاتني من نوم . إنه لشيء لعين ، ألا يكون في ميسورك أن تنام إنه يجعلك ثائر الأعصاب على نحو مخيف .

وقال «بيل» :

ـ سوف نراك في مقهى (ايرونا) .

وتخطّى «مايك» الباب ، وسمعناه وهو يدخل الغرفة المجاورة . ورنّ الجرس ، وأقبلت الفتاة . ونقرت على الباب ، وقال لها «مايك» :

ـ احضري لي ست زجاجات بيرة وزجاجة (فوندادور) .

ـ Si, Senorito أجل أيها السيّد!

وقال « بيل » :

ـ أنا ذاهب الى السرير ، ياللعزيز المسكين « مايك » ، لقد حدث ، بسببه ليلة أمس ، قصة لعينة .

ـ أين ؟ في مقهى (ميلانو) ؟

ـ أجل فقد كان ثمة شخص كان حمل « بريت » و « مايك » على مغادرة مدينة (كان) لمطالبة « مايك » بدين له عليه ، وكان رجلاً قذراً لعيناً .

ـ اعلم هذه القصة .

ـ لم أكن أعرف ذلك ، إذ ليس لإنسان الحق في أن يذكر شيئاً عن « مايك » .

ـ هذا ما أفسد كل شيء .

ـ لم يكن لديهم حق كم أود ، ألا يكون لديهم أي حق . أنا ذاهب للنوم . . هل صرع أحد في الملعب ؛ ؟

ـ لاأظن ، فيما عدا بعض الجراح الخطيرة .

ـ لقد صرع شخص أمام الملعب ، عند مرور الثيران .

وقال « بيل » :

ـ حقاً ؟

الفَصلُ الثَامِنِ عَشَر

كنّا جميعاً في المقهى ، ظهراً ، وكان مزدحماً . وأخذنا نأكل (الأربيان) ونشرب البيرة ، وكانت المدينة غاصة بالناس . وكانت الشوارع كلها ملأى ، وجعلت سيّارات ضخمة تقدم ، دون انقطاع ، من (بياريتز) و(سان سيباستيان) ثمّ تقف حول الساحة ، وكانت تنقل الناس لحضور حفلات مصارعة الثيران . وجعلت تقدم أيضاً ، سيارات رحلات . وقد ضمّت إحداها خمساً وعشرين انكليزية ، جلسن في السيارات الكبيرة البيضاء ، وهنّ يتطلّعن ، من خلال نظاراتهن ، الى مشاهد العيد (الفييستا) .

وكان الراقصون جميعاً سكارى ، إذ كان اليوم ، هو الأخير من العيد . وكانت مواكب العيد ، تؤلّف كتلة متراصة وثيقة ، بيد أن السيّارات الكبيرة وسيّارات السياحة ، كانت تفصل منها جزراً صغيرة من المشاهدين .

وكانت الجموع ترتشف من السيّارات سائحيها حين كانت تفرغهم ، فلم تكن لتراهم إلا حول طاولة ما ، مرتدين ثيابهم الرياضية ذات الزي الطريف ، بين جمهرة من الفلاحين ذوي السترات السود . كما كانت جموع العيد ترتشف انكليز (بياريتز) حتّى أنّك لا تكاد تراهم إلا إذا مررت بطاولة ما .

وكانت الموسيقى لا تني تعزف في الشارع ، طوال الوقت ، وكان درداب الطبل لا ينقطع عن الدوي ، وكانت المزامير لاتفتأ تصفر .

وداخل المقاهي ، كانت أيدي الرجال متشبّثة بالطاولات . وكانت أكتافهم لصيقة متلازمة ، وهم يغنّون أناشيدهم بأصواتهم الجاسية .

وقال « بيل » :

ـ ها هي ذي « بريت » .

ونظرت فرأيتها تشق طريقها بين الزحام ، في الساحة . كانت تمشي متلعة الرأس ، وكأن العيد قد أهلّ من أجلها وإكراماً لها .

كانت تجد هذا كله ممتعاً ومسلّياً . وقالت :

ـ هالو ، أيها الرفاق ، كم أنا ظمأى!

وقال « بيل » للنادل :

ـ إيت بزجاجة بيرة أخرى .

ـ واربيان ؟

وسألت « بريت » :

ـ هل سافر « كون » ؟

وقال « بيل » :

ـ أجل . لقد استأجر سيّارة .

وقدّمت البيرة ، وأرادت « بريت » أن ترفع القدح فارتجفت يدها ، ولمحت ذلك وابتسمت ، وانحنت وارتشفت رشفة طويلة وقالت :

ـ بيرة جيدة .

قلت :

ـ جيدة جداً .

وكان القلق قد جاذبني على « مايك » وأحسب أنه لم ينم البتّه ، لا بد أنه قد سلخ الليل وهو يسكر ، بيد أنه بدا محتفظاً بوعيه واتّزانه .

وقالت « بريت » :

ـ علمت أن « كون » قد جرحك يا « جاك » .

ـ لا ، لقد طرحني على الأرض (كنوت آوت) فحسب .

ـ على أي حال ، لم يطرح « بيدرو روميرو » ، (كنوت آوت) بل ألحق به أذى بالغاً .

ـ وكيف حاله ؟

ـ حاله الى خير ، إنه يأبى أن يغادر غرفته .

ـ هل تظهر عليه آثار الضرب ؟

ـ على نحو ظاهر ، فلقد تلقّى لكمات قاسية جداً ، لقد قلت له إنني ذاهبة لأرى رفاقي ، هنيهة .

ـ تراه سيشترك في اللعب ؟

ـ طبعاً ، سأذهب معكم إن لم يكن لديكم مانع .

وسأل « مايك » :

ـ كيف حال صديقك الصغير ؟

ولم يكن قد وعى كلمة مما قالته « بريت » واستطرد يقول :

ـ لقد اتخذت « بريت » من مصارع ثيران صديقاً لها ، وكان لها من قبل صديق يهودي يدعى « كون » ولكنه أساء التصرّف .

ونهضت « بريت » وقالت :

ـ أنا لن أصغي الى هذا النمط من الكلام الرديء يا « ميشيل » .

ـ كيف حال صديقك الصغير ؟

ـ في حالة جيدة جداً ، ليس لك إلا أن تشاهده عصر اليوم .

وقال « مايك » :

ـ لقد اتخذت « بريت » من مصارع ثيران ، صديقاً لها ، إنه فتى جميل قذر من مصارعي الثيران .

وقالت « بريت » :

ـ هلاّ قمت معي يا « جاك » بجولة صغيرة ؟ أود أن أتحدّث اليك .

وقال « مايك » :

ـ انفضي له كل ما لديك عن مصارعك ، أوه ، ليأخذ الجحيم مصارعك .

ودفع الطاولة ، وهوت زجاجات البيرة ، وصحن الاربيان ، على الأرض متحطِّمة . وقالت « بريت » :

ـ تعال ، لنخرج من هنا .

وقلت لها ، ونحن نجتاز الساحة الزاخرة بالسابلة :

ـ كيف حاله ؟

ـ لن أراه بعد الغداء حتّى يأزف وقت اللعب ، فإن رفاقه سيأتون لمساعدته على ارتداء ثيابه الخاصة ، لقد أفضى اليّ أن رفاقه غاضبون عليّ .

وكانت تبدو وضيئة المحيا ، سعيدة ، وكانت الشمس تتألّق في السماء . وأشرق النهار منيراً ، وقالت « بريت » :

ـ أشعر بأنني تغيّرت كلّ التغيّر ، إنك لاتدري يا « جاك » كيف تغيّرت .

ـ هل أستطيع أن أقوم بشيء من أجلك ؟

ـ لا ، رافقني الى ميدان اللعب فحسب .

ـ هل سنراك على الغداء ؟

ـ لا ، سأتغدّى معه .

وكنّا واقفين تحت القناطر ، قبالة باب الفندق ، وكان الندل ينقلون الطاولات الى الخارج ويضعون لوازم المائدة .

وسألت « بريت » :

ـ هل لك أن ندور حول الحديقة العامة ، لاأستطيع أن أصعد الآن ، أعتقد بأنه مايزال نائماً .

وتمشّينا أمام التياترو ، وتركنا الساحة ، ثمّ تابعنا السير ، بين الدكاكين الخشبية من المعرض وتنقّلنا مع جموع الناس حول الخيام المنضوية ، ووصلنا الى شارع معترض يفضي الى (البازيو دوسارازات) ، وكان في ميسورنا أن نرى الى الناس يتنزّهون ، ثمّة مرتدين مختلف الأزياء الشعبية ، وكان هؤلاء المتنزّهون ، ينقلبون ، اما شارفوا نهاية الحديقة ، على أعقابهم .

وقالت «بريت» :

ـ دعنا من الدخول ههنا ، لاأطيق أن يحملق بي أحد الآن .

وكنّا واقفين في أشعة الشمس ، وكان الجو قائظاً ممتعاً ، والغيوم تزحف من البحر ، اثر المطر .

وقالت «بريت» :

ـ أرجو أن تهدأ الريح ، إنها مضرّة به .

ـ وبي أيضاً .

ـ لقد ذكر لي أن الثيران جيدة .

ـ أجل إنها لجيّدة .

ـ أهذه هي كنيسة (سان فيرمان) ؟

ونظرت «بريت» الى جدار الكنيسة الأصغر . وقلت :

ـ أجل ههنا بدأ الأحتفال بالعيد يوم الأحد .

ـ لندخل ، أتودّ ذلك ؟ أحب أن أصلّي صلاة قصيرة من أجله ، أن أقوم بشيء ما .

ودخلنا من باب ثقيل جداً ، يدور في يسر ، وكان داخل الكنيسة معتّماً . وكان ثمة أشخاص كثيرون يصلّون ، وكان في ميسورك أن تستجليهم كلّما ألفت عيناك الضوء الخفيف . وركعنا على أحد المقاعد الخشبية المستطيلة ، وشعرت ، بعد هنيهة ، أن «بريت» جامدة الى جانبي لاتتحرّك . ورأيتها تحدّق الى أمام ، وقالت بصوت أجش :

ـ لنخرج من هنا ، إنّ هذا يهيّج أعصابي على نحو لعين .

وفي ألق الشارع الحار ، في الخارج ، رامقت «بريت» الأشجار تجاذبها الريح ، ولم تكن صلاتها قد عادت عليها بالفائدة المرجوة .

وقالت :

ـ لا أدري لماذا أشعر بتوتّر أعصابي داخل الكنائس ، إنها لا تخلّف في نفسي أي أثر مريح .

وتابعنا السير ، وأردفت :

ـ إنّ الجوَ الديني لا يلائمني ، إنه يخالف نموذج الجمال الذي أصبو اليه .

واستطردت :

ـ أتدري ؟ إنني لا أشق على نفسي بما يخص « روميرو » . إنني أشعر بسعادة حين أفكّر فيه ، ليس غير .

ـ حسناً .

ـ ومع ذلك فأنا أتمنّى أن تهدأ الريح وتقر .

ـ من المحتمل أن تقر حوالي الساعة الخامسة .

ـ أرجو ذلك .

ـ في وسعك أن تصلّي من أجل ذلك .

وضحكت وقالت :

ـ لا تنفعني الصلاة في شيء ، إنني لم أنل ، عمري كله ، شيئاً واحداً طلبته في صلاتي . وأنت ؟

ـ أوه ، أجل .

وقالت « بريت » :

ـ أوه إنه لهراء ، لعل الصلاة مجدية لدى بعض الناس ، ومع هذا ، فليس لك سيما الرجل المتديّن جداً .

ـ إنني جد متديّن .

ـ أوه إنه لهراء ، لاتشرع في التبشير ، اليوم ، فإنّ النهار بهذا قد يتراخى الى بعض السوء .

وكانت هذه المرة الأولى التي أراها فيها تسيغ ، غافلة ، هناءتها القديمة منذ عشية اليوم الذي رحلت فيه مع « كون » .

وألفينا أنفسنا من جديد ، أمام الفندق ، وكانت الطاولات كلّها آنئذ منضدة وكان أكثرها حافلاً بأشخاص يتناولون الطعام . وقالت « بريت » :

ـ أرجو أن تعنى بـ« مايك » ولاتدعه يسكر كثيراً .
وقال مدير الخدم الالماني بالانكليزية :
ـ لقد صعد رفاقك الى الدور العلوي .
وكان معتاداً على استراق السمع ، والتفتت « بريت » اليه وقالت :
ـ شكراً جزيلاً . ألديك شيء آخر تقوله ؟
ـ لا ياسيّدتي .
وقالت « بريت » :
ـ حسناً .
وقلت له بالألمانية :
ـ احجز لنا طاولة لثلاثة أشخاص .
وابتسم ابتسامته الصغيرة القذرةالبيضاء الحمراء وقال :
ـ هل ستتناول السيدة طعامها هنا ؟
وقالت « بريت » :
ـ لا .
ـ احسب ، اذن ، أن طاولة لشخصين ستكون كافية .
قالت « بريت » فيما كنّا نصعد الدرج :
ـ لاتكلّم « مايك » . لابدّ أنه في حالة سيئة .
وصادفنا « مونتويا » على الدرج ، وانحنى دون أن يبتسم ، وقالت « بريت » :
ـ سأراك في المقهى ، شكراً جزيلاً لك يا « جاك » .
وتوقّفنا في الدور الذي كانت توجد فيه غرفتنا ، ومشت في الرواق ودخلت غرفة « روميرو » دون أن تقرع الباب ، فقد فتحته ودخلت ثمّ أوصدته .
ومكثت أمام غرفة « مايك » وقرعت الباب . فلم أسمع جواباً ، وحاولت أن أدير أكرة الباب فانفتح .

كانت الفوضى تشيع داخل الغرفة ، وكانت حقائب السفر كلّها مفتوحة ، والثياب منثورة هنا وههنا ، وكان الى جانب السرير ، زجاجات فارغة ، وكان وجه « مايك » يماثل ، وهو مضطجع على السرير ، قناع وجه ميّت أخذ عن وجهه . وفتح « مايك » عينيه ونظر اليّ وقال في بطء :

ـ هالو « جاك » إنني أنام قليلاً ، فقد مضى زمن طويل وأنا أرغب في... النوم... قليلاً .

ـ دعني أغطّك .

ـ لا ... إ... نني أ... شعر بالد... فء . لا تذهب... إنني... لم... أتهيّأ... بعد... للنو... م .

ـ ستنام يا « مايك » . لا تحزن ، يا عزيزي . .

وقال « مايك » :

ـ لقد استأثرت « بريت » بمصارع الثيران ، أمّا يهوديها فقد ولّى الأدبار . واستدار رأسه نحوي ونظر اليّ وقال :

ـ إنه لشيء لعين ، أليس كذلك ؟

ـ أجل . والآن نم يا « مايك » . ينبغي أن تنام .

ـ إنني أستعد للنو...م ، اللحظة ، سأ...نام... ق... ليلاً .

وأغمض عينيه . وخرجت من الغرفة ، وأوصدت الباب ، في هدوء ، وكان « بيل » في غرفتي يطالع صحيفة . وقلت له :

ـ هل رأيت « مايك » ؟

ـ أجل .

ـ هيّا بنا نتغدّى .

ـ لا ، أود أن أتغدّى في مطعم الدور الأرضي ، حيث يخدم مدير الخدم الألماني ، فقد كان ذا وقاحة لعينة فيما كنت أساعد « مايك » على الصعود .

ـ لقد كان وقحاً معنا أيضاً .

ـ لنذهب الى المدينة ، لنتناول الطعام هناك .

ونزلنا ، وصادفنا على الدرج خادماً تصعد حاملة صينية مغطّاة وقال « بيل » :

ـ هذا طعام غداء « بريت » .

وقلت :

ـ وفتاها .

وفي الخارج ، على السطيحة القائمة تحت القناطر ، تقدّم منّا مدير الخدم الألماني وكان خدّاه الأحمران يلتمعان ، وبدا مهذّباً :

ـ لديّ طاولة لكليكما ياسيّدي .

وقال له « بيل » :

ـ اذهب أنت واجلس اليها .

واجتزنا الشارع...

وتغدّينا في مطعم قائم في أحد الشوارع الصغيرة المفضية الى الساحة ، ولم يكن في المطعم من يأكل سوى رجال . وكان الجميع يدخّنون ويشربون وينشدون .

كان الطعام جيداً وكذلك كانت الخمر ، ولم نتحدّث كثيراً ، ثمّ مضينا الى المقهى وتملّينا مباهج العيد (الفييستا) وقد دانى حد الغليان .

ولحقت بنا « بريت » بعد الغداء وذكرت لنا أنها ألقت نظرة داخل الغرفة فرأت « مايك » نائماً .

وحين انتحى العيد (الفييستا) صوب ملعب مصارعة الثيران ، بالغاً ذروة غليانه ، مشينا مع جمهرة الناس .

وجلست « بريت » في الصف الأوّل ، بيني وبين « بيل » . وكان يمتد أمامنا الى الأسفل ، الممر (Callejon)[1] القائم بين المصاطب وحاجز (الباريرا) الأحمر رمل الملعب ، دقيقاً مليساً أصفر ، وكان يبدو ثقيلاً بعض

---

(١) وردت بالاسبانية في الأصل ومعناها : الممر الضيق .

الشيء ، إثر المطر ، بيد أنه أضحى ، في أشعة الشمس ، جافاً صلباً أملس .

وكان حاملو السيوف ، وخدم الملعب ، قد وصلوا الى الممر الضيق يحملون على عواتقهم سلالاً خيزرانية ملأى بشالات اللعب وشالات (الموليتا)[١] (Muleta) . وكانت صبيغة بالدم ، مكوّمة ، مطوية ، مصرورة في السلال .

وفتح حاملو السيوف الصناديق الجلدية الثقيلة ، وتألّقت المقابض المخضّبة بالحمرة ، مقابض حزمة السيوف ، حين أمالوا الصناديق على الحاجز ، ثمّ نشروا الشالات (الموليتا) المنسوجة من الفانيلا الحمراء القانية الملطّخة ببقع قاتمة ، وأثبتوا فيها عصياً تبسطها وتتيح للمصارع (الماتادور)[٢] أن يتمسّك بشيء ما .

وكانت « بريت » تراعي ذلك كلّه بنظراتها . وقد استغرق اهتمامها تفاصيل اللعب وأصوله ، وقالت :

ـ إن اسمه مكتوب على الشالات والشالات (الموليتا) كلها ، لماذا سمّيت موليتا Muleta ؟

ـ لا أدري .

اتساءل عمّا إذا كانوا يغسلونها أحياناً .

ـ أحسب أنها لا تغسل ، لأن غسلها يذهب بلونها .

وقال « بيل » :

ـ إن الدم يجعلها ولاريب قاسية .

وقالت « بريت » :

ـ يا للسخرية ، كيف أضحى الانسان ، لايكرّثه الدم .

كان حاملو السيوف ، يعدّون كل شيء ، في الممر الضيّق تحت . وكانت

---

(١) وردت بالاسبانية في الأصل ومعناها : الشال الأحمر المثلّث الشكل الذي يهيّج به المصارع ثوره في نهاية اللعب . (المعرّب)

(٢) الماتادور Matador المصارع الذي يلاعب الثور ثمّ يقتله في النهاية . (المعرب)

المحلاّت كلّها قد امتلأت ، وفي الأعلى كانت الألواح قد غصّت بالنظارة ، ولم يكن ثمة محل فارغ . ووقف عبر الرمل المليس ، تحت القبة العالية المفضية الى (الكورال) - وقف مصارعو الثيران ، وقد التفّت شالاتهم على سواعدهم وهم يتحدّثون فيما بينهم ، وينتظرون الاشارة ليقوموا باستعراضهم في الملعب ، وكانت « بريت » ترقبهم بالمنظار المكبّر وقالت :

ـ هل تودّ أن تنظر بالمنظار ؟

ورأيت بالمنظار ثلاثة مصارعين (ماتادور) ، يتوسّطهم « روميرو » وكان « بيلمونتي » عن شماله ، و« مارسيال » الى يمينه ، ووقف خلفهم جماعتهم ، يليهم حاملو الأعلام (Banderilleros) . ورأيت في نهاية الممر عند مدخل (الكورال) ، فرسان (البيكادور Picador)[(١)] . كان « روميرو » يرتدي رداءً أسود ، وكانت قبّعته المثلّثة منخفضه الى عينيه ، ولم أستطع أن أتبيّن وجهه تحت القبّعة في وضوح . ولكنه بدا لي ذا قسمات كدرة نكدة سيّئة للغاية . وكان يصوّب بصره مستقيماً الى أمامه .

وكان « مارسيال » يدخّن سيكارة في خدر وتحرّز وظلّ محتفظاً بها في يده .

وكان « بيلمونتي » ينظر الى أمام ، وكان وجهه مصفرّاً شاحباً ، وكان حنكه الطويل كحنك الذئب ، بارزاً ، كما كان بصره شاخصاً الى المدى البعيد . ولم يكن هو ولا « روميرو » يبدوان أنهما يشاركان الباقين في شيء ، لقد كان كلّ منهمامنفرداً بنفسه .

ودخل الرئيس ، ودوى تصفيق حاد في المنصّة الكبيرة ، فوقفنا ، وناولت « بريت » المنظار ، واستمرّ التصفيق ، وشرعت الموسيقى تعزف ، وكانت « بريت » تنظر بالمنظار ، وقالت :

ـ خذ وانظر .

---

(١) البيكادور : الفارس الذي يهيج الثور وهو يغرز الحربة بين كتفيه .

ورأيت بالمنظار ، «بيلمونتي» يتحدّث الى «روميرو» . واستقام «مارسيال» ورمى بسيكارته ، وشرع المصارعون (الماتادور) الثلاثة في السير وأبصارهم مسدّدة الى أمام ، ورؤوسهم متلعة ، وهم يراوحون أذرعهم الخالية . وأتى ، خلفهم ، موكب العرض كله مفتتحاً الحفلة . وكان كل واحد من الموكب يسير بخطى وسيعة ، وقد لفّ شاله على يده وجعل يراوح باليد الخالية ، ومشى في أعقابهم الفرسان (البيكادور) وحرابهم مرفوعة الى العلاء كأنّها الرماح . وسعى خلف هذا كله صفّان من البغال المقرونة وخدم الملعب ، ووقف المصارعون أمام منصة الرئاسة ، وانحنوا ، وقبّعاتهم على رؤوسهم مؤدّين التحية . ثمّ اقتربوا من صف (الباريرا) ، تحتنا .

ونزع «بيدرو روميرو» شاله الثقيل الموشّى بالذهب ، وناوله من خلال الحواجز حامل سيوفه وأفضى اليه بشيء .

وأضحى في ميسورنا حين اقترب منّا أن نستبين شفتيه المتورّمتين وعينيه الكدرتين ، وكان وجهه مهبّجاً[1] منكفئ اللون . وأمسك حامل السيوف بالشال ، وشخص ببصره الى «بريت» ودنا منّا ، وقدّم اليها الشال ، وقلت لها :

ـ انشريه أمامك .

وانحنت «بريت» ، وكان الشال ثقيلاً أملس موشّى بالذهب . واستدار حامل السيوف ، وهزّ رأسه وتمتم شيئاً ، وانحنى رجل جالس الى جانبي وقال لـ«بريت» :

ـ إنه يودّ ألا تنشريه بل أن تطويه وتضعيه على ركبتك .

وطوت «بريت» الشال الثقيل .

ولم ينظر «روميرو» الينا قط ، كان يتحدّث الى «بيلمونتي» . وناول «بيلمونتي» شاله الرسمي بعض رفاقه ، ونظر اليهم وابتسم لهم ابتسامته الذئبية التي لم تكن تتجاوز فمه .

---

(١) المهبج : المنتفخ . من فصيح العامية .

وانحنى « روميرو » فوق صف (الباريرا) يطلب جرعة ماء ، وجلب له حامل السيوف جرّة . وصبّ « روميرو » منها الماء على طرف الشال ، وفرك بقدمه المنتعلة صندلاً ، طيّات طرف شاله السفلي ، في الرمل .

وسألت « بريت » :

ـ لماذا يفعل ذلك ؟

ـ ليهبه مزيداً من الثقل ، عند مهب الريح .

وقال « بيل » :

ـ إنّ وجهه يبدو مهبجاً .

وقالت « بريت » :

ـ إنه في حال غير جيدة ، كان عليه أن يلزم سريره .

وكان الثور الأوّل من نصيب « بيلمونتي » ولعب « بيلمونتي » جيداً ، ولكن بسبب أنه ربح ثلاثين ألف بيزيته أجرة لعبة ، وأن الناس سلخوا الليل في رتل انتظار طويل ، لشراء بطاقات حضور حفلته ، فإن الجمهور كان يتطلّب من « بيلمونتي » أن يلعب على نحو أكمل وأجود .

إنّ مميّزات « بيلمونتي » هي أن يلعب على مقربة دانية من الثور . ففي فن مصارعة الثيران ، يتحدّث العارفون عن أرض الثور وأرض مصارع الثيران ، ومادام مصارع الثيران باقياً في أرضه الخاصة به فهو في مأمن نسبيّاً . فإذا مادخل أرض الثور فإن خطراً كبيراً يتهدّده .

وقد كان « بيلمونتي » يلعب دوماً في أيّامه المأثورة ، في أرض الثور ، وبهذا كان يهيّج الشعور بالمأساة الجاثمة القادمة . وكان الناس يذهبون الى ملعب مصارعة الثيران ليشاهدوا « بيلمونتي » ويثير في نفوسهم الشعور بالمأساة . ولعلّهم كانوا يذهبون ليروا مصرع « بيلمونتي » ، فقد كان يقال منذ خمسة عشر عاماً : إن كنت تودّ مشاهدة « بيلمونتي » فعليك أن تتعجّل ذلك ، ما دام لا يزال حيّاً . ومنذ ذلك الوقت ، اتسق له أن يقتل أكثر من ألف ثور . ولما اعتزل اللعب أمداً ، ضخمت الأسطورة أسلوبه الرائع في مصارعة الثيران . غير أن أمل الجمهور

فيه خاب بعد عودته من اعتزاله . وفي الحق ، لا يوجد أي مصارع يستطيع أن يلعب في مسافة ضيقة تفصله عن الثور كالمسافة التي زعموا أن « بيلمونتي » كان يلعب فيها ، والتي لا يقدّر « بيلمونتي » ولا غيره طبعاً أن يلعب فيها .

أضف الى ذلك كله أن « بيلمونتي » وضع شروطه في اللعب ، فقد اشترط أن تكون ثيرانه لاضخمة كل الضخامة ولا مسلّحة بقرون كبيرة خطرة . وبهذا فإن العنصر الأساسي لخلق شعور بالمأساة اضحى مفتقداً . كما أن الجمهور الذي يتطلّب من « بيلمونتي » ـ المصاب في ذلك الوقت ، بناسور ـ مجهوداً أضعاف ماكان في ميسوره القيام به ـ أصبح يشعر بأنه قد سرق وخدع .

وجعل الإحتقار الذي قوبل به « بيلمونتي » فكّه أكثر بروزاً ، وأضحى وجهه أكثر اصفراراً ، وأخذ يتحرك في مشقة تتزايد كلّما ازدادت آلامه .

وأخيراً أفصح الجمهور في عنف عن عدائه ، بيد أن « بيلمونتي » اعتصم بالإزدراء واللامبالاة الى أبعد حد ، لقد كان يأمل عصراً مجيداً ، ولكنه لقي منه عصر يوم مليء استهزاءً وسباباً . وختم بوابل من الوسائد وقطع الخبز والخضر التي كانت تقذف على ساحة الملعب التي شهدت أمجد انتصاراته . وأخذ حنكه يشتد في البروز ، وكان يتلفّت ، إما سكّ سمعه شتيمة قاسية ليبتسم ابتسامته التي لاشفاء لها ، ابتسامة أسنان وحنك ليس غير . وجعل ألمه الذي كان يشعر به إثر كل حركة يقوم بها ينمو شيئاً فشيئاً ، حتّى انكفأ وجهه المصفر الى لون الرق .

ولمّا صرع « بيلمونتي » الثور الثاني ، وانقطع عنه وابل الخبز والوسائد ، وحيّا الرئيس بابتسامته الذئبية ، وعينيه المزدريتين ، وحمل سيفه ، وأمره من حاجز (الباريرا) ليمسح ويوضع في صندوقه ـ دخل الممر الضيّق واستند الى حاجز (الباريرا) تحتنا ووضع رأسه بين راحتيه ، دون أن يرفع بصره الى شيء أو يستمع الى شيء مستسلماً كل الاستسلام الى آلامه الممضّة . وحين صعد طرفه بعد ذلك طلب كأس ماء وارتشف منه رشفة ، ومضمض الماء في فمه ، وبصقه ثمّ تناول شاله وعاد الى الملعب .

على أن هذا الجمهور الذي أبدى عداءه لـ« بيلمونتي » انحاز الى « روميرو » فمنذ اللحظة التي غادر فيها « روميرو » صف (الباريرا) ، ليقترب من الثور استقبله الجمهور بالتصفيق ، وكان « بيلمونتي » يرقب « روميرو » ويوالي النظر اليه دون أن يتظاهر بذلك ، ولم يكن ليهتم بـ « مارسيال » فقد كان يعرف « مارسيال » حق المعرفة . لقد عاد الى اللعب بعد أن اعتزله لينافس « مارسيال » وغيره من نجوم مصارعي الثيران المضمحلّين ، وكان واثقاً بأنّ إخلاصه في فنه الشخصي سوف يؤتي أكله من التقدير ، ويلحظ سموّه على الفن المزيّف ، فمن مصارعي الثيران المضمحلّين بمجرّد ظهوره على الملعب . بيد أن ظهور « روميرو » قد أفسد عودته الى اللعب بعد أن اعتزله .

وكان « روميرو » يلعب في هدوء وليان وروعة لعباً لم يعد في ميسور « بيلمونتي » القيام به إلا غراراً ، وشعر الجمهور بذلك . حتّى أولئك الذين قدموا من (بياريتز) وحتّى السفير الامريكي نفسه أخيراً .

كانت تلك منافسة لم يشأ « بيلمونتي » دخولها . لأنها لايمكن أن تؤدّي إلا الى خطر الجرح بقرن الثور ، أو الى الموت .

ولم يعد « بيلمونتي » في حال جيدة مواتية . ولم يعد ملعب مصارعة الثيران ينفسح لعهوده المجيدة الماضية ، لابل إنه ليشك ، الآن ، في أن عهوداً مجيدة كانت له . وهكذا لم تعد الأشياء كسالف عهدها ، وأصبحت الحياة ، الآن ، مجرد ومضات .

ولقد ادّخر « بيلمونتي » ومضات من عظمته القديمة أمام الثيران ، ولكن هذه الومضات خبت وغدت عاطلة عن القيمة ، حين نحّاها مسبقاً ، يوم خرج من سيّارته وأنعم النظر ، وهو مستند الى الحاجز ، في قطيع صديقه مربّي الثيران ، لينتقي منها ثيراناً يأمن منها . فانتخب ثورين صغيرين مروّضين ذوي قرون ليست بكبيرة . وقد شعر بالعظمة تعود اليه ، بقدر ضئيل ليس غير ، من خلال أوجاعه التي تلازمه دوماً . فقد كانت عظمته مقلقلة

مبيعة مسبقاً ، عظمة لم تزج الى نفسه أية متعة . بلى ، كان ثمة عظمة ولكنها لم تعد تجعل من فن مصارعة الثيران لديه آية باهرة .

أمّا «بيدرو روميرو» فقد كان يملك هذه العظمة ، كان يعشق مصارعة الثيران ، وأحسب أنه كان يعشق الثيران كما كان يعشق «بريت» .

وأقام أمام «بريت» بكل ما في مقدوره أن يقوم به ، عصر ذلك اليوم ، دون أن يرفع إليها نظره ، مرة واحدة . وكان هذا أدعى الى القوة : كأن يلعب من أجل ذاته ومن أجلها أيضاً . ولأنه لم يطمح ببصره اليها ليستأثر باستحسانها ، فإنّ كل ماقام به كان صادراً من داخل ذاته ، من أجل نفسه ، وقد رفده هذا بالقوة . فجعل يلعب من أجلها أيضاً ، ولكنه لم يلعب من أجل إرضائها على حساب ضرر يصيبه ، فقد أفاد منه كل الإفادة ، طوال عصر ذلك اليوم .

وقد تمّت له أوّل جولة تحت أبصارنا تماماً ، واشغل المصارعون (الماتادور) الثلاثة الواحد منهم تلو الآخر ، الثور عقيب كل هجوم قام به نحو الفارس (البيكادور) . وكان «بيلمونتي» الأول ، وتلاه «مارسيال» وأتى «روميرو» أخيراً ، وكان الثلاثة كلّهم يقفون الى يسار الجواد . وتهيّأ الفارس (البيكادور) ، مرخياً قبّعته الى عينيه ، وحربته ذات الزاوية الحادة مسدّدة الى الثور ، ومهمازاه على خصري جواده ، والزمام في يده اليسرى ثمّ أجلب على الثور بجواده . وكان الثور يراقبه ، وبدا عليه أنه كان يراقب الجواد وفي الواقع كان يراقب رأس الحربة الفولاذي المثلّث . وكان «روميرو» يلاحظ الثور ، ورأى اليه وهو يستدير برأسه كأنه لم يكن يبغي الهجوم . ونشر «روميرو» شاله ، ليصافح لونه بصر الثور ، وهجم الثور ، كردّ فعل . .هجم ، ولكنه ، بدلاً من أن يلقى خفقة اللون في الشال ، وجد أمامه الجواد الأبيض ، وانحنى الفارس فوق صهوة جواده وطعن برأس الحربة الفولاذي ذات المقبض الجوزي الطويل ـ طعن عضلة كتف الثور ، وأبعد جواده ، دائراً حول حربته ، كأنها محور له ، غارزاً رأسها الفولاذي في كتف الثور ، محدثاً جرحاً كبيراً ، جعل ينزف دماً ، ليدع الثور الجريح يصارع «بيلمونتي» .

ولم يصبر الثور على ألم الحربة ، وفي الواقع لم يكن يريد الهجوم على الجواد ، واستدار ، وتفرّق الجمع ، فاستقل به « روميرو » مع شاله . وكان يقوده في هدوء وليان ، ثمّ توقّف منتصباً قبالته ، وبسط له شاله . ورفع الثور ذيله ثمّ هجم ، وحرّك « روميرو » ساعديه أمام الثور ، ودار ثابتاً على قدميه .

وانتشر الشال رطباً ، مثقلاً بالوحل ، وامتلأ كالشراع ، ودار به « روميرو » أمام الثور تماماً . وفي نهاية هذه الحركة ، أضحيا من جديد متقابلين وجهاً لوجه ، وكان « روميرو » يبتسم... وهجم الثور كرّة أخرى : وتعبّأ شال « روميرو » أيضاً ، ولكن من الجانب الآخر .

وكان يدع الثور في كل مرّة ، يمرّ قريباً منه ، الى درجة أنه كانت تتألّف من المصارع والثور والشال الذي كان يمتلىء ويدور حول الثور ، كتلة واحدة ذات نطاق حاد .

وكان اللعب يدور في هدوء وتحكّم ، كما كان من الدقة بحيث كان المصارع وكأنه كان يهدهد الثور ليرقده .

وقام « روميرو » بأربع حركات (فيرونيكا) وأنهاها بنصف حركة (فيرونيكا) جعلت ظهره مستديراً الى الثور ، وحينئذ تقدّم ويده على خصره وشاله على ذراعه ، بينما كان الثور ينظر الى ظهر « روميرو » يبتعد ليستقبل هتاف النظارة .

وكان « روميرو » عارفاً بثيرانه الخاصة به الى حد يشارف الكمال ، وكان ثوره الأوّل لا يرى جيداً ، فبعد حركتي الإمرار الأوليّين من شاله رأى « روميرو » الى عواقب هذا العيب البصري ، ولعب على هذا الإحساس ، ولم يكن لعبه متألّقاً بل كان كاملاً ليس غير ، وكان الجمهور يود أن يستبدل بالثور غيره . واحتجّ على ذلك بضوضاء صاخبة ، إذ لم يكن يؤمل أي روعة في اللعب مع ثور لا يرى لون الشال وحركته ولكن الرئيس لم يشأ أن يغيّر الثور .

وسألت « بريت » :

ـ لمَ لا يغيّرون ثوره ؟

ـ لقد دفعوا ثمنه ، فلا يريدون أن يخسروا مالهم .

ـ ليس في هذا عدل ولا نصفة لـ« روميرو » .
ـ شاهدي كيف ينهج في لعبه مع ثور لايرى اللون .
ـ لا أحب أن أرى شيئاً من هذا القبيل .
ـ ليس ذلك مستحبّاً أن تشاهد ما يقوم به شخص أثير لديك .

وكان على « روميرو » في لعبه مع ثور لايستطيع أن يرى لون الشال أو لون شال (الموليتا) ذي الفانيلا الزاهية ، أن يعرّض جسده للثور ، وكان عليه أن يدنوا منه أشدّ الدنو ، حتّى يرى الثور شخصه فيهجم عليه ، وكان عليه وهو يوجه الثور الى الشال (الموليتا) الأحمر أن ينهي الحركة ، وفقاً للاسلوب الكلاسيكي في اللعب . ولم يكن جمهور « بياريتز » يحب هذا النهج ، فظنّ أن « روميرو » خائف من الثور وهو يرى اليه يقفز قفزة صغيرة كلّما نقل هجوم الثور عليه من جسمه الى فانيلا الشال ، وكانوا يؤثرون تقليد « بيلمونتي » لنفسه ، أو تقليد « مارسيال » لـ« بيلمونتي » ، وكان بعض من هذا الجمهور جالساً في الصف خلفنا ، وسمعت :

ـ لماذا يخاف من الثور ؟ إن هو إلا بهيمة تريد قطعة قماش ليس غير!
ـ أحسب أنه كان رائعاً مع شاله منذ هنيهة .
ـ إنه ، على الأرجح ، هائج الأعصاب الآن .

وهناك ، في بهرة الملعب ، كان « روميرو » وحده ، يتابع نهجه هذا . وكان يقترب أشدّ الإقتراب من الثور حتّى يتسنّى له أن يراه تماماً ، وكان يعرض له جسمه ويدانيه شيئاً فشيئاً ، وكان الثور ينظر اليه نظرة كامدة وهو يقترب منه مسافة ضئيلة ، يظن معها الثور أن في وسعه أن يناله ، ثمّ عاود تعريض جسمه مثيراً هجوم الثور عليه .

وفي اللحظة التي كان فيها القرنان مقبلين عليه ، بسط للثور الشال الأحمر ، قافزاً تلك القفزة الصغيرة التي لاتكاد تلحظ ، تلك القفزة التي لم تكن تروق نقّاد فن مصارعة الثيران من (بياريتز) .

وقلت لـ« بريت » :

ـ سيورده الآن مورد حتفه . فالثور لا يزال وثيق القوى ولم يشأ أن يناله التعب .
وفي وسط الساحة جابه « روميرو » الثور ، سالاً سيفه من ثنيات شال (الموليتا) . وتطاول على طرفي قدميه ، وحدر نظره الى ظبة السيف ، وهجم الثور لحظة هجم « روميرو » .
ورمت يد « روميرو » اليسرى بشال (الموليتا) فوق خطم الثور ليحجب بصره ، وتقدّمت كتفه اليسرى الى مابين القرنين ، فيما كان السيف ينغرز ، وأضحى الرجل والثور ، وفي لحظة خاطفة ، كلاً واحداً .
وكان « روميرو » منحنياً ، وانبسط ساعده الأيمن عالياً فوق مقبض السيف المغروز بين كتفي الثور . وتلاشى المشهد ، فقد تملّص « روميرو » بقفزة صغيرة ، وانتصب واقفاً ، بعد هنيهة ووجهه الى الثور ، ويده مرفوعة الى العلاء ، وقميصه مشقوق تحت الكم ، والقماش الأبيض يخفق في الريح .
وخفض الثور رأسه ، مستمسكاً على قوائمه ، والسيف الأحمر مغروز ما بين كتفيه ، وقال « بيل » :
ـ إنه يتهاوى .
وكان « روميرو » واقفاً على مسافة قريبة تمكّن الثور من رؤيته . وكان يتحدّث الى الثور ، ويده ماتزال مرفوعة . وتجمّع الثور ، ثمّ تدلّى رأسه ووقع على جانبه ، وفي البدء ، بطيئاً ، وانطرح ، فجأة ، على ظهره ، وقوائمه منتصبة الى الأعلى .
وأعيد السيف الى « روميرو » وتقدّم ممسكاً بسيفه المنخفض الطرف الى الأسفل ، وحاملاً شال (الموليتا) على ذراعه الأخرى ، حتّى وصل الى قبالة منصة الرئيس . وثمة ، انحنى وقام ، واقترب من حاجز (الباريرا) وناوله سيفه وشال (الموليتا) ، وقال حامل السيف :
ـ يا له من ثور سيّئ!
وقال « روميرو » :
ـ لقد جعلني أنتضح عرقاً من الإرهاق .

ومسح وجهه ، وناوله حامل السيوف جرة ماء ، وبلّ « روميرو » شفتيه... كان يتوجّع في الشرب من الجرة ، ولم ينظر الينا البتة .

وكان لـ« مارسيال » يوم حافل . فمنذ دخول آخر ثور لـ« روميرو » استقبل « مارسيال » بالتصفيق . وكان نفس الثور الذي عدا خلف الرجل وقتله ، صباح مسيرة الثيران .

وكان وجه « روميرو » المهبّج يبدو ظاهر الورم ، منذ ابتداء لعبه مع ثوره الأوّل ، وكانت كل حركة يقوم بها تظهر هذا الورم ، وكان تركيزه الذي يقتضيه لعبه الدقيق المرهق مع الثور الضعيف البصر يبرز ورم وجهه أشد البروز . إن عراكه مع « كون » لم ينل من اندفاعه . ولكنّ وجهه أضحى مهبجاً وجسده رضيضاً .

وإنه ليمسح الآن وجهه . وجعل لعبه مع ثوره الأخير يعيد الى محياه شيئاً فشيئاً نضرته القديمة .

وكان ثوراً جيداً ، ضخماً ذا قرنين كبيرين ، وكان يهجم ويكر ، في عزم ويسر ، وكان من زمرة الثيران التي يرغب « روميرو » في مصارعتها .

ولمّا أنهى لعبه بشال (الموليتا) وتهيّأ ليصرع الثور ، طلب اليه الجمهور أن يستأنف اللعب معه ، فلم يكن يريد أن يقتل الثور سريعاً ، وأن يتم ذلك وشيكاً .

وتابع « روميرو » لعبه ، وكان يبدو وكأنه يلقي محاضرة في فن مصارعة الثيران ، فسلسل الحركات كلها ، تامة ، متمهّلة ، منتظمة . ولم يكن ثمة حيلة أو تعمية أو عنف . وكان إنهاء كل حركة ، يسبّب لنا نوعاً من الألم الدفين ، وكان الجمهور يود ألا يكون نهاية للعب .

وكان الثور ثابتاً على قوائمه الأربع ، متّخذاً الوضع الذي يتلقّى فيه الموت ، وقد قتله « روميرو » تحت مرمى أبصارنا ، ولم يقتله بالطريقة التي فرضت عليه ، كما كان الحال في الثور السابق ، بل قتله كما يريد هو أن يقتله . فقد وقف قبالة الثور وسلّ السيف من ثنايا شال (الموليتا) ومدّ بصره الى ظبه السيف ، وكان الثور يراقبه . وأخذ « روميرو » يكلّمه ، ثمّ قرع باحدى قدميه الأرض ، فهجم الثور . وانتظر « روميرو » هجومه عليه ، وخفض

شاله ، ناظراً الى سيفه وقدماه ثابتتان ، ودون أن يتقدّم خطوة واحدة أضحى هو والثور كلاً واحداً ، وانغرز السيف مستقيماً مابين كتفي الثور ، وتتبَع الثور الشال الواطئ الذي ماكاد يتحرك قريباً من الأرض حتّى توارى حين تنحّى « روميرو » بقفزة عنيفة الى اليسار ، فأضحى بمأمن من نطاح الثور .

وحاول الثور أن يتقدّم... وجهد في أن يتماسك على قوائمه التي أخذت تتقصّف ، وتمايل مترنّحاً من جانب الى جانب ، وتردّد ثمّ أقعى على ركبتي قائمتيه . وحينئذ انحنى خلفه شقيق « روميرو » الأكبر وأغمد خنجراً صغيراً في عنق الثور قريباً من منبت القرنين ، وأخفق أوّل مرة ، فكرّر إغماد الخنجر ، وارتمى الثور متخلجاً متصلّباً .

ورفع شقيق « روميرو » وهو ممسك بيد ، قرن الثور ، وبيد خنجره ـ رفع بصره الى منصه الرئاسة ، وخفقت مناديل في أرجاء الملعب كلّه . ونظر الرئيس من أعلى المنصّة ولوّح بمنديله . وصلم شقيق « روميرو » اذن الثور الصريع ، وكانت سوداء خشنة ، وخفّ الى أخيه يحملها اليه . وتمدّد الثور ، دالع اللسان ، ثقيلاً ، أسود ، على الرمل . وهرول من أنحاء الملعب فتيان وأحاطوا به وجعلوا يرقصون حوله . .

وأخذ « روميرو » اذن الثور من أخيه وشالها بيده أمام الرئيس ، فانحنى الرئيس له .

وركض « روميرو » ليسبق الجمهور ، متّجهاً نحوه ، وانحنى أمام حاجز (الباريرا) ، وقدّم اذن الثور الى « بريت » . وهزّ رأسه وابتسم . وكان الجمهور قد التف حوله . واعطته « بريت » شاله . وهتف « روميرو » قائلاً :

ـ هل أعجبك ؟

فلم تقل « بريت » شيئاً ، وتبادلا النظر ، وابتسما . وكانت اذن الثور في يدها ، وقال لها في تصنّع :

ـ إيّاك أن تتلوّثي بالدم .

وكان الجمهور يريده . وهتف عدة فتية لـ « بريت » وكان الجمهور مؤلفاً

من غلمان وراقصين وسكارى ، واستدار « روميرو » محاولاً أن يشق طريقاً له بين الزحام ، ولكنّ الجمهور كان يطوّقه ويحاول أن يرفعه على الأكتاف . لكنه قاوم ومضى راكضاً بين الناس نحو مخرج الملعب ، فلم يكن يرفع على أكتاف النظارة ، ولكنهم أدركوه ورفعوه . ولم يكن في موضع مريح ، كانت ساقاه متباعدتين وكان الألم يهدّ جسمه . وخفّوا به راكضين نحو الباب ، وأراح « روميرو » يده على كتف أحدهم ونظر الينا معتذراً ثمّ تخطّى به الجمهور الباب .

وانقلبنا نحن الثلاثة عائدين الى الفندق ، وصعدت « بريت » الدرج ، ومكثت أنا و« بيل » في حجرة الطعام من الدور الأرضي ، حيث طعمنا بيضاً مسلوقاً ، وشربنا عدة زجاجات من البيرة . وقدّم « بيلمونتي » بثيابه المدنيه مع مدربه ورجلين آخرين ، وجلسوا الى طاولة مجاورة ، وتناولوا طعامهم . وأكل « بيلمونتي » قليلاً ، وكانوا يستعدّون للسفر الى (برشلونة) في قطار الساعة السابعة . وكان « بيلمونتي » يرتدي قميصاً مخطّطاً بالزرقة وسترة سوداء . وكان يأكل البيض مسلوقاً بعض الشيء ، وكان الآخرون يتناولون وجبة كبيرة من الطعام ، ولم يتكلّم « بيلمونتي » قط ، كان يجتزئ بالجواب عن الأسئلة .

وشعر « بيل » بأنه متعب ، إثر مشاهدة مصارعة الثيران ، وكذلك شعرت أنا . لقد كنّا مشغوفين بفن مصارعة الثيران أشد الشغف .

وجلسنا وأكلنا البيض ونحن نسارق النظر الى « بيلمونتي » وجماعته الجالسين الى طاولته ، وكان رفاقه ذوي وجوه قاسية وجوه أرباب أعمال ، وقال « بيل » :

- لنذهب الى المقهى ، أود أن أشرب قليلاً من الابسنت .

وكان ذلك اليوم ، اليوم الأخير من العيد (الفييستا) ، وفي الخارج أضحى الجو من جديد غائماً . كانت الساحة غاصّة بالناس . وكان المعنيّون بالألعاب النارية يهيّئون عدّتهم وأشياءهم لاحتفال الليلة ثم يغمرونها بأغصان الزان ، وكان ثمّة أطفال يتفرّجون ، ومررنا بدكاكين الصواريخ ذات العصي الطويلة من (البامبو) . وكان ثمّ حشد كبير من الناس خارج المقهى ، وعزفت

الموسيقى يواكبها الرقص ، وكان يمرأشخاص بإهاب مردة وأقزام .

وسألت « بيل » :

ـ أين « ادنا » ؟

ـ لا أدري .

وجعلنا ننظر الى بدء الليلة الأخيرة من العيد وكان شراب الابنست يجعل كل شيء في نظرنا أكثر رواء . وشربت الابنست دون أن يمازجه السكر ، في قدح تقطّرت جوانبه بالماء ، وكان مذاقه ذا مرارة مستحبّة . وقال « بيل » :

ـ إنني أشعر بالأسى نحو « كون » ، لقد أمضى وقتاً مخيفاً معذّباً .

وقلت :

ـ ليأخذ الجحيم « كون » .

ـ تُرى الى أين ذهب ؟

ـ الى (باريس) .

ـ ماذا تحسب أنه سيفعل ؟

ـ اوه ، ليأخذه الجحيم .

ـ ماذا تحسب أنه سيفعل في الجحيم ؟

ـ سيعود الى فتاته القديمة على الأرجح .

ـ ومن هي فتاته القديمة ؟

ـ إحداهن تدعى « فرانسيس » .

وشربنا قدحاً آخر من الابسنت ، وسألت :

ـ متى ستعود ؟

ـ غداً .

واردف « بيل » بعد هنيهة :

ـ وبعد ، فقد كان عيداً ممتعاً .

وقلت :

ـ أجل في أي وقت ثمة شيء خليق بالمشاهدة .

ـ يخيّل إليَ أنه ككابوس رائع ، قد لا تؤمن بما أقول .

ـ بلى ، إنني أؤمن بأي شيء حتّى بالكوابيس .

ـ ماذا دهاك ؟ أتشعر بضيق ؟

ـ بضيق كأنه الجحيم .

ـ خذ قدحاً من الابسنت ، ايه ياغلام : أيت بقدح آخر من الابسنت للسنيور .

وقلت :

ـ أشعر بضيق كأنه الجحيم .

وقال « بيل » :

ـ اشرب هذا ، اشربه في تمهّل .

وبدأ الليل يرخي سدوله ، واستمرّت مباهج العيد (الفييستا) وشعرت بأنني ثملت ، ولكنني لم ألف أي تحسّن .

ـ كيف تشعر ؟

ـ أشعر بالسعير .

ـ أتودّ قدحاً آخر ؟

ـ لن يجديني نفعاً .

ـ جرّب ، من يدري ؟ لعلّ هذا القدح هو الذي يحدث أثراً ، إيه ياغلام إيت بقدح آخر من الابسنت لهذا السنيور .

وبدلاً من أن أصب فيه الماء ، نقطة نقطة ، صببته دفعة واحدة في الابسنت وحرّكته . وأضاف اليه « بيل » قطعة سكّر . وادرت بملعقة قطعة من الثلج في هذا المزيج الأسمر الغائم .

ـ كيف وجدته ؟

ـ طيب .

ـ لا تشربه دفعة واحدة . فإنه يمرضك .

ووضعت القدح . ولم أكن أنوي أن أتجرّعه سريعاً .

ـ أشعر بأنني ثمل .

ـ لابدّ من ذلك .

ـ هذا ماكنت تبتغيه ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً ، أسكر ، وتخلّص من ضيقك اللعين .

ـ حسناً ، أنا سكران ، أهذا ماتريد ؟

ـ اجلس .

وقلت :

ـ لا أريد الجلوس ، أنا ذاهب الى الفندق .

وكان السكر قد استبدّ بي ، ولاأذكر أنني أضحيت في مثل هذا السكر ، عمري كله . ولمّا وصلت الى الفندق ، صعدت في الدرج ، وكان باب غرفة « بريت » مفتوحاً ومددت رأسي في الغرفة ، كان « مايك » جالساً على السرير ، ولوّح لي بزجاجة وقال :

ـ « جاك » ، ادخل يا « جاك » .

ودخلت وجلست ، وكانت الغرفة تميد بي إلا إذا حدّقت الى نقطة ثابتة . أتدري ؟ لقد رحلت « برنت » مع مصارع الثيران الفتى .

ـ لا ؟

ـ بلى ، بحثت عنك لتودّعك ، لقد سافرا في قطار الساعة السابعة .

ـ حقّاً ؟

وقال « مايك » :

ـ إنّ مافعلته لشيء سيّء . كان عليها ألا تفعل ذلك .

ـ لا .

ـ أتريد أن تشرب ، انتظر سأرن الجرس ، لنشرب شيئاً من البيرة .

وقلت :

ـ إنني ثمل سأذهب لأستلقي على فراشي .

ـ أأنت سكران ؟ لقد كنت أنا سكران أيضاً .

وقلت :

ـ بلى ، إنني سكران .

وقال « مايك » :

ـ حسناً ، على نخبك ، اذهب ونم ياعزيزي « جاك » .

وخرجت وفزعت الى غرفتي ، واضطجعت على سريري ، وماج السرير بي ، وقعدت وأنشأت أحدّق الى الحائط لأجعل السرير يقر .

وفي الساحة ، كان العيد (الفييستا) مايزال مستمراً .

ولم أحفل بشيء البتّة ، وقدم اليّ « بيل » و « مايك » بعد فترة لنمضي ونتناول الطعام سوية ، فاصطنعت النوم .

ـ إنه نائم ، من المستحسن أن نتركه نائماً .

وقال « مايك » :

ـ إنه سكران مخمور .

وخرجا...

ونهضت ودلفت الى الشرفة أشاهد الراقصين في الساحة ، لم يعد المكان يميد بي ، كل شيء أضحى واضحاً متألّقاً ، مع قليل من القساوة على الحواشي ، واغتسلت ومشّطت شعري ، وتراءيت لنفسي في المرآة ، غريباً ، ونزلت الى حجرة الطعام .

وقال « بيل » :

ـ ها هو ذا ، هذا العزيز « جاك » ، كنت أعلم أنّك لم تطرف وتحرّك جفنيك .

وقال « مايك » :

ـ أهلاً بالسكران العزيز .

ـ لقد شعرت بالجوع فاستيقظت .

وقال « بيل » :

ـ تناول شيئاً من الحساء .

وكنّا جالسين ، نحن الثلاثة ، الى الطاولة ، وكانت تبدو كأنها تنقص ستة أشخاص .

الجزء الثالث

الفَصلُ التاسع عَشَر

في صباح اليوم التالي كان كل شيء قد انتهى ، ومضى العيد (الفييستا) . واستيقظت حوالي الساعة التاسعة ، واستحممت ونزلت .

كانت الساحة خالية ، وكانت الشوارع مقفرة من الناس ، فيما عدا صبية يلتقطون قضبان الصواريخ من الساحة . وكانت المقاهي تفتح آنذاك ، والندل ينقلون الكراسي المريحة المصنوعة من خشب الزان الأبيض ، ويصفونها حول الطاولات المرمرية في فيء القناطر . وكانت الشوارع تكنس وترش بخرطوم الماء .

وجلست على أحد هذه الكراسي البيضاء المصنوعة من الزان ، وتمددت مسترخياً . لم يكن النادل ليتعجّل القدوم للخدمة ، وكانت الاعلانات البيضاء التي تعلن عن نقل الثيران ، والبيانات الكبيرة الخاصة بمواعيد سفر القطر الخاصة لاتزال لصيقة بعمد القناطر ، وخرج نادل متمنطق بميدعة[1] زرقاء يحمل دلو ماء وممسحة ، وبدأ يمزّق الاعلانات ويزيل الورق . ويغسل ويفرك الورق الذي ظلّ ملتصقاً بالحجر . لقد انتهى العيد (الفييستا) .

واحتسيت فنجان قهوة ، وبعد هنيهة قدم « بيل » ونظرت اليه فيما كان يجتاز الساحة . وجلس الى طاولتي ، وطلب فنجان قهوة وقال :

---

(١) الميدعة : الفوطة .

ـ حسناً ، لقد انتهى كل شيء .

قلت :

ـ أجل . متى ستسافر ؟

ـ لا أدري ، أوثر أن نستقل السيّارة ، ألا تعود الى باريس ؟

ـ لا ، إنّ في ميسوري البقاء اسبوعاً آخر . أظن أنني سأسافر الى (سان سيباستيان) .

ـ أنا أريد العودة .

ـ ماذا سيفعل «مايك» ؟

ـ سيذهب الى (سان جان دولوز) .

ـ لنستأجر سيّارة ولنذهب سوية بعيداً حتّى (بايون) ، إن في وسعك أن تستقل القطار ، هناك الليلة .

ـ حسناً لنذهب الى الغداء .

ـ موافق ، سأوصي على السيارة .

وتغدّينا ودفعنا ثمن الطعام ولم يقترب منّا «مونتويا» ، وحملت الينا أحدى الخادمات قائمة الحساب . كانت السيّارة تنتظر في الخارج وكان السائق يحزم حقائبنا ويربطها فوق سطح السيارة ، ثمّ وضع بعضاً منها على المقعد المجاور له وصعدنا .

وغادرت السيارة الساحة وسعت عبر الشوارع الصغيرة ومرّت تحت أغصان الأشجار ، وانحدرت من الهضبة مبتعدة عن (بامبيلونه) ولم تبد لنا المسافة طويلة جداً . وكان لدى «بايك» زجاجة من (الفوندادور) وشربنا منها مرّتين فحسب . وفرغنا من الجبال وخرجنا من اسبانيا ، وهبطنا في درب بيضاء عبر الأراضي الندية الخضراء الظليلة من اقليم (الباسك) ، ووصلنا أخيراً الى (بايون) وتركنا حقائب «بيل» في مستودع المحطة ، فشرى بطاقة سفر الى (باريس) وكان قطاره يسافر في الساعة السابعة والدقية العاشرة .

وخرجنا من المحطّة ، وكانت السيارة واقفة قبالتها . وسأل «بيل» :

ـ ماذا سنفعل بالسيارة ؟

وقال « مايك » :

ـ اوه ، لا تهتم بالسيارة ، لنحتفظ بها لدينا .

وقال « بيل » :

ـ حسناً ، الى أين ستذهب ؟

ـ هلاّ ذهبنا الى (بياريتز) لنشرب شيئاً ما .

وقال « بيل » :

ـ ياللمتلاف العزيز « مايك » :

ومضينا الى « بياريتز » وتركنا السيارة الى جانب ساحة (ريتز) الكبيرة ودخلنا المشرب ، وجلسنا على مقاعد مرتفعة ، وطلبنا وسكي بالصودا .

وقال « مايك » :

ـ إنه دوري في الدفع .

ـ لنقترع على ذلك .

واقترعنا بكعاب النرد الحاملة رسوم ورق البوكر ، ضمن سفط جلدي وخرج « بيل » من الرمية الأولى . وخسر « مايك » فأعطى ساقي المشرب (البارمان) ورقة نقدية من فئة مئة فرنك ، وكان ثمن قدح الويسكي إثني عشر فرنكاً ، وأجرينا قرعة أخرى ، وخسر « مايك » أيضاً ، وكان يترك في كل مكان يدفع ، رضيخة[1] وافية .

وفي حجرة مجاورة للمشرب كانت فرقة موسيقى (جاز) جيدة . كان. مشرباً لطيفاً .

وأجرينا قرعة أخرى ، وخرجت من الرمية الأولى ، بفضل أربعة رسوم (ملوك) ، وأجريت رمية بين « بيل » و« مايك » ، وربح « مايك » لأوّل مرة ، بفضل أربعة رسوم (فتيان) ، وربح « بيل » في القرعة الثانية ، وفي القرعة

---

(١) الرضيخة : البقشيش .

النهائية اتسق لـ« مايك » ثلاثة رسوم (ملوك) واحتفظ بها ، وناول السفط « بيل » فأمسك ، وهزّه ورمى كعاب النرد ، فخرج له ثلاثة رسوم (ملوك) ورسم (بنت) ورسم « أس » .

وقال « بيل » :

ـ إنه دورك يا « مايك » ، أيها المقامر العزيز « مايك » .

وقال « مايك » :

ـ آسف أشد الأسف ، ولكنني لا أستطيع .

ـ ماذا دهاك ؟

ـ لم أعد املك مالاً ، لقد نفد كل ما عندي ، ليس لدي سوى عشرين فرنكاً ، خذ هذه الفرنكات العشرين .

وتغيّر لون وجه « بيل » ، وقال « مايك » :

ـ لقد تبقّى لديّ ما أدفع به حساب « مونتويا » من حسن حظ اللعين ، أنه تبقّى شيء .

وقال « بيل » :

ـ إنني أقبل شيكاً بالمبلغ .

إنه لطف منك ، ولكنني ، كما ترى ، لا أستطيع أن أوقّع على شيكات دون رصيد .

ـ وماذا ستفعل لتحصل على مال ؟

ـ اوه . سوف أتلقّى بعض المال ، لديّ راتب اسبوعين لابد أن يصل الى هنا ، إنّ في مكنتي أن أعيش ، مجّاناً ، في هذه الحانة الصغيرة في (سان جان) .

وسألني « بيل » :

ـ ماذا سنفعل بالسيارة ؟ هل سنحتفظ بها ؟

ـ الأمر عندي سواء ، ولكن ابقاءها يبدو لي بلاهة .

وقال « مايك » :

ـ لنشرب قدحاً آخر .

وقال « بيل » :

ـ حسناً ، هذه المرة هي من حقّي في الدفع . ترى أيكون لدى « بريت » شيء من المال ؟

والتفت الى « مايك » فقال هذا :

ـ لا أظن ، لقد تركت جل ماأعطيتها للعزيز « مونتويا » .

وسألت :

ـ أليس لديها نقود ؟

ـ لا أظن . إنها لاتحتفظ لديها بأي نقد ، إن واردها السنوي خمسمئة جنيه . ولكنها تنفق منها ثلاثمائة وخمسين جنيهاً كفوائدالى يهود .

وقال « بيل » :

ـ يخيل الي انهم يجدون لديها معيناً فيّاضاً .

ـ أصبت ، انهم ليسوا بيهود في الواقع ، ولكننا ندعوهم نحن يهوداً . إنهم ، فيما أحسب ، اسكتلنديّون .

وسألت :

ـ أليس لديها دانق واحد ؟

ـ أظن ذلك . لقد اعطتني كل مالديها حين رحلت .

وقال « بيل » :

ـ حسناً ، إن في ميسورنا اذن أن نشرب أيضاً .

ـ يا لها من فكرة جيدة شيطانية ، إن مناقشة الأمور المالية لا تجدي شيئاً . وقال « بيل » :

ـ اجل .

واقترعت أناو« بيل » على دورين من الشرب ، وخسر « بيل » ودفع . ومضينا الى السيارة ، وسأل « بيل » :

ـ الى أين تودّ أن تذهب يا « مايك » ؟

ـ لنقم بجولة فلعلّ ذلك يعود بفائدة على رصيدي ، لنتنزّه قليلاً .
ـ حسناً ، أود أن أرى الشاطئ . لنذهب الى (هنداي) .
ـ ليس لدي أيما رصيد على طول الشاطئ .
وقال « بيل » :
ـ من يدري ؟

وتابعنا السير في طريق الشاطيء ، فاستقبلتنا خضرة اشباه الجزر والفيلات البيضاء ذات السقف الأحمر ، وبقعات من الغابات ، والبحر الشديد الزرقة . ذو المد المطمئن والأمواج المصطخبة بعيداً عن الشاطئ . واجتزنا (سان جان دولوز) ومررنا بقرى أخرى ابعد منها على الشاطئ ، وخلف المنطقة المدورة التي كنّا نضرب فيها ، شاهدنا الجبال التي جزنا بها عند اوبتنا من (بامبيلونه) . وكانت الطريق تذهب صاعدة ، ونظر « بيل » الى ساعته ، ـ لقد أزف وقت عودتنا ـ ونقر على الزجاج وطلب الى السائق أن ينقلب عائداً . وتراجع السائق بالسيارة في العشب ليتسنّى له أن يدور ، وخلفنا كانت تمتد غابات ، وتحتها ينبسط السهل ، ثمّ البحر .

وفي (سان جان دولوز) أوقفنا السيارة أمام الفندق الذي كا ينوي « مايك » الإقامة فيه ، ونزلنا ، وحمل السائق الحقائب ، وظلّ « مايك » واقفاً الى جانب السيارة . وقال :
ـ الى اللقاء يا « مايك » .
وقلت :
ـ سوف أراك في هذا المكان وحوله .
وقال « مايك » :
ـ لا يأخذكماالقلق من أجل المال ، إن في ميسورك يا « جاك » أن تدفع أجرة السيارة وسوف أبعث اليك بما يستحق عليّ .
ـ الى اللقاء يا « مايك » .
ـ الى اللقاء أيها الرفيقان . لقد كنتما لطيفين جداً معي .

وتصافحنا ولوّحنا له بأيدينا من السيارة ، وظلّ واقفاً على الطريق ينظر الينا .

ووصلنا الى (بايون) قبيل سير القطار وجلب عتّال حقائب «بيل» من مستودع المحطّة ، ومشيت حتّى الباب الداخلي المفضي الى رصيف القطار .

وقال «بيل» :

ـ الى اللقاء ياعزيزي .

ـ الى اللقاء يافتاي العزيز .

ـ لقد كانت رحلة ممتعة ونعمت فيها بوقت طيب .

ـ أباق أنت في باريس ؟

ـ لا ، سوف أبحر بتاريخ ١٧ الى اللقاء ياعزيزي .

ـ الى اللقاء يافتاي العزيز .

ومضى ، متخطّياً الباب ، ودلف الى القطار ، وكان العتّال يتقدّم «بيل» مع الحقائب ، ونظرت الى القطار يسعى ، و«بيل» واقف أمام إحدى نوافذ القطار . ومرت النافذة ثمّ باقي القطار . واضحى الخطّان الحديديّان فارغين ، وخرجت واتجهت الى السيارة ، وسألت السائق :

ـ كم يتعيّن عليّ أن أدفع لك ؟

وكانت الأجرة الى (بايون) محدودة بمئة وخمسين بيزيته . وقال :

ـ مئتي بيزيته .

ـ كم ذا تريد زيادة اذا أخذتني الى (سان سيباستيان) حين عودتك ؟

ـ خمسين بيزيته .

ـ لاتغشّني .

ـ خمساً وثلاثين بيزيته .

وقلت :

ـ إنها أجرة باهظة ، خذني الى فندق (السلة المزهرة) .

وفي الفندق ، نقدت السائق اجرته ، ومنحته رضيخه . وكانت السيارة

مكسوة بالغبار وفركت غمد قصبات الصيد بالغبار فقد خيّل اليّ أن هذا التراب هو الشيء الأخير الذي يصلني باسبانيا وبالفييستا .

وتحرّك السائق بالسيارة ، فانحدرت الى الشارع ، وتطلّعت اليها وهي تدور لتيمّم شطر اسبانيا .

ومشيت الى الفندق . وانزلوني غرفة . وكانت الغرفة نفسها التي نمت فيها حين جئت (بايون) مع «بيل» و «كون» . ومثل في وهمي أن ذلك كان منذ زمن بعيد ، واغتسلت ، وبدّلت قميصي ثمّ خرجت الى المدينة .

اشتريت من كشك بائع صحف ، جريدة «نيويورك هيرالد» وجلست في مقهى لأقرأها . وبدا لي أنه لشيء مستغرب أن أكون في فرنسا من جديد . وكان هذا يهبني شعوراً ريفيّاً آمناً . وندمت على عدم سفري الى «باريس» مع «بيل» لولا أن باريس حافلة بما يماثل «الفييستا» . لقد بشمت من (الفييستا) واكتفيت لأمد طويل . لابدّ أن الهدوء سيتوفّر لي في (سان سيباستيان) فإن موسم الاصطياف لايبدأ الا في آب . وسيكون في مقدوري أن أجد غرفة في فندق جيد وأن أقرأ واسبح ، فهناك شاطىء رائع ، وهناك أشجار بديعة على شارع المنتزة الى جانب الشط وهناك كثير من الأطفال ينحدرون قبل افتتاح الموسم مع مربّياتهم ، وفي المساء تعزف فرقة موسيقية تحت أغصان الأشجار قبالة مقهى «المارينا س» وسوف يتّسق لي أن أجلس في «المارينا س» لأستمع الى الموسيقى ، وسألت النادل :

ـ كيف الطعام هنا ؟

ففي داخل المقهى يوجد مطعم ، وأجاب :

ـ جيد جداً ، الطعام هنا ممتاز .

ـ حسناً .

ودخلت لأتغدى . وكان الطعام يعد وافياً في فرنسا ولكنه يبدو الى جانب طعام اسبانيا ، مقنّناً الى حد بعيد . وشربت زجاجة خمر لآنس بصحبتها ، وكانت من نوع «قصر مارغو» . إنه لممتع للمرء أن يترشف الخمرويتذوّقها

وأن يشربها وحده . إن زجاجة الخمر هي صاحبة مؤنسة .

وشربت فنجان قهوة ، واثنى النادل على نوع من الليكورٓ الباسكي يدعى «ايزارا» وجلب زجاجة منه وملأ لي قدح ليكور ، وذكرّ بأن ليكور «ايزارا» مصنوع من زهور جبال «البيرينه» ، من زهور حقيقية مقطوفة من «البيرينه» ، إنه يبدو كزيت الشعر ورائحته شبيهة بـ(السترينغا) الايطالية ، وطلبت اليه أن ينحّي زهور (البيرينه) جانباً ويجلب لي ليكور(فيومارك) وكان هذا (الفيومارك) جيداً ، وشربت قدحاً منه بعد احتساء القهوة .

وبدا النادل كأنه أهين فيما يخص الزهور(البيرينيه) ولهذا فقد نقدته منحة وافية ، مما جعله مسروراً . كنت أشعر بأنني ناعم البال في بلد يستطيع المرء فيه أن يدخل البهجة الى نفوس الناس ، في سهولة ويسر .

ليس في وسعك في اسبانيا ، أن تقول ماإذا كان الخادم الاسباني سيقدّم اليك الشكر . أمّا في فرنسا فإن كل شيء يرتكز على أسس مالية واضحة جداً ، إنه أيسر بلد يعيش فيه إنسان . فليس ثمة شخص يعقد لك الأمور موثقاً أواصر الصداقة معك ، لغرض خبيء مبهم ، فإذا رغبت في أن يحبّك الناس ثمة فليس لك إلا أن تبذل بعض المال . وقد بذلت قليلاً من المال فاكتسبت ود النادل وقدّر قيمتي . ولسوف يكون سعيداً أن يراني أعود من جديد . ولسوف أتغدّى هنا ، حين ينفسح لي الوقت ، وسوف يكون جذلان برؤيتي ليهيّئ لي طاولة أجلس اليها ، لعلّ هذا الود أن يكون مخلصاً ، لأنه يتّكئ على أساس متين... بلى لقد عدت الى فرنسا .

وفي صباح اليوم التالي نقدت كل مستخدم في الفندق منحة وافية ، لاكتسب مزيداً من الأصدقاء ، وسافرت بقطار الصباح الى (سان سيباستيان) ولم أعط العتّال منحة أكثر مما ينبغي ان أعطيه ، فقد قدّرت أنني لن ألتقي به مرة ثانية . ولم أكن أريد سوى بعض الأصدقاء الفرنسيين الطيّبين في (بايون) لأحظى بترحيبهم عند عودتي اليها . كنت أعرف أن صداقتهم لي ستكون وافية اذا تذكّروني .

وفي (ايردن) اضطررت الى تغيير القطار وابراز جواز سفري . لقد كرهت مغادرة فرنسا فقد كانت الحياة فيها بسيطة ، وشعرت بأنني مجنون في اعتزامي العودة الى اسبانيا ، فليس في ميسورك أن تعرف ماذا يحدث لك في اسبانيا ، بلى شعرت بأنني مجنون إذ أعود اليها . بيد أنني وقفت في صف الواقفين ، أمام مكتب الجوازات ، حاملاً جواز سفري ، وفتحت حقائبي أمام موظّفي الجمرك وشريت بطاقة السفر ، ودخلت من باب الرصيف ، ثمّ صعدت القطار وبعد أربعين دقيقة ومرور القطار بثمانية أنفاق وصلت الى (سان سيباستيان) .

إن (سان سيباستيان) تحتفظ حتّى في النهار القائظ ، بجو صباحي رطب ، وتتبدى أوراق الشجر وكأنّ نداوتها لم تجف كل الجفاف . وتتراءى الشوارع وكأنها قد رشّت منذ أمد قريب ، وإنّك لتجد دوماً حتّى في أشد الأيّام حرّاً ، بعض الشوارع رطبة ، ظليلة . وقصدت فندقاً في المدينة كنت قد حللت فيه من قبل ، حيث أنزلوني غرفة ذات شرفة مطلّة على سطوح مباني المدينة . وكان ينتصب بعيد هذه السطوح سفح جبل مخضوضر .

وفككت حقائبي ورصفت كتبي على الطاولة المجاورة لرأس السرير ، وأخرجت أدوات الحلاقة ، وعلّقت بعض الألبسة ضمن صوّان كبير ، وأعددت كدسة من الثياب لتنظيفها ، ثمّ أخذت (دوشاً) في حجرة الحمّام . ثمّ نزلت لأتغدى .

إن اسبانيا لم تأخذ بنظام توقيت الساعة الصيفي ، لقد هبطت إذاً مبكّراً ، وضبطت ساعتي . لقد غنمت ساعة من الوقت بقدومي الى (سان سيباستيان) .

وبينما أنا أدخل حجرة الطعام ، جلب لي البوّاب ورقة بيانات للشرطة لأملأها ، وأوقّعها . وطلبت اليه ورقتيْ نموذج برقية . فأبرقت في الأولى الى فندق (مونتويا) ليوافيني بالرسائل والبرقيّات الموجّهة اليّ ، الى عنواني الحالي . وحسبت عدد الأيام التي سأمضيها في (سان سيباستيان) ، فطلبت

في برقيّتي الثانية الى مكتبي بباريس الاحتفاظ ببريدي وموافاتي في (سان سيباستيان) خلال ستة أيّام ، بكل البرقيّات التي قد ترد اليّ ، ثمّ ذهبت وتغدّيت .

وبعد الغداء ، صعدت الى غرفتي ، وقرأت قليلاً ، ثمّ أويت الى النوم ، ولمّااستيقظت كانت الساعة تشير الى الرابعة والنصف ، ووجدت (مايوه) السباحه ، ولففته مع المشط ، بمنشفة ، ونزلت وسرت في الشارع نحو شاطىء (الكونشا) .

وكان المد مرتفعاً بعض الشيء ، وكان الشاطىء مستوياً راسخاً ، كان الرمل أصفر . ودخلت حجيرة الحمّام (الكابين) فنزعت ثيابي ولبست (المايوه) واتجهت نحو البحر ، فوق الرمل المليس ، وكان الرمل حاراً تحت قدمي الحافيتين ، وكان يوجد قليل من الناس في الماء وعلى الشاطىء ، وفي المدى الأبعد ، هناك ، حيث يتدانى رأسا شاطىء (الكونشا) ويوشكان أن يتّصلا ليؤلّفا الميناء ، كان يبدو خط الأمواج الأبيض ومنبسط البحر .

ورغم أن المد كان متطامناً ، فقد كانت ثمة مويجات بطيئة ، وكانت تتقدّم متماوجة على صفحة الماء ، وكانت لاتني تكبر في الحجم ثمّ تتكسّر ، في ليان ، على الرمل الدافىء .

وخضت الماء فألفيته بارداً ، وفيما كانت موجة مقبلة . رميت نفسي في غمرتها ، وجعلت أسبح تحت الماء ثمّ طفوت وقد زايلني الشعور بهراءة البرد ، وأخذت أسبح حتّى وصلت الى الرمث[١] فعلوته واستلقيت على ألواح الخشب الحار ، وكان على طرفه الآخر فتى وفتاة ، وكانت الفتاة قد حلّت أعلى زنار المايوه ، وانبطحت لتسمّر ظهرها بالشمس ، وكان الفتى متمدّداً ، ووجهه الى الرمث ، يتحدّث الى الفتاة ، وكانت تضحك معرضة ظهرها المسمّر لأشعة الشمس .

---

(١) الرمث : خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر . ترجمة كلمة raft

وظللت مستلقياً على الرمث ، أنعم بالشمس حتّى جف إهابي ، ثمّ قمت بعدة حركات في الغوص ، وعيناي مفتوحتان ، فكنت أرى كل شيء قاتماً أخضر ، وبدا لي الرمث ظلاً أسود ، ثمّ طفوت على سطح الماء قريباً من الرمث ، وعلوته ، وغصت مرة أخرى ولكن على امتداد السطح ، ثمّ سبحت متّجهاً نحو الشاطئ حتّى وصلت اليه . وجففت جسمي بينما أنا مستلق على الشاطئ ثمّ مضيت الى حجيرة الحمّام ونزعت (المايوه) وبللت جسمي بالماء العذب الرطب وجعلت أدلكه حتّى يجف .

وتمشّيت حول المرفأ في ظل الأشجار ، حتّى وصلت الى الكازينو ، ثمّ سلكت أحد الشوارع الرطبة . حتّى أفضيت الى مقهى (ماريناس) وكانت تعزف فرقة موسيقية ، داخل المقهى ، واتخذت مجلسي على السطيحة ، لأنعم بالرطوبة في ذلك النهار الصائف ، وشربت كأساً من عصير الليمون المثلّج ، وقدحاً كبيراً من الويسكي بالصودا . ومكثت أمداً طويلاً وأناجالس على سطيحة (ماريناس) أقرأوأنظرالى المارة واستمع الى الموسيقى .

وحين بدأت عتمة الليل ، درت حول الميناء ، متجوّلاً في شوارع المنتزه وأخيراً عدت الى الفندق لأتعشّى .

وكان ينظّم في ذلك الوقت سباق للدرّاجات ، في دوره بلاد الباسك ، وكان المتسابقون قد توقّفوا في (سان سيباستيان) ليبيتوا فيها ليلتهم .

وكان قد أعدّ ، في ركن من حجرة الطعام ، مائدة طويلة ، جلس اليها المتسابقون يأكلون مع مدرّبيهم والمشرفين عليهم ، وكانوا جميعاً فرنسيين أو بلجيكيّين ، وكانوا يراعون طعامهم في انتباه دقيق ، ولكنهم كانوا يسمرون ويتمتّعون بوقت طيب ، وكان يجلس الى رأس المائدة فتاتان فرنسيّتان جميلتان ، من صميم طراز فتيات (مونمارتر) ، ولم أستطع أن أعرف من تخصّان من هؤلاء . وكان الجالسون الى المائدة الكبيرة يتكلّمون جميعاً بلهجة عامية ، وقد رويت مختلف الفكاهات في نهاية المائدة ، ولم يسرد بعضها على الفتاتين حين طلبتا الاستماع اليها . وكان على المتسابقين

أن يستأنفوا السير ، في الساعة الخامسة ، من صباح اليوم التالي ، لاتمام المرحلة الأخيرة بين (سان سيباستيان) و(بلباد) .

كان المتسابقون يحتسون كثيراً من الخمرة ، وكانت الشمس قد لوّحت أجسامهم بالسمرة الشديدة ، ولم يكونوا ينظرون الى السباق نظرة جد واهتمام فيما بينهم! فقد جرت من قبل ، فيما بينهم ، مسابقات هي من الكثرة بحيث أضحى لافرق لديهم من الذي سيكون منهم السبّاق المحلّي ، وبخاصة في بلد أجنبي : أمّا مسألة المال ، فقد كانت تسوّى دوماً .

وكان المتسابق الذي تقدّم على الباقين بدقيقتين في السباق يشكو من ظهور دمامل جعلت تؤلمه أشد الألم ،وكان جالساً على جانب من ظهره . وكان عنقه شديد الإحمرار ، وكان شعره الأشقر قد لوّحته أشعة الشمس . وكان بقية المتسابقين يعابثونه على دمامله . وقرع بشوكته :

ـ استمعوا اليّ ، غداً سوف ألصق أنفي بمقود الدرّاجة ، الصاقاً جيّداً الى حد أنه لن يكن في ميسور أي شيء أن يمسّ دماملي ، إلا أن يكون نسيماً عذباً .

ورنت اليه إحدى الفتاتين من رأس المائدة فتكلّف ابتسامة واحمرّ وجهه ، وكانوا يردّدون أن الاسبان لايعرفون كيف يسوقون الدرّاجة .

وشربت القهوة على السطيحة مع مدرّب فريق معمل كبير للدرّاجات . فذكر لي أن السباق كان ممتعاً جداً ، وأنه كان حقيقاً أن يرافق لمتابعة مشاهدته ، لو لم ينسحب «بوتيشيا» في (بامبيلونه) . لقد كان الغبار هناك مقيتاً ، وإن كانت الطرق في اسبانيا هي أفضل من الطرق في فرنسا . وقال إن سباق الدراجات هو الرياضة الوحيدة في العالم ، ثمّ سألني فيما إذا كنت قد تتبّعت سباق دوره فرنسا ؟ فأجبته : في الصحف ليس غير . فقال ، إن سباق دورة فرنسا هو أكبر حدث رياضي في العالم ،وقد تيسّر له ، بتنظيمه مباريات سباق الدرّاجات ومرافقتها أن يتعرّف أرض فرنسا ، إن فئة قليلة من الناس تعرف أرض فرنسا كلّها ، وهو يقضي الربيع كله ، والصيف كله ، والخريف كله

على الطرق مع متسابقي الدرّاجات . انظر ، الآن ، الى عدد أصحاب السيارات الذين يتبعون متسابقي الدرّاجات ، من بلد الى بلد ، خلال السباق . إنها لبلاد غنيّة ، وإنها لتتشبّع بالروح الرياضية عاماً بعد عام ، وذلك بفضل مباريات سباق الدرّاجات . . بفضلها وبفضل كرة القدم أيضاً . إنه يعرف أرض فرنسا جيّداً يعرف La France Sportive[1] ، كما يعرف سباق الدرّاجات ، وشربنا شيئاً من الكونياك . ومهما كان الحال فليست العودة الى باريس شيئاً غير مستحب . لايوجد في العالم سوى (باناما) واحدة ، وهكذا ، فإنّ باريس هي أعظم بلد رياضي في العالم . هل عرفت (لاشوب دونيغر) ؟ كلا . كم أود أن أراه يوماً ما . أود ذلك طبعاً ، كم أود لو شربت قدحاً آخر معاً ، أود ذلك طبعاً . إن عليهم أن يرحلوا في الساعة السادسة والربع صباحاً ، هل سأنهض لمشاهدة مغادرتهم ؟ ـ سأحاول ذلك طبعاً ـ هل أرغب في أن يوقظني هو ؟ إن مشاهدة ذلك لشيء مشوّق جداً ـ سوف أطلب الى مكتب الفندق أن يوقظني ـ ولكن ليس لديه هو مانع من إيقاظي ـ لاأريد أن يتحمّل هذا العناء ، سوف أطلب الى مكتب الفندق أن يوقظني . وتبادلنا جملة (الى اللقاء) الى صباح اليوم التالي .

ولمّا استيقظت في الصباح ، كان المشتركون في سباق الدرّاجات وقافلة السيارات المرافقة لهم قد اتخذوا أدراجهم في الطريق ، منذ ثلاث ساعات .

وشربت قهوتي ، وقرأت الجرائد في سريري ثمّ ارتديت ثيابي وأخذت المايوه . . ونزلت الى الشاطئ .

كان كل شيء رطيباً بارداً نديّاً عند متوع الصباح الباكر ، وثمة مربّيات يرتدين ثياباً متجانسة وثياباً ريفية يسرن مع أطفال في ظل أغصان الأشجار ، وكان الأطفال الاسبان غاية في الجمال .

كان بعض ماسحي الأحذية يتحدّثون جالسين في فيء شجرة مع جندي ،

---

(١) وردت في النص بالاسبانية . أي فرنسا الرياضية . (المعرّب)

وكان للجندي ذراع واحدة . وكان المد مرتفعاً ، وهبّ هواء عنيف ، وجعلت الأمواج تتكسّر على الشاطىء .

ونضوت ثيابي في إحدى الحجيرات ، وجزت مسافة ضيقة رملية ثمّ غطست في الماء سابحاً في المدى المنفسح أمامي ، محاولاً أن أسبح بين الأرماث ، مضطراً الى الغوص أحياناً ، ولمّا وصلت الى الماء الهادى عدت عائماً . لم أكن أرى وأنا أعوم سوى السماء ، وشعرت بتلاطم الموج يرفعني وينخفض بي . ورجعت سابحاً الى الشط تحملني موجة . ولازمت الشط وأنا منبطح فوق رمث كبير ، ثمّ عدت الى السباحة ، محاولاً أن اسبح بين الأرماث ومحاذراً أن يتكسّر الموج عليّ ، وارهقتني سباحتي على هذا النحو فعدت واتّجهت نحو الرمث . كان الماء رطباً لطيفاً ، وخامرني شعور بأنّ الغرق ثمة مستحيل ، وسبحت متمهّلاً ، وبدا لي أن السباحة ستطول مع ذلك المد المرتفع . وعلوت الرمث وجلست والماء يقطّر منّي ، على خشب الرمث الذي أضحى دافئاً تحت أشعة الشمس ، وسرحت بصري في الخليج ، في المدينة القديمة ، في الكازينو ، في صف الأشجار الممتد على حيد شارع المنتزه ، وفي الفنادق الكبيرة بأروقتها وأسمائها الكبيرة المخطوطة بأحرف مذهبة .

كانت تنتصب الى اليمين ، بعيداً ، ربوة خضراء ذات قصر كبير توشك أن تغلق الميناء . وكان الرمث يتأرجح على نغم الماء . والى الطرف الآخر من الفجوة الضيقة المنفتحة على منفسح البحر ، كانت تتبدّى هضبة مرتفعة .

وفكّرت في أن أجتاز الخليج ، لكنني خشيت أن أصاب بالتشنّج . كنت أرامق السابحين على الشط وأنا جالس أنعم بالشمس ، وكانوا يتراءون لي من بعيد صغاراً . وبعد هنيهة ، نهضت ووقفت ، متمسّكاً بإبهامي رجلي بطرف الرمث ، فيما كان يتطامن مائلاً تحت ثقل جسمي ، ثمّ غصت في الماء عميقاً ، لأطفو فيما بعد على الماء المضيء . ونفضت الماء المالح من رأسي ثمّ سبحت في تؤدة وانتظام نحو الشط .

وعدت الى الفندق بعد أن لبست ودفعت أجرة حجيرة الحمّام . وكان المشتركون في سباق الدرّاجات قد تركوا بضعة أعداد من مجلة (السيارة) ، فجمعتها من ردهة القراءة وأخذتها وخرجت لأجلس على مقعد مريح ، تحت أشعة الشمس لأتصفّحها وأطّلع على الحياة الرياضية في فرنسا .

وفيما كنت أقرأ تقدّم منّي البوّاب وفي يده ظرف أزرق ، وقال :

ـ برقية لك ، ياسيدي .

وأمررت اصبعي تحت الطية التي تغلّفها وفتحتها وقرأت ، فإذا بها مرسلة اليّ ، متابعة من (باريس) :

« هل تستطيع المجيء لفندق مونتونا ـ مدريد ـ أنا في ضيق » .

« بريت »

ونقدت البوّاب منحة صغيرة وأعدت قراءة البرقية . وكان هناك موزّع بريد يذرع الرصيف... ودخل الفندق ، وكان ذا شاربين ضخمين وهيئة عسكرية ثمَ خرج من الفندق والبوّاب يتبعه .

ـ توجد برقية أخرى لك ياسيّدي .

وقلت :

ـ شكراً .

وفتحتها ، فوجدتها مرسلة الي ، متابعة من (بامبيلونه) :

« هل تستطيع المجيء لفندق مونتانا ـ مدريد ـ أنا في ضيق » .

« بريت »

كان البوّاب لايزال واقفاً ينتظر منحة جديدة ، على الأرجح ، وسألته :

ـ في أي وقت يوجد قطار مسافر الى مدريد ؟

ـ لقد سافر قطار هذا الصباح في الساعة التاسعة ، وهناك القطار البطيء في الساعة الحادية عشرة ، والقطار السريع الجنوبي في الساعة العاشرة مساءً .

ـ احجز لي محلاً ذا مضجع في القطار السريع الجنوبي . أتريد نقود حالاً ؟

فقال :

ـ كما تشاء . إذا رغبت وضعته ضمن قائمة حساب الفندق .

ـ فليكن ذلك .

وبعد... فمعنى هذا ، أن إقامتي في (سان سيباستيان) قد ولّت وهوت الى الجحيم . وأحسب أنني توقعت بصورة غامضة شيئاً من هذا القبيل . ورأيت البوّاب واقفاً أمام الباب وقلت له :

ـ إيت لي ، من فضلك بورقة نموذج برقية .

واحضرها لي وسحبت قلم المحبر وكتبت :

« لادي اشلي ـ فندق مونتانا ـ مدريد ـ سأصل بالقطار السريع غداً ـ مع محبّتي » .

« جاك »

وبدا لي أن الأمور تسوّى كذلك ، وتتم هكذا : بأن ترسل فتاة مع رجل فتتعرّف على آخر لتهرب معه . ويتعيّن عليك ، الآن ، بأن تذهب لتعود بها ، ثمّ تختم برقيّتك بما يلي : مع محبّتي ، حسن جداً... ومضيت لأتغدّى .

ولم أغف كثيراً في القطار السريع ، ليلتي تلك . وتناولت الفطور ، صباحاً في عربة الطعام ، وجلست أنظر الى تلك المنطقة الصخرية الصنوبرية الممتدّة بين (آفيلا) و(الاسكوريال) .

ورأيت جبل (الاسكوريال) من النافذة رمادياً مرتفعاً بارداً تحت أشعة الشمس ، ولم أوله أي تطلّع . كما رأيت مدريد تشرئب من السهل ظلاً أبيض متراصاً قائماً فوق ربوة صغيرة ، في المدى البعيد ، عبر أرض مشمسة مخشوشنة .

إنّ المحطة الشمالية في (مدريد) هي نهاية الخط الحديدي ، فكل القطر تتراخى اليها ولا تتجاوزها أبداً .

وكانت تقف خارج المحطة ، عربات وسيّارات تاكسي وصفوف من رسل الفندق .

وبدت لي المدينة أشبه بمدن الريف... وركبت سيارة تاكسي صعدت بنا عبر الحدائق . ومرّت بالقصر الخالي وبالكنيسة التي لم يتم بناؤها الى جانب الهضبة . ثمَ تابعنا السير حتّى وصلنا الى المدينة الجديدة ، العالية الحارة ، ومن شارع معبّد مليس ، دلفت السيارة الى (البوير تاديل سول) واجتازت زحمة الطريق وانتهت الى (كاريرا سان جيرونيمو) . وكانت المخازن كلّها قد أسدلت مظلآتها بسبب الحر ، وكانت النوافذ في الجهة المشمسة من الشارع مغلقة . وتوقّفت السيارة على حيد الرصيف ، ورأيت لوحة (فندق مونتانا) على الدور الثاني . وحمل سائق سيارة التاكسي الحقائب ووضعها الى جانب المصعد ، غير أنّي لم أستطع أن أسيّر المصعد ، فارتقيت الدرج . وفي الدور الثاني رأيت لوحة نحاسية نقش عليها : (مونتانا) ورننت الجرس فلم يقبل أحد الى الباب وعاودت الرنين ، ففتحت الباب خادم ذات وجه نكد ، وسألتها :

ـ أتكون الليدي «أشلي» هنا ؟

ورشقتني بنظرة بلهاء ، وسألت أيضاً ؟

ـ أتوجد هنا سيدة انكليزية ؟

واستدارت ثمّ نادت شخصاً ، فأقبلت امرأة ضخمة الى الباب . كان شعرها شائباً مدهوناً بالزيت الغزير ، وأحاط وجهها مايشبه المروحة المصدّفة ، وكانت قميئة ذات مظهر آمر ، قلت :

ـ Muy Buenos[1] توجد هنا سيدة انكليزية ، أود أن أقابل هذه السيدة الانكليزية .

ـ Muy Buenos ، أجل توجد هنا سيدة انكليزية ، من المؤكّد أنّك تستطيع أن تراها إذا رغبت في ذلك .

ـ إنها ترغب في الإجتماع اليّ .

---

(١) وردت بالاسبانية في النص ومعناها . حسن جداً .

ـ سوف تسألها الوصيفة .

ـ الحر شديد جداً .

ـ الحر شديد جداً في (مدريد) ، صيفاً .

ـ وما أشد البرد في الشتاء .

ترى أكنت أود أن أنزل فندق (مونتانا) ؟ الى تلك اللحظة لم أستقر على رأي ، غير أنني وددت أن تنقل حقائبي من الدور الأرضي لئلا تكون معرّضة للسرقة . لم تكن قد حصلت من قبل ، أيما سرقة في فندق (مونتانا) ، أمّا في بقية الفنادق فنعم . هنا ، لا .

إنّ نزلاء هذا الفندق هم من الصفوة المختارة في عناية ، وكنت مسروراً أن أعلم ذلك ، بيد أنني وددت مع هذا أن تنقل حقائبي الى عل .

وعادت الخادم فقالت إن السيدة تود أن ترى السيد الانكليزي الآن ، فوراً .

وقلت :

ـ حسناً ، أرأيت ؟ كما قلت لك ذلك .

ـ طبعاً .

وتبعت الخادم في رواق طويل معتّم نقرت في نهايته على الباب ، وقالت « بريت » :

ـ هالو ، أأنت « جاك » ؟

ـ أنا نفسي .

ـ ادخل ، ادخل .

وفتحت الباب ، واغلقته الخادم خلفي ، كانت « بريت » في السرير ، وكانت قد انتهت ، آنذاك ، من ترجيل شعرها ، وكانت يدها ماتزال ممسكة بالفرشاة . وكانت الغرفة تجلو منظر الفوضى الذي يبعثه فقط أولئك الذين ألفوا أن يكون لديهم خدم دوماً .

وقالت « بريت » :

ـ يا حبيبي .

وخففت الى السرير وطوّقتها بذراعي ، فقبّلتني ، وفيما كانت تقبّلني استطعت أن أشعر بأنها كانت تفكّر في شيء آخر ، كانت ترتجف بين ذراعي ،وأحسست بها صغيرة جداً .

ـ حبيبي ، لقد مرّ عليّ وقت كالجحيم .

ـ اذكري لي ما بك ؟

ـ ليس ثمة شيء جدير بأن أذكره ، لقد غادرني البارحة فحسب ، لقد حملته أنا على الذهاب .

ـ ولمَ لم تستبقيه ؟

ـ لاأدري ، إن هذا لشيء لايمكن أن يحدث ، وأحسب أنني لم أسئ اليه .

ـ على الأرجح ، إنك ، بهذا أحسنت اليه .

ـ ليس هو جديراً بأن يعيش مع أيما إنسان ، تبيّن لي ذلك فيما بعد .

ـ لا ؟

ـ اوه ياللجحيم! دعني من التحدّث بذلك منذ الآن ، لنمسك عن التحدّث بذلك دوماً .

ـ كما تشائين .

ـ كانت صدمة لي حين ألفيت أنه يشعر بالخجل والمهانة حين أكون معه ؟ كان يشعر بالمهانة ، أمداً غير يسير .

ـ لا .

ـ اوه ، بلى كانوا يركبونه بالهزء في المقهى . لقد أحسست بذلك . وقد طلب اليّ أن أترك شعري يطول ، أن أبدو أنا بشعر طويل! إنه القبح الجهنّمي بعينه .

ـ إنه لشيء مضحك .

ـ قال إن هذا يكسبني مزيداً من مظهر الأنوثة ، لعلي أن أبدو به مخيفة .

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ اوه ، لقد اذعن ، ولم يعد يشعر بالمهانة فترة طويلة .

ـ وما أمر هذا الضيق الذي ألمّ بك ؟

ـ لم أكن أعلم ماإذا كان في مقدوري أن أحمله على السفر . ولم يكن لدي دانق واحد ، لأستطيع السفر وأتركه . أتدري ؟ لقد حاول أن يعطيني قدراً كبيراً من المال ، ولكنني قلت له : إن لدي أكواماً من المال ، كان يعلم جيداً أن ذلك كذب ، أتدري ؟ لم يكن في مكنتي أن أقبل منه مالاً .

ـ لا .

ـ اوه ، دعنا من التحدّث بهذا بعد الآن ، ومع ذلك ، فقد جرت بعض الحوادث المضحكة... أعطني سيكارة .

وأشعلت السيكارة .

ـ لقد تعلّم اللغة الانكليزية حين كان يعمل نادل مقهى في جبل طارق .

ـ بلى .

ـ كان يريد الزواج بي ، في النهاية .

ـ حقاً ؟

ـ طبعاً أنا لاأقدر على الزواج حتّى بمايك .

ـ لعله كان يعتقد بأنه قد يصبح ، إذا تزوّجك ، لورد «اشلي» .

ـ لا لم يكن الأمر كذلك . كان يريد الزواج بي حقّاً ، وكان يقول إنه يريد ذلك لئلا يكون في ميسوري أن أهجره . كان يريد أن يستوثق من أنني لن أتركه قط ، بعد أن أصبحت طبعاً أكثر أنوثة .

ـ لعلّك ان تشعري الآن بأنّك خليّة البال .

ـ إنني لكذلك : أشعر أنني في حال جيدة ، الآن . أتدري ؟ لقد طمس « كون » ذلك اللعين وأودى به .

ـ حسناً .

ـ أتدري ؟ لعلّي قبلت أن أعيش معه لو لم أعلم بأن ذلك يسيء اليه ، كنّا

متفاهمين على نحو عجيب .

ـ باستثناء مظهرك الشخصي .

ـ اوه ، لعله أن يألف ذلك .

وأطفأت سيكارتها .

ـ إن لي أربعة وثلاثين عاماً من العمر ، أنت تعلم ذلك ، ولا أريد أن أضحي كإحدى العواهر اللاتي يفسدن الفتيان .

ـ لا .

ـ لا أريد أن أسلك هذا الطريق ، أشعر بأنني في حال جيدة ، أشعر بأنني على أحسن حال .

ـ حسناً .

ونحّت بصرها . وحسبت أنها كانت تبحث عن سيكارتها ، ولكنني رأيتها تبكي... شعرتُ بأنها كانت تبكي ، كانت ترتعش وتبكي ، وكانت تتجنّب أن تتطلّع اليّ . واحطتها بذراعي .

ـ لنمسك عن التحدّث بذلك منذ الآن ، أرجوك . دعنا من التحدّث بذلك .

ـ ياعزيزتي « بريت » .

ـ سأعود الى « مايك » (كان في ميسوري أن أشعر ببكائها فيما كنت أضمّها) . إنه لطيف جداً ومخيف جداً ، إنه النمط الذي يلائمني تماماً .

ولم تشأ أن ترفع طرفها ، كنت ألامس شعرها ، وكنت أحسّ بأنّها لاتني تبكي ، وقالت :

ـ لا أريد أن أصبح كإحدى العواهر ، ، ولكن اوه ، « جاك » أرجوك لنمسك عن التحدّث بذلك منذ الأن...

وتركنا فندق مونتانا ، ورفضت المرأة التي تدير الفندق أن أسدّد الحساب ، فقد كان مسدّداً من قبل .

ـ أوه ، حسناً ، دع ذلك ، لم يعد لهذا أهمية أي أهمية .

ومضينا في سيارة تاكسي الى فندق(بالاس) حيث وضعنا حقائبنا وعملت على حجز محلّين بمضجعين في القطار السريع الجنوبي ، للسفر مساءاً . ودخلنا الى مشرب الفندق لنشرب (كوكتيل) من الأشربة ، وجلسنا على مقعدين مرتفعين الى جانب المشرب ، فيما كان الساقي (البارمان) يخضخض شراب (المارتيني) في وعاء كبير من النيكل .

وقالت :

ـ إنها لطريفة ، هذه المجاملة المؤنسة التي يظفر بها المرء دوماً في الفنادق الكبيرة .

ـ إن سقاةالمشرب (البارمان) وفرسان السباق (الجوكية) هم وحدهم الذين ظلّوا مهذّبين .

ـ مهما يكن الفندق مبتذلاً فإن المشرب يظل دوماً لطيفاً .

ـ إنه لشيء طريف .

ـ إن سقاة المشرب هم دوماً لطفاء .

وقالت «بريت» :

ـ أتدري ؟ إن ذلك لحقيقي . إن عمره تسعة عشر عاماً ليس غير ، أليس هذا مدهشاً ؟

وقرعنا كأسينا اللتين كانتا متجاورتين على الخوان ، وكانتا مغمورتين برغوة رطبة .

وكان يتّقد خارج النافذة المسدلة الستارة ، صيف (مدريد) الحار ، وقلت لساقي المشرب :

ـ أود حبة زيتون في كأس (المارتيني) .

ـ حقاً ياسيّدي ، هذه هي حبة كما ترغب .

ـ شكراً .

ـ أتدري ؟ كان عليّ أن أطلب أيضاً .

وابتعد ساقي المشرب مسافة تكفي بأن لا يكون في وسعه سماع

حديثنا ، ورشفت « بريت » رشفة صغيرة من كأس (المارتيني) وهي موضوعة على الخوان ، ثمّ أمسكت بها وأضحت يدها قادرة ، بعض الشيء ، على رفع الكأس ، إثر تلك الرشفة .

ـ إنه طيب . هذا المشرب لطيف ، أليس كذلك ؟

ـ إن المشارب كلها لطيفة .

ـ أتدري ؟ في البدء لم أصدّق ذلك ، لقد ولد عام ١٩٠٥ . في هذا الوقت كنت في المدرسة بباريس ، تصوّر ذلك .

ـ أي شيء تريدين أن أتصوّر ؟

ـ لا تكن حماراً . قل لي ، هل لك أن تطلب كأساً أخرى الى السيدة .

وقلت للساقي :

ـ نريد كأسين من (المارتيني) .

ـ أتريدهما مثل الكأسين السابقتين ياسيدي ؟

وقالت له « بريت » :

ـ كانتا طيّبتين جداً .

وابتسمت له .

ـ شكراً ياسيدتي .

وقالت « بريت » :

ـ حسناً على نخب صحتك .

ـ على نخب صحتك .

وقالت « بريت » :

ـ اتدري ؟ إنه لم يعرف قبلي سوى امرأتين ، إنه لم يشغف بشيء ، فيما عدا الثيران .

ـ إن لديه منفسحاً كبيراً من الوقت .

ـ لا أدري ، إنه يعتقد بأنني كنت وحدي المرأة التي أحب . وليس هذا على الجملة تظاهراً .

ـ حسناً ، كنت أحسب أنه يتعيّن عليك ألا تعاودي الحديث عنه .
ـ كيف أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك ؟
ـ إنه يصدر منك ، عفواً ، إن تحدّثت عنه كثيراً .
ـ اذن سأكتفي بأن أدور حول الموضوع . أتدري يا «جاك» ، أشعر بأنني في حال جيدة على نحو ما .
ـ ينبغي أن تكوني كذلك .
ـ أتدري ؟ إن ذلك يجعل المرأة تشعر بأنها على الجملة في حال جيدة ، حين تعتزم أن تكون عاهراً .
ـ أجل .
ـ وإنه لشيء نستعيض به عن الإيمان بالله .
وقلت :
ـ هناك أناس يؤمنون بالله ، بل هناك كثير من الناس يؤمنون به .
ـ ولكنه لم يحسن اليّ البتة .
ـ هلاّ تناولنا كأساً أخرى من (المارتيني) ؟
ومزج لنا الساقي كأسين أخريين من (المارتيني) وصبّهما في كأسين نظيفين .
وسألت «بريت» :
ـ أين سنتناول طعام الغداء ؟
كان المشرب رطباً ، وكان في ميسورنا أن نشعر بحرارة الجو في الخارج ، عبر النافذة .
وسألت «بريت» :
ـ هنا ؟
ـ لا يقدّم هنا في الفندق طعام جيد (وسألت الساقي) هل تعرف مطعماً اسمه (بوتان) ؟
ـ أجل ياسيدي ، هل تودّ أن أكتب لك عنوانه ؟

ـ شكراً .

وتناولنا الطعام في الدور الأول من مطعم (بوتان) ، وكان من أحسن المطاعم في العالم ، وأكلنا لحم خنّوص[1] مشوياً ، وشربنا خمر (ريوجا التا) ولم تأكل «بريت» كثيراً ، ولم تكن تأكل كثيراً ، بينما أصبت أنا غداءاً دسماً وشربت ثلاث زجاجات من (ريوجا التا) . وقالت «بريت» :

ـ كيف تشعر يا «جاك» ؟ ربّاه! أي طعام تستطيع أن تلتهم!

ـ أشعر أنني في حال جيدة جداً ، هل تريدين شيئاً من المحلّى ؟

ـ أوه ، ربّاه ، كلا .

وكانت تدخّن ، وقالت :

ـ أنت تحب أن تأكل ، أليس كذلك ؟

وقلت :

ـ أجل ، ثمة أشياء كثيرة أحب أن أقوم بها .

ـ أي شيء تحب أن تقوم به ؟

ـ اوه ، أحب القيام بأشياء شتّى ، ألا تريدين شيئاً من المحلّى ؟

وقالت «بريت» :

ـ لقد سألتني ذلك من قبل .

وقلت :

ـ اوه ، حقاً . لنشرب زجاجة أخرى من (ريوجا التا) .

ـ إنها لذيذة .

وقلت :

ـ لنأخذ زجاجتين .

وأحضرت الزجاجتان ، وسكبت قليلاً في كأسي وملأت كأساً لـ «بريت» ثمّ أفعمت كأسي وقرعنا كأسينا ، وقالت «بريت» :

---

(١) الخنّوص : ولد الخنزير .

ـ على صحّتك .

وحسوت كأسي ثمَ ملأتها ، وأراحت « بريت » يدها على ساعدي وقالت :

ـ لاتحاول أن تسكر يا « جاك » . لست في حاجة الى ذلك .

ـ وكيف تعرفين ؟

وقالت :

ـ لاتفعل ، كل شيء سينتهي الى خير .

وقلت :

ـ لست أبغي السكر ، إنني أشرب شيئاً من الخمر وحسب ، إنني أحب شرب الخمر .

وقالت :

ـ لاتسكر ياجاك ، لاتسكر!

وقلت :

ـ هل لك في أن نتنزّه بالسيارة ؟ هل تودّين أن نقوم بجولة في المدينة ؟

وقالت « بريت » :

ـ أجل لم يتيسّر لي أن أرى (مدريد) ويتعيّن عليّ مع هذا ، أن أرى « مدريد » .

ـ دعيني أنه شرب هذه الكأس .

وخرجنا الى الشارع ، بعد أن جزنا حجرة الطعام من الدور الأوّل . وذهب خادم ليبحث لنا عن سيارة تاكسي .

وقدمت سيارة التاكسي ، مقلّة الخادم الواقف على موطئها الجانبي ، ونقدته منحة صغيرة ، وذكرت للسائق أنّى عليه أن يسعى بنا ، وجلست الى جانب « بريت » . ومضى السائق ، صعداً في الشارع ، وغصت داخل السيارة .

واقتربت « بريت » منّي ، وكنّا جالسين متدانيين ، وأحطتها بذراعي ، وتشبّثت بي في راحة واطمئنان .

وكان الجو حاراً ومضيئاً ، وكانت البيوت تتراءى ناصعة البياض ، ودرنا حول (غران فيا) .

وقالت «بريت» :

ـ آه ، يا «جاك» ، لعله كان في ميسورنا أن نكون سعيدين سوية .

وأمامنا ، كان شرطي سواري بلباس الخاكي ينظّم السير ، ورفع عصاه ، وتمهّلت سيارة التاكسي فجأة ، وضممت «بريت» بشدّة بين ذراعيّ وقلت :

ـ بلى ، أليس من الممتع أن يفكّر المرء في ذلك ؟

إرنست همنغواي

نوبل 1954

ولد أرنست همينغوي يوم 21 يوليو 1899م
في أواك بارك بولاية إلينوي الأمريكية
من أب طبيب مولع بالصيد والتاريخ الطبيعي
.وأم مترمتة ذات اهتمام بالموسيقى
دخل همينغوي معترك الحياة المهنية مبكرا
"حيث عمل صحفيا بجريدة "كنساس ستار
ثم متطوعا للصليب الأحمر الإيطالي 1918م
في أواخر الحرب العالمية الأولى،

:من أهم اعماله
ولا تزال الشمس تشرق 1926
وداعا للسلاح 1929
الذين يملكون والذين لا يملكون 1937
لمن تقرع الأجراس 1940
عبر النهر وخلال الأشجار 1950
العجوز والبحر 1950
القتلة
وليمة متنقلة 1957_1960
رجال بلا نساء
قصص نك آدامز

ISBN 978-9933-407-05-6
9 789933 407056